بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة – وهران –

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

قسم : التاريخ والحضارة الإسلامية

رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير الموسومة بـ:

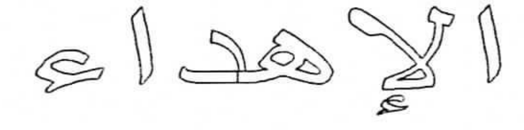
الحياة الاجتماعية بالجزائر في عهد الدايات

1671 – 1830م

تقديم الطالب:
أحمد بحري

إشراف الأستاذ:
أ.د/ دحو فغرور

السنة الجامعية 2001-2002 / 1422-1423



إلى والدي الكريم الذي آثر أن يواجه أعباءا كبيرة في سبيل أن أتمم

هذا العمل

إلىالزوجة الصبورة التي تحملت الكير طوال مشواري الدراسي

إلى أسامة وعبد الحق وأيمن و معاذ الذين حرمتهم من جزء من الاهتمام

الأبوي الضروري مدة غيابي عنهم للدراسة

إلى كل زملاء الدراسة وخاصة قدور الذي لم تمنعه المسافة البعيدة عن

الاهتمام والسؤال الدائم

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الدكتور المشرف دحو فغرور الذي صبر معي كثيرا رغم تقصيري في الكثير من الأحيان

وإلى المشرف المساعد الأستاذ داحة محمد على توجيهاته المفيدة

وإلى الأستاذ محمد بن معمر مساعداته الكثيرة

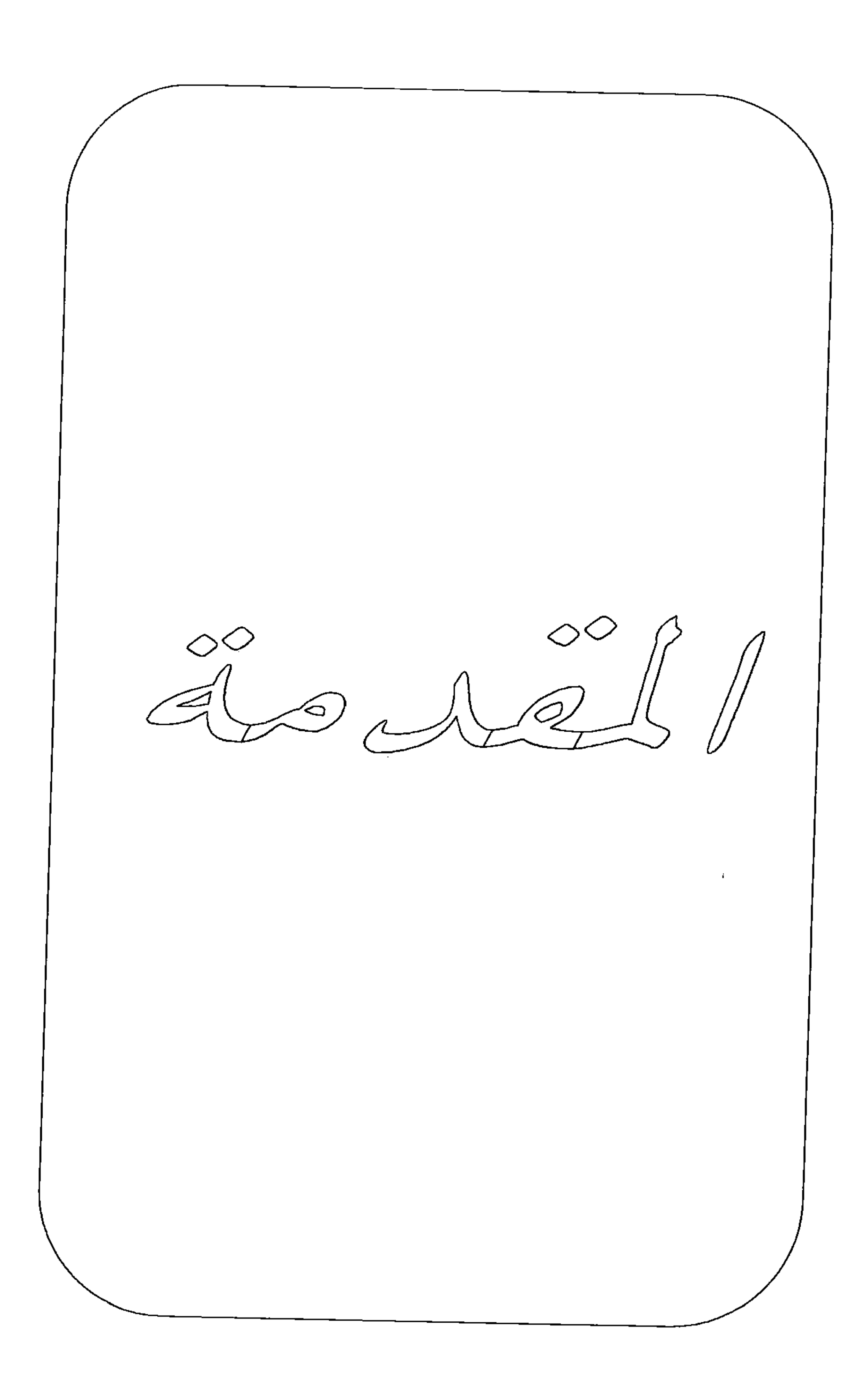
كما لايفوتني أن أنوه بمجهودات كل من:

_ الأخ الفاضل رحلة خالد الذي ساعدني بما حوته مكتبته

_الأخ خالد سماحي على مابذله من جهد في المراجعة اللغوية للرسالة

_ الأخ مصطفى بن ويس الذي ساعدني على طباعة الرسالة علة الحاسوب

_ الأختين عائشة وإيمان اللتين ساعدتاني في الكتابة



المقدمة

مقدمة :

جاء في مستهل كتاب تأملات في تاريخ فرنسا للمؤرخ الفرنسي "أوغستين تيري" قوله:

إن المجتمعات الإنسانية لا تحيا فقط في الحاضر وإنما يهمها معرفة من أين انحدرت لتستطيع أن تتبين وجهتها في المستقبل "[1]

و علّق على هذه المقولة ناصر الدين سعيدوني بما يلي :

" ... فإن كان هذا القول تطلّبته أوضاع فرنسا في القرن الماضي مع أنها كانت استكملت آنذاك مقوماتها وعملت على استعمار الشعوب الأخرى فإنه يصبح ضروريا بالنسبة للجزائر وهي تسعى جاهدة لاسترجاع مقوماتها واستكمال مظاهر سيادتها ..."[2]

في نفس سياق هذه المقولة انبثقت فكرة هذا البحث الأولى حيث كان موضوعه في البداية يطمح إلى التطرق لـ " حضارة الجزائر ونظمها في عهد الدايات " غير أن مراجعة أهل الاختصاص كيّفته وحصرته في " الحياة الاجتماعية والثقافية في عهد الدايات" .

وبالفعل فبعد الشروع في البحث والتنقيب وجمع المادة ، اتضح لي صواب الاقتراح كون مجال البحث على حالته الأولى كان واسعاً جداً، بل حتى في شكله المقترح كان الموضوع لا يزال واسعا خاصة بعد الإطلاع على ما ضمنه أبو القاسم سعد إليه في إنجازه العظيم "تاريخ الجزائر الثقافي"، فالبحث عن إضافة الجديد في الجانب الثقافي ليس بالأمر الهين حيث إن ما كتبه سعد الله هو نتاج 25 سنةمن البحث و التنقيب في أمهات المصادر المطبوعة والمخطوطة وأمام هذا الوضع اضطررت إلى قصر البحث على الحياة الاجتماعية .

من المسائل الأولى التي تتبادر إلى ذهن أي باحث يريد الغوص في الحياة الاجتماعية للجزائر العثمانية هي معرفة العلاقات الاجتماعية بين مختلف طبقات

[1] ــ ناصر الدين سعيدوني ، " نحو نظرة جديدة لتاريخنا الجزائري " الثقافة ع:84 نوفمبر/ديسمبر 1984 ص 39 .

[2] ــ نفس المرجع ، ص 39 .

المجتمع في ذلك العهد، ثم علاقات هذه الطبقات مجتمعة مع السلطة العثمانية أو بصيغة أخرى كيف استطاع الأتراك العثمانيون برغم قلة عددهم واختلاف أصولهم الهيمنة على مقاليد الحكم في الجزائر . فهل مجرد الرابطة الدينية وتهديدات القوى المسيحية كانا كافيين لجعل الجزائريين يتحملون مظالم وتعسف العثمانيين الذي تجاوز كل الحدود حسب ما ورد في مؤلفات الغربيين[3]، أم أن هناك أموراً أخرى ساعدت بقاء العثمانيين رغم ظلمهم، ثم هل كان تعامل هذه السلطة مع كل الجزائريين واحدا أم أن تعاملها كان يختلف من طائفة اجتماعية لأخرى ، وعليه فما هو دور هذه الطوائف في دعم سلطة العثمانيين أوالحد منها وإلى أيّ مدى ساهمت المصالح المادية لمختلف الطوائف الاجتماعية وحالاتها الاقتصادية في تموقعها داخل الهرم الاجتماعي والهرم السياسي .وبشكل عام ما هي المميزات التي طبعت المجتمع الجزائري في عاداته الدينية والاجتماعية والثقافية وغيرها، وبشكل خاص ما هي العوامل التي أثرت على الحياة الاجتماعية للجزائريين في ذلك العصر؟

وأخيراً لماذا لم تتحول الأوجاق الحاكمة في الجزائر إلى سلالة وطنية تحكم البلاد باسم السكان و تستمد قوتها منهم كما حدث في أيالات أخرى كتونس على عهد الحسينيين ومصر على يد محمد علي باشا رغم أن مدة حكم الأتراك كانت طويلة ؟

كل هذه الأسئلة وغيرها تواجه الباحث غير أن الجواب عليها كلها ليس بالمهمة الهينة، بل تقف دونه عقبات كبيرة وذلك لعدة عوامل أهمها :

إن الاهتمام بالدراسات الاجتماعية والاقتصادية مسألة حديثة وهو ما جعل عدد الدراسات التي تناولت الموضوع محدودا جداً، كما أن مجال البحث في تاريخ الجزائر العثمانية ما يزال بكرا لم يخض فيه الكثير من الباحثين ولذلك فمن العسير الخوض فيه دون الوقوع في مطبات كثيرة، بالإضافة إلى أن جل

3 _ من هذه المؤلفات تاريخ مملكة الجزائر لـ "دوتاسي" و "رحلة في أيالة الجزائر" لـ "شاو"

المراجع في هذا المجال هي لمؤلفين غربيين لا تخلوا كتاباتهم من الذاتية أما كتابات المسلمين فهي قسمان :

1_ما كتبه المعاصرون للفترة العثمانية وهو في غالبه لم يخرج عن طابع العصر وأذواقه وبالتالي فإنه اهتم بالجوانب السياسية وبالتأريخ للأحداث الكبرى التي تحيط بالحكام وعليه فالاستفادة منه رغم أهميته لا تتأتى إلا بجهد كبير .

2_ ما كتبه المحدثون وهو بدوره ينقسم إلى قسمين قسم اعتمد على تآليف الغربيين فكانت أحكامه على العثمانيين قاسية إذ ناصبهم العداء وربما جعلهم سبب ركود الحياة الاجتماعية والثقافية للبلاد . وقسم رفض كل ما جاء به الغربيون وتصدر للدفاع عن العثمانيين متغاضيا عن كل سقطاتهم وعثراتهم.فمولود قايد مثلا _في كتابه الجزائر تحت حكم الأتراك _ اعتبر الأتراك أجانب عن البلاد وأنهم لم يتمكنوا من الاندماج في السكان الأصليين طيلة المدة التي أقاموها في الجزائر ، ولكنه لم يقدم الدليل على هذه النظرية في كتابه . وبالمقابل فإن كلا من توفيق المدني وعبد الرحمن الجيلالي كانت أعمالهما ذات نظرة شمولية تفتقر إلى التوثيق في غالب الأحيان ربما لأنهما كانا يهدفان إلى الرد على المدرسة الاستعمارية التي أنكرت أي وجود للجزائر قبل الاحتلال الفرنسي فلم يراعيا الشروط العلمية للبحث [4].

وفي الجملة فإن تاريخ الجزائر العثمانية لا يزال حتى الآن يفتقر إلى الدراسات النوعية وذلك لحداثة الاهتمام به ولقلة المنتسبين إليه ربما، ولكن ذلك لا يقلل من جهود نخبة من الباحثين أمثال أبو القاسم سعد الله ، ناصر الدين سعيدوني، وعائشة غطاس وغيرهم .

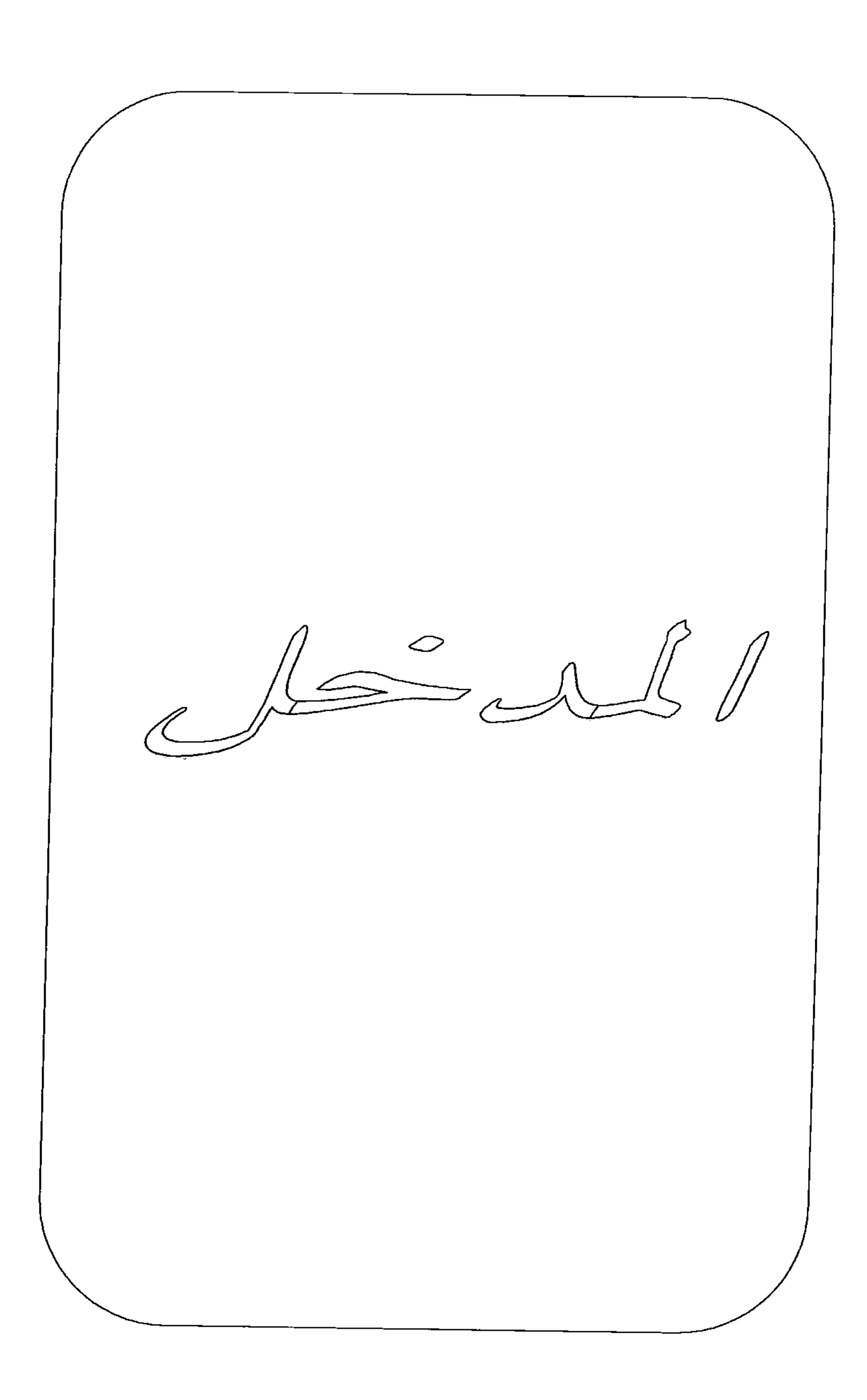
وهذا العمل هو محاولة للإسهام بتسليط الضوء على زاوية من هذا التاريخ وبالسير على خطى من سبق ذكرهم من الباحثين ، وينقسم هذا البحث إلى مدخل وثلاثة فصول ،يحتوي المدخل _الذي جاء عنوانه على الشكل التالي:

[4] _ اعتمد كل من توفيق المدني وعبد الرحمن الجيلالي ومبارك الميلي في مؤلفاتهم عن دو غرامون الذي اعتمد عليه عدد كبير من مؤرخي المدرسة الاستعمارية ولذلك فمواقف هؤلاء كانت تعوزها الحجة في مواجهة مواقف الغير.

"الجزائر العثمانية سياسيا وإداريا" ـعلى جزئين يتناول الأول أوضاع الجزائر منذ دخول العثمانيين إلى غاية المرحلة المعروفة بعهد الدايات والثاني التقسيم الإداري للأيالة وكذا أهم الوظائف الإدارية والسياسية والعسكرية .أما الفصل الأول فعنوانه الطبقات الاجتماعية ويتناول في مبحثه الأول طبقات المجتمع في المدينة وهي الأتراك والكراغلة و الحضر والبرانية واليهود والمسيحيين وفي المبحث الثاني طبقات المجتمع الريفي وهي قبائل المخزن والقبائل المتحالفة وقبائل الرعية والقبائل الممتنعة أو المستقلة عن سلطة البايليك .

في الفصل الثاني المعنون بـ"مميزات المجتمع الجزائري في عهد الدايات" جاء الحديث عن العادات الاجتماعية كالزواج ووضع المرأة والعادات الدينية كالاحتفالات بالأعياد والمواسم الدينية، والعادات السياسية كمراسيم تقديم الدنّوش ووضع المرابطين و العادات الثقافية كوضع العلوم ومراكز التعليم.

أما الفصل الثالث والأخير فعنوانه "العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية" وتناول في المبحث الأول العوامل الطبيعية كالزلازل والفيضانات وفي المبحث الثاني العوامل السياسية كالفتن والحروب وفي المبحث الثالث العوامل الاقتصادية كالضرائب والشركات الاحتكارية وفي المبحث الرابع القضاء ، وهي كلّها فصول ومباحث أريد بها الإحاطة بموضوع الرسالة من جوانبه المتعددة .



المدخل

وضع الجزائر قبيل حكم الدايات:

عبث غزاة الإسبان[1] بالسواحل الجزائرية و لم تستطع المقاومة الشـــعبية في أهـــم مدنها الوقوف في وجه هؤلاء الغزاة وقد وقفت الدولة الزيّانية[2] في تلمســـان موقـــف العاجز عن رد المظالم التي يرتكبها الإسبان في هذه المدن وكادت الجزائر بل المغـــرب الإسلامي أجمع أن يتحوّل إلى أندلس أخرى لولا أن الله منّ[3] على هذه البلاد بظـــهور القوّة الإسلامية التركية الصاعدة ممثّلة في قراصنة البحر المجاهدين الذين وقفوا في وجـــه التوسّعات الإسبانية. ففي شهر أوت من سنة 1512م هاجم الأخوان عروج وخير الدين جيجل التي كانت تحت سيطرة أهل جنوة الإيطاليين منذ سنة 1260م وتمّ احتلال المدينة عام1514 م بمساعدة الأهالي فذاع صيت هذين الأخوين عند بـــاقي ســـكان المـــدن الساحلية المهدّدة ومنها مدينة الجزائر التي استغاث شيخها سليم التومـــي بـــالأخوين لإنقاذ المدينة من خطر الإسبان الدّاهم[4]. وبعد دخولهما إلى الجزائر ألحق خير الديـــن المدينة ومعها كامل القطر الجزائري بالسلطنة العثمانية فأصبحت أيالة من أيالاتها غـــير أن كثيرا من المؤرخين يرى أن الحكم العثماني في الجزائر مر بخمس مراحل مختلفـــة وهي كالأتي :

[1] _ قام الإسبان بعد سقوط غرناطة بحملات متكررة على الشواطئ الإسلامية في محاولة لإتمام مشروع الاسترداد الذي تبنته الكنيسةوقاده الكاردينال كزيمنس والملك فرديناند الخامس الذي أرسل جيوشه فحتلت وهران سنة 1505 م ثم بجاية ثم عدد كبير من المدن الساحلية لمزيد من المعلومات أنظر :: M . Leon Galibert. L'Algerie ancienne et moderne (Paris Furne et Cie editeur . 1846). p 90

وانظر كذلك : Laugier de Tassy. Histoire du royaume d'Alger (Paris :ed Loysel.1992) p20

و محمد عبد الله عنان ، "صفحات من عدوان الاستعمار على المغرب الكبير وصفحات من جهود الشعوب المغربية لرده" محاضرات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي ج1 (الجزائر : منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، دار البعث،1973) ص 133 وما بعدها .

[2] _ دولة أقامها بنو عبد الواد على أنقاض الدولة الموحدية وضمت المغرب الأوسط و لم حدودا ثابتة إذ كانت تتسع وتضيق غربا وشرقا تبعا لظروف جاراتها . اتخذت من تلمسان عاصمة لها ومن أشهر ملوكها أبو حمو موسى . أنظر : عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره ط2 (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982) ص 11 .

[3] _ نعترف أن هذه المسألة كانت ولازالت محل جدل عريض بين المؤرخين ففي حين هناك مدرسة تقول بأن التواجد العثماني بالجزائر هو أمر طبيعي كونه يندرج في الدفاع عن أرض الإسلام ، هناك آخرون يدرجون ذلك التواجد في خانة الهيمنة الأجنبية على دول المنطقة .

[4] _ Laugier de Tassy . op cit. p 21 .

_ مرحلة الفتح : ودامت ست سنوات من سنة 1512م إلى سنة 1518م.

_ مرحلة الباي لاربايات: ودامت 69سنة من سنة 1518م إلى سنة 1587م.

_مرحلة الباشوات : ودامت 72 سنة من 1587 م إلى سنة 1659م .

_مرحلة الآغوات : ودامت 12 سنة من سنة 1659م إلى سنة 1671م .

_مرحلة الدايات : ودامت 160 سنة تقريبا من سنة 1671م إلى سنة 1830م .

مرحلة الفتح :

انطلق بابا عرّوج في جيش من الترك والأهالي، فأنقذ مدينة "تنس" ثم اتخذها مركزا لهجماته على المعاقل الإسبانية ؛ومنها تلمسان التي وصله طلب أهلها لتخليصهم من سلطانهم أبو حمو الزيّاني ــ الذي استعان بالأسبان وتوصل إلى الحكم بمعونتهم ــ فهاجم باباعروّج مدينة تلمسان وهزم "أبا حمو" وقضى على من بقي من الزيّانيين ، لكنّ الأسبان حاولوا استعادة تلمسان وإرجاع أبي حمو إلى الحكم فأرسلوا جيشا من وهران التي كانت تحت سيطرتهم .

وأمام تأخر وصول الإمدادات إلى عرّوج اضطر إلى الخروج من تلمسان ،لكنّه التقى بالقوات الإسبانية في الطريق [5]،فهاجمته وهزمته واستشهد في هذه المعركة التي وقعت قرب وادي المالح[6] في سنة1518م[7].

بعد وفاة عروج حكم البلاد أخوه خير الدين الذي وجد أمامه وضعا لا يحسد عليه فجمع علماء مدينة الجزائر ــ كما يذكر صاحب الزهرة النائرة ــ وأخبرهم بعزمه على ترك المدينة في حماية مجموعة من الجند وأنه سيترك لهم 40 مدفعاً غير أنهم

---

5 _ Fray.Diego de Haedo. Histoire des rois d Alger . tra:par H.D.deGrammont.(Alger" impA.Jourdan.1881). pp 33_34.

6 _ Laugier de Tassy . op cit . p35.

7 _ هناك خلاف حاد حول المكان الذي قتل به عروج خاصة عند المؤرخين الإسبان ذلك أن المصادر المعاصرة لوفاته لم " دفعت Huexdaتحدالمكان بدقة مما سمح بظهور تأويلات كثيرة فالتسمية اللاتينية للوادي الذي وقعت عنده المعركة " "برbروجر" إلى القول بأن هذا الواد هو "واد اسلي" المعروف بواد وجدة الواقع غرب تلمسان مما يعني أنه كان فارا باتجاه مملكة فاس وهذا الرأي يقلب التصور السائد حول علاقة العثمانيين بحكام المغرب الأقصى . انظر الدراسة المفصلة حول هذا الخلاف في:H.D.deGrammont. "Quel est le lieu ou est mort AroudjBarberous" Revue Africainne (Alger:imp A.Jourdan.1878).p390.

عارضوا اقتراحه وألحوا عليه بأن يبقى لحماية المدينة فاشترط أن يقترن بقاؤه بـاعلان التبعية للسلطان العثماني وذلك بضرب السكة باسمه والخطبة له على المنابر فقبلوا.[8]

وقد كانت مخاوف أهل المدينة في محلها، ففـي نفـس السـنة قـام الملـك "شارلكان"(1500 _ 1558) ملك إسبانيا بتجهيز حملة مكونة من 40 سـفينة حربيـة بقيادة "مونكادا" للقضاء نهائيا على الوجود العثماني بالجزائر وبالفعل نزلت القـوات الإسبانية بسيدي فرج غرب مدينة الجزائر والتحمت مع القوات الجزائرية بقيادة خير الدين فانهزم الإسبان هزيمة شنعاء كما قضت زوبعة قامت في هذه الأثنـاء علـى سفنهم ، فانسحب الإسبان يجرون أذيال الخيبة ، واكتسب خير الدين نصرا معنويـا جعله ينصرف إلى تثبيت حكمه في الداخل فنصب أحمد بن القاضي واليـا علـى الناحية الشرقية وجعل مركزه جبل كوكو بمنطقة القبائل ونصب محمد بن علي واليا على الناحية الغربية ؛كما جاءه ولاء حاكم تلمسان بعـد وصـول خـبر هزيمـة الإسبان.[9]

هذا الاستقرار لم يعمّر لخير الدين طويلا ، فسرعان ما استمال حكام تونـس _ الذين كانت تساورهم الأطماع في توسيع دولتهم وضم قسنطينة وروابي بلاد القبائل _ابن القاضي وأهل فاس ابن علي ودعوهما للثورة على حكم الأتراك ، فثارا علـى خير الدين، بل واستطاع ابن القاضي أن يحتلّ الجزائر ويطرد خير الدّين إلى جزيـرة جربة لمدة سبع سنين استطاع بعدها خير الدّين بمساعدة سكّان مدينـة الجزائـر أن يعود إليها سنة 1527م؛وتمكنّ هذه المرة من إخضاع كامل البلاد بـين تلمسـان و قسنطينة وطرد الإسبان سنة 1529 م من قلعة برج الفنار (صخرة البنيـون)[10] الـتي كانت تهدد مدينة الجزائر، ثم ربط هذه القلعة الموجودة على جزيرة قريبة بالبر فشكل هذا اللسان الصخري الممتد ميناءاً يحمي السفن الجزائرية الراسية من خطر العواصف

[8] _ Alphonse Rouseau. Chronique de la regence d Alger . trd d un manuscrit arabe intitulle: El zohrat el nayerat .(Alger: imp du gouvernement. 1841) pp88_89.

[9] _ عبد الرحمان الجيلالي ،تاريخ الجزائر العام ، ج 3(الجزائر :ديوان المطبوعات الجامعية ، 1985) ، ص 47 .

[10] _ هاجم خير الدين صخرة البنيون يوم 6 ماي 1530 فانتصر وهدم أبراجها واستعمل صخورها وتربتها في ربط الجزيرة بالبر ، انظر:

M . Leon Galibert. opcit. p176 .

لكّن خير الدّين سرعان ما استدعي في سنة 1533 م من قبل الخليفة لتولي منصب قبطان باشا أي قيادة الأسطول البحري التركي فسافر خير الدّين وترك وراءه حسان آغا (1533 ـــ 1544م) واستطاع خير الدين بمساعدة حسّان آغا أن يحتلّ تونس سنة 1534م ويسقط الدولة الحفصيّة بها ،لكّن الإسبان هاجموا تونس ونجحوا في استردادها سنة1535 م، ثم احتلواّ عنابة وهدّدوا حتّى قسنطينة ممّا دفع خير الدّين إلى مهاجمة السواحل الإسبانية وأسر بعض سكّانها [11].

عزم شارلكان على التخلّص من هذا الخطر نهائياً وجهّز حملةً قوامها 510 سفينة تحمل 25000 جندي وهاجم الجزائر في 23 أكتوبر 1541م[12] ،لكّن حملته فشلت وقتل فيها 12000 من الإسبان كما حطّمت زوبعة بحرية أزيد من 250 سفينة من أسطوله ، ممّا جعل الأوربيين يعتقدون أن مدينة الجزائر تحظى بعناية إلهية خاصة [13].

مدّ حسن آغا إثر هذا النصر سلطته إلى بسكرة ودخلت منطقة الزّيان تحت سلطته ؛كما هزمت جيوشه في سنة 1543 م قُوات "مولاي عبد الله الزيّاني" المدعوم بقوّات إسبانية كبيرة مدّه بها الملك "شارلكان" ضدّ أخيه "مولاي أحمد" الذي حكم تحت حماية حسن آغا ، لكّن الإسبان أعادوا الكرّة في سنة 1544 م فاحتلوا تلمسان ونصّبوا مولاي عبد اللّه ملكاً من جديد .إلاّ أنّ سكانها طردوه إلى "وجدة" حيث قُتل وأعادوا مولاي أحمد ، وفي هذه السنة توفيَ حسن آغا فبعث السلطان بالفَرَمان مع حسن باشا بن خير الدّين ولقّب بالبايلارباي[14] .

[11] ــ حوالي 800 أسير، أنظر أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر1766م ــ1791م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986،ص26.

[12] ــ نفس المرجع ،ص 26 .

[13] ــ وليم سبنسر ، الجزائر في عهد ريّاس البحر ، تعريب وتقديم د/ عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1980 ، ص 38 .

[14] ــ رغم أن عهد البايلارباي يبدأ مع خير الدين غير أن انشغاله ومن خلفه بتأمين الحدود ورد الهجمات الإسبانية المستمرة على الجزائر وسواحل المغرب الإسلامي يجعل ماذهب إليه عبد الرحمن الجلالي من اعتبار هذا العهد يبدأ مع ابنه حسن بن خير الدين أقرب إلى الصحة

عهد البايلارباي (921 _ 995 هـ /1518 _1587 م):

يبتدأ عهد البايلاربايات بإلحاق خير الدين الأيالة الجزائرية بالسلطنة العثمانية وإن كان عبد الرحمان الجيلالي يرى أنّ بداية عهد البايلارباي الحقيقية كانت سنة 1546م[15] عند تعيين حسن باشا بن خير الدّين[16] وينتهي مع علج علي الذي توفي سنة 1587 م كما يرى بأن هذا العصر يعد ألمع العصور التركية في الجزائر

" فإليه يرجع إنشاء أول القصور الجميلة التي عرفتها مدينة الجزائر وكذلك الحمامات والمساجد ...[كما عمّ الرخاء المنطقة] فقد كان الصيد البحري وحده كافيا لتزويد سكّان الساحل بما يحتاجون إليه فكيف إذا أضيفت إلى ذلك التجارة الخارجية التي كان معظمها بأيدي مهاجري الأندلس من المسلمين واليهود "[17].

و من أهم إنجازات عهد البايلاربايات إلحاق مدينة تلمسان بالجزائر العثمانية بعد مساجلات يطول تفصيلها مع بقايا الزيانيين المتحالفين مع الإسبان . وبعدها ترسيم الحدود الغربية مع سلطان المغرب سنة961هـ /1553م ، وبقيت هذه الحدود واضحة المعالم منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا و لم يطرأ عليها غير تحويرات طفيفة[18].

تمكنّ الأتراك في هذا العهد أيضا من فتح قسنطينة وبجاية ووهران في ولاية صالح رايس ، وقام البايلاربايات بإنقاذ أعداد لا تحصى من مسلمي الأندلس الذين طاردتهم الكنيسة هناك[19].

ومن الناحية التنظيمية فإلى هذا العهد يرجع تقسيم الجزائر إلى أربع مقاطعات[20] سميت بايليكات وعلى رأس كل مقاطعة منها حاكم يسمى باياً .

---

[15] _ عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق ، ص 84 .

[16] _ خلف علج علي كل من عراب أحمد ورمضان قايد وجعفر باشا وحسن فيتريانو الذي يعتبر آخر البايلاربايات الفعلي غير أن بقاء علج علي قائداً عاماً للأسطول العثماني واهتمامه بالجزائر ووقوع وفاته في نفس السنة التي تغيّر فيها نظام الحكم جعلت الكثير يعدّه آخر البايلاربايات .أنظر : عبد الرحمن الجيلالي ،مرجع سابق ،ص 103 .

[17] _ د/ عبد الله شريط ومبارك الميلي ،مختصر تاريخ الجزائر السياسي و الثقافي و الاجتماعي ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 ص151.

[18] _ عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق ، ص 86 .

[19] _ نفس المرجع ، ص111 .

[20] _ نفس المرجع ،ص 94 .

وإذا كان أول البايلاربايات هو خير الدين بارباروس وإليه يرجع الفضل في أغلب التنظيمات الإدارية والسياسية التي حكمت الوجود العثماني في الجزائر فإن صالح رايس الذي حكم بعد حسن آغا هو أول بايلارباي يحمل السلطة العثمانية إلى داخل البلاد بعدما اهتم سابقوه بفرضها على المناطق الحضرية في التل الجزائري فإليه يرجع الفضل في إخضاع أجزاء واسعة من الجزائر إلى السلطة العثمانية، فقد كان أول أعماله هو القضاء على الثائرين من بني جلاب وبني ورجلان في الجنوب الشرقي من البلاد، ومن إنجازاته وصوله بالجيوش التركية إلى فاس مساندة للوطاسيين على السعديين[21] ويرجع سبب هذه المساعدة ربما لاعتقاد العثمانيين في الجزائر أن القوة الصاعدة في مملكة فاس قد تشكّل خطرا أكبر من الذي تمثله قوة الوطّاسيين المتهالكة

أما من ناحية الوضع الدولي[22] للأيالة فإنه لم يخرج عن النهج العام لسياسة الأتراك اتجاه الولايات التابعة لهم والذي يتصف بعدم التدخل في خصوصياتها والاكتفاء بالتبعية الظاهرية خاصة في البلاد البعيدة عن السلطة المركزية مثل الجزائر وهو ما جعل هذه السلطة تفكر في تغيير نظام الحكم فيها بما يكفل بقاءها خاضعة للأتراك ويمنع البايلار بايات من التحرر بها .

---

[21] _ عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق ، ص 87 .

[22] _ المقصود بالوضع الدولي هو وضعية الأيالة بالنسبة إلى الباب العالي ذلك أن الجزائر في هذه المرحلة كانت تامة التبعية للسلطة العثمانية وبالتالي لم يكن لها وضعها الدولي المستقل بها .

عهد الباشاوات (995 _1069 هـ/ 1587 _ 1659 م) :

شعر الباب العالي بتحركات لدى البايلاربايات بعدما حاولوا الحد من سلطة الإنكشارية والإستعاظة عنهم بفرق جيش يشكّلها جنود من بلاد القبائل وخاف من أن يتحول حكمهم المطلق على أيالات شمال إفريقية إلى دولة مستقلة عن الدولة العثمانية . فقرر السلاطين العثمانيون تغيير نظام الحكم ولقب الحاكم بالجزائر ، ولذلك حدّدوا فترة حكم والي الجزائر بثلاث سنوات كما هو الحال في باقي أيالات الدولة العثمانية وغيّروا لقبه إلى باشا، وقصروا حكمه على أيالة الجزائر دون تونس وطرابلس كما كان الحال في العهد السابق[23].

وهؤلاء الباشاوات عادة يعيّنون من موظّفي الدولة في إسطنبول الذّين أصبحوا يصلون إلى هذا المنصب بالرشاوى التي يجمعونها لاحقاً من موارد الدولة ولذلك شجّعوا العمليات القرصنية أهم مورد وأسرع وسيلة لتعويض تلك المصاريف والحصول على ثروة شخصية كبيرة[24].

وقد ميّز عهد هؤلاء الباشاوات إجلاء الأندلسيين من شبه الجزيرة الإيبيرية سنة 1609م بعدما أقنع متطرّفوا الدولة الإسبانية ملكهم فيليب الثالث وبإيعاز من الكنيسة أن يطرد كلّ الأندلسيين الموريسكيين حتى الذيّن ارتدوا عن الإسلام واعتنقوا المسيحية.

وقد اختلف حول عدد هؤلاء المطرودين ولكّن أعدادهم لم تقل عن 300 ألف أندلسي بتصريح الإسبان أنفسهم وقد قام الباشا رضوان بكرلي باستقبالهم وتوجيههم نحو المدن الجزائرية حيث اندمجوا في المجتمع وفي دواليب الحياة الاقتصادية بسهولة[25].

كما بدأ في عهدهم ظهور مشكلة الكراغلة ففي سنة 1629 م اتّحد الكراغلة مع طائفة الرّياس ليزاحموا الأوجاق في الحكم واجتمع منهم مجموعة في حصن القصبة في

---

23 _ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق ،ص

24 _ M. Gaid. L'Algerie sous la domination turque. (Tunis. Maison tunisienne de l'edition. 1975). p111.

25 _ Ibid . p 120 .

محاولة للإطاحة بالأوجاق لكّن هذه المحاولة قتلت في المهد فقد علم بها اليولـــداش[26] فحاصروا الثوّار قبل أن ينفّذوا خطّتهم واضطرّوهم إلى تفجير أنفسهم داخل خزينـــة البارود مسببين مقتل ما يقارب 6 آلاف نسمة[27]، و لم تمر على هذه الحادثـــة مـــدة طويلة حتى قام الكراغلة بمحاولة أخرى إذ اجتمع طائفة منهم في برج مولاي حســن أو برج الإمبراطور ، فعلم الأتراك بمؤامرتهم لكّنهم لم يظهروا علمهم واحتالوا لهـــا بمساعدة الميزابيين الذّين ألبسوهم زي النساء وأرسلوهم إلى مكان تجمع الكراغلـــة فانخدع الكراغلة بذلك وأذنوا لهم بالدّخول وحينئذ أخرج الميزابيون سلاحهم مـــن تحت ألبستهم ولحق بهم الأتراك الذّين كانوا يراقبون عن قرب فأفشلوا المحاولـــة[28]. ومن يومها أصبح الأتراك لا يسمحون لأبنائهم الكراغلة بأي منصب ذي شأن .

و لم تكن ثورة الكراغلة هي المشكلة الوحيدة التي واجهها الباشوات بـــل إن عهدهم لم يخل ــ وخاصة في سنواته الأخيرة ــ من الاضطرابات والفوضى التي كان يقودها الأوجاق الغاضبون منهم لتأخر جرايتهم أو لأي سبب آخر .وقد ســاعدت هذه الاضطرابات الآغوات وهم قادة الجيش على الاستيلاء على الحكم تدريجيا .

والخلاصة أن عهد الباشوات يعد عهد الموظفين الذين كانت استنبول ترســلهم ليحكموا البلاد دون أن يكون لهم سند محلي بين القوى التي كانت تســيطر علـــى دواليب الحكم في الجزائر، كما يعد عهد تسلط جند الانكشارية علـــى الباشـــوات وعلى الأهالي وظهرت آثار هذا التسلط في مظاهر ثلاث هي :

1ــ ثورات الكراغلة

2ــ ثورات القبائل

3ــ الصراع بين الأوجاق وطائفة الريّاس

وسيكون لهذه المظاهر تبعات في العهود اللاحقة كما سنرى فيما يلي .

---

26 ــ انظر تعريف اليولداش عند الكلام عن الأتراك في الفصل الأول.

27 ــ عبد الرحمان الجيلالي ، مرجع سابق ، ص 128 .

28 ــ عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق ، ص 129 .

عهد الآغاوات:

علقّ عبد الرحمن الجيلالي على سبب الثورة على الباشوات والتحول إلى حكم الآغوات بدلا عنهم بأن ذلك يعود إلى تحميلهم مسؤولية الإسراف في التعدي على السفن و الشواطئ الأوربية ويتهمهم بأنهم كثيراً ما كلّفوا القراصنة بأن يقوموا بحملات لحسابهم الخاص كما أن محاولات هؤلاء الباشوات إخضاع الإنكشارية[29] والاستعانة عليهم ببعض القبائل من أهل البلاد ومن الكراغلة دفع هؤلاء إلى التحرك ضد الباشوات والبحث عن ذريعة للتخلص منهم، فكان أن قام إبراهيم باشا بسرقة المنحة التي كان السلطان يبعثها كلّ عام لإعانة الأسطول الجزائري[30].فاتخذوا صنيعه ذريعة وتبعاً لهذه الحجة ولغيرها أجهز الأوجاق بقيادة الديوان على النظام السائد وغيّروه واستبدلوا الباشا بالآغا الّذي اسندوا إليه حكم البلاد وجعلوا مدة رئاسته بشهرين بدلا من ثلاثة سنوات التي كان يحكمها سابقه كما أنهم حدّدوا من سلطاته وقيّدوها بتنفيذ

" مقررات الديوان ومجلس الحكومة لا غير وهو في ذلك يشبه نظام مجالس الحكم الجمهوري أو هو على غرار ما تفعله اليوم أحزاب الحكومات الاشتراكية في تعيينها لرؤسائها"[31].

وقد أبقى الثائرون على حياة الباشا احتراما للسلطان الذي عيّنه ولكنّهم جرّدوه من كلّ صلاحياته وسلطاته و لم يعد منصبه إلا شرفياً[32] .

وما يميّز عهد الآغوات هو كثرة الفتن واغتيالات الحكام نتيجة عجز هؤلاء عن توفير الأمن والاستقرار بل عن الانسجام فيما بينهم فقد كان التنافس على من يلي الحكم منهم كبيراً كما أنّهم لم يستطيعوا الوقوف أمام قوة الرياس المتزايدة[33] .

---

[29] _ عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق ، ص ص 139_140 .

[30]_ Mouloud Gaid. op cit . p 132 .

[31] _عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق ، ص 157 .

[32]_Mouloud Gaid. op cit. . p 132 .

[33] _ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 _ 1830) ، ط 2 .(الجزائر :المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985) ، ص 24 .

وإذا كان ذلك حال الوضع الداخلي فعلى المستوى الخارجي يعتبر هذا العهد بداية عهد الاستقلال الكامل للدولة الجزائرية فقد رفع الأوجاق تقريرا حول تحول النظام في الجزائر وطلبوا من الباب العالي المصادقة عليه فكان لهم ذلك بشرط التكفل بالأعباء المالية للحكومة وبذلك برز كيان الجزائر كشعب وكدولة و تحدّد دورها الذي ستلعبه في المعترك الدولي[34].

غير أن سلطة الآغاوات لم تستطع مقاومة سلطة ريّاس البحر الذين كانت سفنهم تغير على الشواطئ والسفن الأوروبية جالبة الغنائم إلى خزينة الدولة والأسرى إلى خدمتها، فكونوا بذلك مكانة وسمعة في الديوان ولدى العامة وبالمقابل فإن الآغاوات لم يواكبوا هذا التطور لانشغالهم بالتنافس على رأس السلطة بل كانت الاتفاقيات التي عقدها الآغوات مع الدول الأجنبية تعد على أنها محاولة للحد من نشاط الريّاس[35].

وقد أدرك الناس بعد مرور مدة قصيرة لم تتجاوز 12 سنة أن النظام الجديد الذي أحدثوه لا يختلف عن سابقه كثيرا بل قد يفوقه من حيث كثرة الفتن والاغتيالات فقد انتهى أمر كل الآغوات إلى الاغتيال في الصراعات التي كانت تنشب بينهم وبين الأوجاق حول فكرة التغيير التي اتفقوا عليها عند الثورة على الباشوات لكن الآغوات لم يخضعوا لها أبدا فعمد ريّاس البحر الذين أصبحت قوتهم أكبر إلى إزالة الإنكشارية من هرم السلطة وعيّنوا واحدا منهم بدلا عن الآغا وغيّروا لقب الحاكم إلى الداي فقضوا بذلك على نظام الآغاوات[36].

[34] _ يحيى بوعزيز ، الموجز في تاريخ الجزائر ، الجزائر ، ج 2 ، (ديوان المطبوعات الجامعية ، 1999) ، ص 307 .

[35] _ *Leon Galiber . op cit pp 226 _ 227 .*

[36] _ عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق ، ص ص 166 _ 167 .

عهد الدايات:

يعتبر عهد الدايات خامس عهد وآخره للوجود العثماني بالجزائر، فقد انتهى بالاستعمار الفرنسي، كما يعتبر أطول العهود على الإطلاق إذ دام أزيد من قرن ونصف وهو ما يمثّل نصف مدّة هذا الوجود .

وكان من أهمّ الدوافع إلى إحداث هذا النّظام الجديد و القضاء على نظام الآغوات الذّي سبقه ذلك الخطر الكبير الذّي أصبح يحيط بمنصب الآغا، فقد سبق الإشارة إلى أن كلّ الآغوات اغتيلوا، كما أنّ الهجمات الكثيرة والمتتابعة التي واجهتها السواحل الجزائرية أحدثت هزّات عنيفة على الوضع الداخلي للبلاد، بل و على السلطة نفسها فقد خسرت الجزائر مجموعة لا بأس بها من السفن التجارية فتأثرت طائفة الريّاس بشكل بليغ كونها مالكة أغلب قطع الأسطول البحري الجزائري الشيء الذّي جعل هذه الطائفة تُؤثر من خلال الديوان الذّي لها الصوت المسموع داخله لإزاحة آخر الآغوات .

وأمام عزوف عدد من الآغوات عن المنصب كونه يفضي إلى نفس المصير الذّي آل إليه علي آغا آخر الآغوات وتطيّر النّاس من هذا المنصب، تحوّلت حادثة الاغتيال إلى انقلاب جذري في نظام الحكم، وتدخّلت طائفة الريّاس لدى الديوان من جديد لإلغاء نظام الآغاوية نهائيا وتعويضه بنظام جديد أكثر استقراراً يتمثل في تعيين داي من طبقة الريّاس في منصب رئاسة الحكومة [37].

وقد حاول الريّاس تجنّب الأخطاء التي تسببت في تعويض النظام السابق وأهمّها تحديد فترة الحكم بشهرين في عهد الآغوات وثلاث سنوات في عهد الباشوات فأصبح الداي ينتخب لمدى الحياة، وفي ذلك خطأ لا يقل خطورة عن أخطاء الأنظمة السابقة . لكنّ الداي إذا كان يعيّن في منصب الوالي مدة عمره فإنه ليس له الحق في تعيين من يخلفه بل يكون ذلك من حق مجلس الديوان[38].

[37] ـ يحيى بو عزيز ، مرجع سابق ، ص 290 .
[38] ـ نفس المرجع ، ص 291 .

ويذكر حمدان خوجة في كتابه (المرآة) الذي كتبه لتعريف السلطات الاستعمارية بعادات الجزائريين وطبيعة حكم سابقيهم من الأتراك لهذه البلاد عسى أن يكون في ذلك تخفيف لما يلقاه المواطنون من غطرسة هذه السلطات : أنه ليس للدّاي أي سلطة غير

"الأمر بتطبيق القوانين المدنية والعسكرية والإشراف على حصون المدينة و تنظيم الجيوش ومراسلة القبائل المختلفة قصد التهدئة و المحافظة على الأمن ... وكذلك تعيين الوزراء و غيرهم من أعضاء حاشيته..."[39].

لكن و مع مرور الزمن استطاع الدايات أن يوسعوا سلطاتهم على حساب الديوان الذي لم يعد له دور ذو شأن مع نهاية هذا العهد . و يعلق صاحب المرآة على ذلك بقوله :

" ولقد ارتكب الأتراك خطأً فادحاً عندما تركوا السلطة المطلقة بين أيدي الباشوات [يقصد الدايات] لأن ذلك جرد الديوان من كل قوة وسلطات وجعله كلا شيء في حين أنه أنشئ لمراقبة أعمال الباشوات و مساعدة الحكومة عن طريق تزويدها بالنصائح و لم يعد يطلب من أعيان البلد آراءهم ". [40]

و يجعل ذلك من أهم الأسباب التي أغفلها آخر الدايات و تسببت في سقوط الجزائر في يد الفرنسيين إذ يقول :

" ...و إذا كان ما يلام عليه فيما يخص حكومته [يقصد الداي حسين]فهو أنه لم يسترجع الديوان القديم ليتمكن من المداولة حول أهم القضايا و الإفادة من النصائح التي يمكن أن تصدر عن تجربة القدماء و معرفتهم ..."[41] .

و يقول ناصر الدين سعيدوني عن ذلك :

"... و تدهور نفوذ الديوانين: الصغير الذي اختفى وحل محله مجلس الموظفين الكبار "مجلس الحكومة أو الدولة" و الديوان الكبير "المجلس العام " الذي حدد

---

[39] ــ حمدان بن عثمان خوجة ' المرآة تقديم و تعريف د/ محمد العربي الزبيري ط 2 (الجزائر : المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1982) ص125 .

[40] ــ نفس المصدر ص 154 .

[41] ــ نفس المصدر ص 174

نشاطه في نطاق احتفال شكلي بمناسبة الأعياد الدينية وحفلات توزيع الأجور كل شهرين في قصر الداي "[42].

و لم يكتف الدايات بإزاحة سلطة الديوان بل لم يقبلوا وجود الباشوات المعينين من الباب العالي و الذين لم تكن سلطتهم فعلية و إنما شرفية من عهد الآغوات كما سبق الذكر . إلا أن وجود هذه الازدواجية في هرم السلطة لم يكن ليروقهم . و يرى "شاو" أن كثيراً من هؤلاء الباشوات كان لهم دخل في إثارة المليشيا ضد الدايات الذين لا يتفقون معهم فيقتلونهم وينتخبون بدلاً عنهم دايات يرضون عنهم[43].

و سواءً صحت فكرة "شاو" أم لم تصح فإن هذا الوضع توقف على يد بابا علي سنة 1711 م عندما ردّ الباشا الجديد "شاركا إبراهيم" إلى إستامبول و أرسل خلفه هدايا إلى الباب العالي و مندوبين يشرحون أسباب رده لمبعوث السلطان ويطلب الباشوية لنفسه فأسعفه السلطان إلى غرضه معلناً بذلك بداية عهد جديد[44] إذ استطاعت الجزائر أن تحقق استقلالها الحقيقي عن الدولة العثمانية فلم يعد للسلطان العثماني سوى إصدار الفرمانات[45] لتزكية اختيارات الأوجاق ، بل حتى وساطة الباب العالي في المشاكل الخارجية مع الدول الأوربية رفضها الدايات باعتبار ذلك تدخلاً في شؤون الجزائر و سعياً من السلطان لاسترجاع و لو بصورة شكلية سلطانه المفقود؛ فقد رفض الداي "كرد علي" وساطة الباب العالي لعقد الصلح مع إسبانيا سنة 1725 م وكذا محاولتها التالية في سنة 1728 م استرجاع بعض من نفوذها، و وصل الأمر بمبعوث السلطان أن رمى مرسى العاصمة بالقنابل دون أن ينال طائلاً[46] و لم ينل السلطان لقاء اعترافه بالسلطة المحلية سوى بعض الترضيات من هدايا رمزية تصله بشكل غير دوري و الدعاء له على منابر المساجد و كذا المشاركة في بعض حروبه

[42] ـ ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، مرجع سابق ، ص 24 .

[43] _ Dr Shaw . *Voyage dans la regence d'Alger , trd de l'anglais par J Mac Carthy . Ed . Ed* Bouslama . Tunis 1980, p151.

[44] ـ عبد الرحمان الجيلالي ، مرجع سابق ص 218 ، 219 .

[45] ـ كلمة تركية معناها المراسيم أو الأوامر الحكومية وتكون للتعيين في منصب من المناصب

[46] ـ نفس المرجع ، ص222 .

بدافع من الحمية الدينية الجهادية ضد أعداء العقيدة أما ما عدا ذلك من مظاهر السيادة فقد استأثرت بها حكومة الداي كإعلان الحرب والسلم و استقبال القناصل و الاتصال المباشر مع الدول الأجنبية[47].

و إذا كان الداي في بداية أمره ينتخب من طرف الرياس كونهم هم من أحدث هذا النظام فإنّ طبقة اليولداش سرعان ما استعادت نفوذها و أصبح الداي ينتخب من ضبّاط الإنكشارية .

و لم يكن الدايات كلّهم على درجة واحدة من الكفاءة و النزاهة بل يمكن قسمتهم إلى قسمين :

الصنف الأول: و هم مجموعة من الدايات النزهاء الزهاد الذين انصرفوا إلى الأعمال الخيرية و الذين صرفوا من أموالهم الخاصة على بناء الدولة مثل الداي محمد بن عثمان 1766م/1791 م الذي بنى المساجد و القلاع و الحصون لحماية الجزائر من هجمات الأعداء و ترك أمواله الخاصة إلى الخزينة و عرفت البلاد على عهده رفاهية منقطعة النظير[48].

الصنف الثاني : عرف هذا الصنف بعدم المقدرة على تسيير شؤون الدولة و قد وصل معظم دايات هذا الصنف إلى هذا المنصب تبعا لثورة الإنكشارية على الداي السابق إما بسبب صراع بين أقطاب السلطة أو للمطالبة بزيادة الأجور وغالبا ما يكون هؤلاء الدايات المحمولين إلى هرم السلطة لا يتمتعون بأي نوع من المؤهلات لو كانوا يمارسون مهنا تعتبر وضيعة فيما سبق فمنهم من كان فحاما أو كناسا أو غسالا للأموات كما هو حال علي الغسال 1808 م[49].

و لقد تميزت فترات حكم هؤلاء الدايات بكثرة التبذير و الإسراف و إنفاق أموال الخزينة على الملذات الشخصية مما جعل أغلبهم ينتهي نهاية مؤسفة إذ و بعد غضب الجند عليهم تنتهب أموالهم و يتعرضون هم وعائلاتهم للانتقام ونادرا ما

---

47 _ يحي بو عزيز ، مرجع سابق ، ص 292

48 _ توفيق المدني ، مرجع سابق ص

49 _ Grammont. H. D de, Histoire d 'Alger sous la domination turque 1515_1830 (paris: Ed. Leroux. 1887). pp369_ 370.

غضب الجند عليهم تنتهب أموالهم و يتعرّضون هم وعائلاتهم للانتقام ونادراً ما ينجون من الخنق أو الشنق [50]، أما دايات الصنف الأول الذين مات أغلبهم على فراشهم كما هو حال محمد بن عثمان، فهؤلاء يحضون بجنازة مشهودة و تحتفظ عائلاتهم بكل ما تركوه لها من المال [51] .

[50] _ Dr Shaw. op cit. p 155 .

[51] _ Ibid. p 155.

الجزائـــر إدارياً :

يعتبر "خيرالدين" هو واضع التقسيم الإداري للبلاد و لم يقم الأوجاق من بعده بأي تغير ذي بال، ربما لأن هذا التقسيم خدم أغراضهم، كما أن التواجد القليل للعنصر التركي بالبلاد منعهم من فرض نظام غيره و تنقسم الجزائر إداريا حسب هذا التقسيم إلى أربعة أقاليم تفصيلها كالآتي:

ا_ دار السلطان :

وتشمل الجزائر العاصمة و المناطق المحيطة بها، وتمتد مـــن "دلّـــس" شـــرقا إلى "شرشال" غربا ً ومن ساحل البحر شمالا إلى سفوح الأطلس البليدي جنوباً[52].

وتخضع دار السلطان إلى رئيس السلطة التركية بواسطة آغا العـــرب أو قـــائد الجيش وتنقسم إلى أقسام يسمى الواحد منها وطناً ، ويخضع لسلطة قائد:مثل وطـــن ساباو و وطن كوكو بمنطقة القبائـــل و وطن يسّر و بخلوان .

ب_ بايليك الشرق :

عاصمته مدينة قسنطينة وهو أكبر بايليك. يحدّه غربا بايليك التيطري و شـــرقا عمالة تونس[53]وشمالا ساحل البحر ، أما حدوده الجنوبية فإنها تصـــل إلى بســكرة ومنطقة الزيبان لكنّها غير ثابتة تتغيّر حسب قوة البايليك كما هو الحـــال في بقيـــة البايليكات .

وقد حكم الأتراك هذا البايليك بواسطة رؤساء محليين ـــ فيما عدا الأراضـــي الفلاحية الممتدة حول قسنطينة إذ بقيت تابعة للبايليك مباشرة ـــ أو عـــن طريـــق أعوان من قبائل المخزن[54].

---

52 ـــ د/ ناصر الدين سعيدوني ،النظام المالي ، مرجع سابق ،ص 29 .

53 ـــ أحمد الشريف الزهار ،مذكرات أحمد الشريف الزهار، تحقيق أحمد توفيق المدني ،ط2،(الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشـــر والتوزيع،1980) ص 48 .

54 ـــ ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، مرجع سابق ، ص 29 .

جــ بايليك الغرب:

يحده شرقا وطن بخلوان و بايليك التيطري وشمالا ساحل البحر وغربا دولة الأشراف السعديين ثم العلويين ، وعاصمته مازونة ثمّ معسكر ، ثمّ وهران بعد تحريرها من الإسبان سنة1792م .

وقد عرف هذا البايليك بصبغته الحربية لتوتر العلاقات التركية مع حكام المغرب الأقصى ثمّ لوجود التهديد الإسباني الدائم بوهران[55].

د_ بايليك التيطري :

يحده من الشمال متيجة التابعة لدار السلطان و من الناحية الشرقية وطن بني سليمان وبني جعد وعريب التابعة لبايليك قسنطينة وغرباً بايليك الغرب ، ويعتبر أفقر البايليكات وأصغرها وعاصمته المديّة[56].

وإذا كانت الجزائر تنقسم إقليمياً إلى أربعة أقاليم كما سبق الحديث فإنها إدارياً تخضع لسلطة هيكلية شديدة التعقيد يمثل الداي رأس هرمها ويمثل اليولداش أو الجندي الجديد قاعدتها و يمكن أخذ العاصمة كمثال لهذه الهيكلة لأنها أحسن وأكثر و أدّق إقليم من الأقاليم وصفاً و لأن بقية الأقاليم لا تختلف من حيث الهيكلة الإدارية عن العاصمة إلاّ في الوظائف ذات الطابع المركزي الذي تنفرد به العاصمة

و يمكن تقسيم السلطة الإدارية إلى قسمين هما : سلطة الداي و سلطة الديوان

ا_الداي:

سبق الحديث عن الداي و عن سبب تغيّر نظام الحكم و مجيء الدايات و عن أهم مميزات حكم الدايات و ما يمكن أن يضاف حول الدايات هو مدى سلطتهم الإدارية إذ يذكر حمدان خوجة أن هذه السلطة تمتد إلى المسائل الخاصة بـ:

"...المالية العمومية و التنظيم الضروري الإداري و كذلك تعيين الوزراء و غيرهم من أعضاء حاشيته ..."[57]

[55]_ نفس المرجع ص 29 ، وانظر كذلك أحمد الشريف الزهار ، مصدر سابق ، ص 47 .

[56]_ أحمد الشريف الزهار ، مصدر سابق ،ص47 .

[57]_ حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص 125 .

و منهم البايات أو حكام الأقاليم كل ذلك داخل ضمن صلاحياته .

و للداي نائب يحتفظ بمفتاح الخزينة و يسمى الكاهية و إن كان هذا النائب لم يقر به غير حمدان خوجة [58] إذ الكاهية عند غيره منصب لا علاقة له بالخزينة أو الداي و إنما بنظام المدينة[59].

وقد كان الديوان في بداية عهد الدايات هو المتصرف في الأمور المالية للدولة و كذا الإجراءات الحكومية المتعلقة بمستقبل الأيالة لكن مع نهاية هذا العهد أصبح الديوان مجرد حبر على ورق خاصة بعدما تحول مقر الداي إلى القصبة و بذلك فإن جميع صلاحيات هذا الديوان أصبحت في يد الداي كما أصبح حق تولية أو اختيار الداي ـــ الذي كان من اختصاصات هذا الديوان ـــ في يد الفئة القوية في صفوف الإنكشارية [60].

و لا بد أن يتأكد هذا الاختيار من قبل السلطان الذي تعترف له الأيالة بالسلطة الروحية، وإن كان السلطان لم يرفض الاختيار المحلي أبداً .

و سرعان ما أصبح هذا التأكيد يرفق بلقب الباشا كما سبق الذكر، و من حينها أصبح الدايات يلقبون محلياً بالباشا بعدما كانوا يلقبون بالدولاتلي [61] أما لقب الداي فهو لا يكاد يلفظ في الجزائر وإنّما يستعمله الأجانب، والمرجّح أنّه كان في مبدإ الأمر مجرد كنية ، حيث أنّ معناه باللغة التركية "العمّ" [62] أو الخال.

و إذا كان الدايات يمارسون صلاحياتهم عقب انتخابهم مباشرة فإنّ تنصيبهم الرسمي لا يتم إلاّ بعد وصول تأكيد السلطان لهذا الاختيار أو ما يصطلح عليه عثمانياً بالفرمان مرفوقا بالقفطان و السيف الذين يحملهما مبعوث خاص يسمّى "قبجي

---

[58] ـ حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 127 .

[59] ـ وليام شالر ، مذكرات وليام شالرقنصل أمريكا في الجزائر تعريب اسماعيل العربي (الجزائر: م.و.ن.ت، 1982) ، ص 77 .

[60] ـ نفس المصدر ، ص 44 .

[61] ـ و هو تركيب بين كلمتي داي ودولة و تعني الحاكم غير المعين من قبل السلطان العثماني انظر عبد الرزاق بن حمادوش ، رحلة ابن حمادوش الجزائري ، تقديم وتحقيق وتعليق د/ أبو القاسم سعد الله ،(الجزائر: الشركة الجزائرية للنشر و التوزيع ، 1983) ، ص 225 .

[62] ـ وليام شالر، مصدر سابق ، ص 43 .

باشا" أو مبعوث الدولة، و غالباً ما يرافق القبجي عتاد حربي مثل المدافع و البـــارود والحبال و أخشاب البناء و في بعض الأحيان بواخر جاهزة [63] ، هذه الهبة من البـلب العالي تأتي رداً على الهدية التي يرسلها الداي فور انتخابه طلباً للفرمـــــان ويســـمّى الرّسول الذي يحمل هذه الهدية "آغا الهدية"[64] .

و بالرّغم من كون الدايات استقلوا عن سلطة الباب العالي إلاّ أنّهم لم يفلتوا من سلطة الأوجاق، فقد كان للإنكشارية نفوذهم و كلمتهم في تعيين الدّاي و في عزلـه و غالباً ما كان عزل الدّاي يحدث مذبحة في قصر الحكومة يذهب ضحيّتها الـدّاي و مساعدوه، و لكنّ هذا الصراع الذي تعرفه دوائر الحكم كان بعيداً عن الحياة اليومية للمواطنين و لا يعرفون عن ذلك شيئاً، بل قد لا يسمعون عن هذا الصراع و إنّمـــا يعلمون بشغور منصب الدّاي إذا رأوا العلم الأحمر منصوباً فوق القصر، ولا يـــزال كذلك حتى ينتهي الأمر إلى داي جديد حينها يغيّر هذا العلم بعلم أخضر.

إلاّ أنّه وفي بعض الحالات التّي تطول في هذه العملية وحين سمـــاع المواطنـــين لصوت المدافع يعلمون أنّ المدينة قد تتعرّض لهجوم اليولداش الغاضبون الذّين يسعون لاستباحة المدينة فيهرع الناس لغلق محلاتهم والالـــتزام بدورهـــم إلى حـــين مـــرور العاصفة[65].

بـــ _الديوان :

لم يكن حكم الدايات وراثياً، و إنّما كان الداي ينتخب من قبل الأوجـــاق و بالتالي كان للأوجاق هيئة تمثّلهم في الحكومة يتم من خلالها الإشراف على عمليـــة الانتخاب للداي ومراقبتـــه و تنحيته إذا لزم الأمر وهي الديوان، غـــير أنّ هنـــالك نوعين من الديوان"[66] .

[63] _ حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص 133 .

[64] _ نفس المصدر ، ص 132 .

[65] _ Pierre Boyer. la vie quotidienne a Alger a la veille de l'intervention française. (Monaco :Ed hachette. imp nationale , 1964), pp. 90_92.

[66] _ ibid. p96.

_الديوان الصغير:

أو مجلس الحكومة و هو مكوّن من أربع شخصيات إضافة إلى الدّاي و هم :

_الخزناجي:

أو حارس الخزنة و هو الرجل الثّاني في الدّولة، و يخلف الدّاي عند الضّرورة كما يتمتع بالسلطة الكاملة على مدينة الجزائر، و غالباً ما يختار الدّايات من هذه الطّائفة، و قد يطلق على الخزناجي لقب الخزندار و يعتبره الدّكتور شاو Le trésorier général de l état. و يُحصّل بحضور الدّاي على مداخيل الدّولة ويحملها إلى الخزنة بعد رصدها في سجلات المداخيل، كما تخضع مصاريف الدّولة لسلطته إذ لا يصرف من الخزنة أيّ درهم دون علمه بل و لا يحقّ لأيّ كان أن يدخلها غيره . و يساعده في عمله أربعة عمال اثنان منهما يهود يراقب أحدهما صحة القطع النقدية من زيفها و يراقب الثّاني صحة المكاييل، و يكتب الخوجات المداخيل و المصاريف التي يعلنها هو بصوت مرتفع في جلسات الدّيوان[67] .

_الآغا:

أو آغا العرب و هو قائد القوّات البّرية (المحلات) و له السلطة الكاملة على الأوجاق و على الفرق المساعدة لها من قبائل المخزن في الأقاليم التّابعة مباشرة لسلطة الدّاي كما له دخل في تسيير شؤون البايات .

_ خوجة الخيل:

و له صلاحية إدارة أملاك الدّولة و منها الخيل التابعة للبايليك التي اشتق منها اسمه و نظراً لأنّ أملاك البايليك توسعت بصفة كبيرة خاصة بعد مصادرة أملاك بعض الخواص أو القبائل الخارجة عن سلطة البايليك فإنّ سلطة خوجة الخيل أصبحت ذات أهمية بالغة

[67] _ Pierre Boyer, op cit . p 97.

ـ وكيل الخرج :

وهو ما يمكن أن يطلق عليه بلغة العصر وزير البحرية، و يهتم بكلّ ماله علاقة بالبحر من شؤون القراصنة كالأسرى و الجمارك و صناعة السفن و تحصين الأبراج و غيرها [68] .

ـ الديوان الكبير:

ويجلس فيه كبار مسئولي الانكشارية إضافة إلى الداي و المفتي و القاضي و جميع الكتاب بالإضافة إلى جميع المعزول آغاوات[69] و البلوك باشاوات ، و قد استطاع هذا الديوان السيطرة على الحكم من الباشوات لكنّه مع تطور الأحداث في عهد الدايات فقد كلّ سلطاته، و أصبح وجوده شكلياً و لا يجتمع إلاّ في بعض المناسبات.

واجتماعات الديوان شكلية و بسيطة إلى حدّ كبير ولا يسمح لأيّ كان أن يحمل السلاح مهما كان نوعه ما عدا الحراس الذين يحفظون النظام، وكان عقاب الإخلال بنظام المجلس هو الموت، لكنّ حرية التعبير داخل الديوان مضمونة لأيّ من الأعضاء [70].

و الديوان هو الهيئة التي تنتخب الداي و تتداول في الأمور التي يرى الداي أنّه من المناسب عرضها عليه لذلك فإنّ قيمة هذا الديوان ترجع إلى شخصية الداي وكفاءته في تسيير الشؤون السياسية و العسكرية [71].

وزيادة على سلطة الداي والديوان فإن النظام السياسي عرف عددا من الموظفين كان يزداد شيئا فشيئا حتى أصبح مع نهاية العهد العثماني لا تكاد توجد حركة أو سكنة إلا وضع لها موظف مسؤول عنها .

---

[68] _ Dr Shaw .op cit. . p167 .

[69] ـ هم الآغاوات الهلاليين أو الذين عزلوا بعد شهرين من توليتهم منصب الآغاوية وهو تقليد عمل به الأوجاق ليضمنوا تداول أكبر عدد ممكن منهم على السلطة .

[70] ـ ج،ب،وولف،الجزائر و أوربا ، ترجمة د / أبو القاسم سعد الله ، (الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1986) ، ص . 128

[71] ـ وليام شالير ، مصدر سابق ، ص 42 .

ويمكن تقسيم هؤلاء الموظفين إلى خمسة فئات ندرجها كالآتي :

ـ فئة الكتاب :

ويؤدي كل موظف بهذه الفئة خدمة خاصة تختلف عن الأخرى

الكاتب الأول : المكتباجي .

الكاتب الثاني : الدفتردار أو وكيل الحرج الكبير .

الكاتب الثالث : وكيل الحرج الصغير .

الكاتب الرابع : كاتب عام .

ـ فئة الآغوات :

تتضمن هذه الفئة كل من الآغوات والقياد والحكام

الآغوات : ومنهم الكاهية أو الباشي بلوك باشي أو آغا الهلالين ، يصبح معزول آغا .

القياد : بعضهم بالبوادي وبعضهم بالمدن كقائد الشوارع وقائد العبيد .

حكام المدن : وهم شيوخ البلد ويكونون غالبا من الأسر العريقة لهذه المدن ويترأسون مجلس أمناء الطوائف والحرف .

ـ فئة الخوجات :

وتشمل هذه الفئة مجموعة من الخوجات يرأس كل واحد منهم وظيفة محددة وأهمهم :

خوجة القصر : وهو المسؤول على تصريف شؤون قصر الداي .

خوجة الجمارك : ويتكفل بتصريف شؤون الميناء ، وقبض الضرائب المترتبة على البضائع الداخلة والخارجة من البلاد ، كما يسهر على مراقبة الأسرى الذين يحاولون الفرار في السفن الأوربية الراسية بالميناء .

خوجة العيون : وهو المسؤول عن تقسيم المياه بالمدينة وترميم الحنفيات العمومية والقنوات التي توصل الماء إليها .

خوجة الملح : ويشرف على تجارة الملح .

كما كان لأبواب المدينة خوجة وللجلد خوجة وللفحم خوجة وهكذا مع سائر الميادين الأخرى .

_ فئة موظفي الخدمات الاجتماعية والاقتصادية :

وتضم جملة من الوظائف الهامة أهمها القضاة والمحتسبون وكذا المزوار والمشرفون على الأوقاف ومؤسسة سبل الخيرات وأمناء الحرف المختلفة .

_ فئة الخدم والشواش :

وتضم الطباخين والشواش والبراحين وغيرهم .

وللبايات في بايليكاتهم تقسيم وظيفي شبيه بالتقسيم المركزي بل أعقد منه وأوسع في الكثير من الأحيان إذ للباي خليفتان من الترك ينوب أحدهما عنه في إيصال الدنوش الصغير الذي يقدم كل ستة أشهر للعاصمة وينوب الآخر عنه في عاصمة البايليك في حال خروجه هو لتأديب العصاة أو جمع الضرائب أو إيصال الدنوش كل ثلاث سنوات وله كاتبان عربيان أحدهما كاتب لسره ويلقب (بباش تفتار) والثاني كاتب لرسائله ، وله قياد يحكم كل واحد منهم عرشا من العروش . كما له مجموعة من الشواش بعضهم أتراك يميزهم نوع اللباس وبعضهم عرب ويسمون (شواش بني عرب)[72] .

ويضيف المزاري مفصلا في الوظائف الرسمية التابعة للبايليك أن للباي :

"... والمتولي أمور داره يقال له قايد الدار وأمور سلاقه يقال له قايد السلاق وأمور سبسيه يقال له قايد السبسي وأمور ظليلته يقال له قايد الظليلة وأمور كرسيه يقال له قايد الكرسي وأمور طابعه يقال له قايد الطابع وأمور جنانه ومترهه يقال له قايد الجنان وأمور مكاحليته يقال له قايد المكاحلية وأمور خزنته يقال له خزندار وخزناجي والقاطع للرأس بأمره يقال له طزبير إلى غير ذلك "[73].

---

[72] _ بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في تاريخ وهران ومخزنها الأسود ، تحقيق د/ يحيى بو عزيز ،ج1 ، ط2 ، (بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1990) ، ص 271 .

[73] _ نفس المصدر ، ص 272 .

الفصل الأول

الطبقات الاجتماعية

المبحث الأول : الطبقات الاجتماعية بالمدينة

_ الأتراك .
_ الكراغلة .
_ الحضر .
_ البراني .
_ اليهود
_ المسيحيون

المبحث الثاني : الطبقات الاجتماعية بالريف

_ قبائل المخزن
_ قبائل متحالفة
_ قبائل الرعية
_ القبائل الممتنعة

يتناول هذا المبحث بالدراسة سكان المدن انطلاقا من أوضاعهم الاقتصادية وامتيازاتهم ومكاسبهم المادية إذ كانت مدينة الجزائر وعلى منوالها سائر مدن الأيالة تعتبر سكانها على انهم شرائح اجتماعية يجمعها الانتماء المهني والإداري والعرقي ولعلّ العامل الاقتصادي هو الذي دفع إلى وجود مثل هذا التقسيم ، وهو نفس ما يذهب إليه ناصر الدين سعيدوني إذ يرى أن :

"... العامل الاقتصادي جعل الدولة تنظر إلى سكان المدن على أنهم جماعة من الموظفين والأجراء والعمال والبحارة والجند والتجار والحرفيين "الصنّاع"وحتّى تصنيف سكان المدن حسب الانتماء العرقي كان الهدف منه حماية الامتيازات الاقتصادية والمكاسب المادية للطوائف المحظوظة فلو لم يكن هذا الدافع الاقتصادي لما حافظ الأتراك والكراغلة والأندلسيين أو البلدية والبرانية أو الدخلاء على تمايزهم العرقي طيلة العهد العثماني" .[1]

ويمكن في المدن تمييز ست طبقات اجتماعية مختلفة مرتبة بشكل هرم رأسه تمثله طبقة الأتراك الحاكمة وقاعدته تمثلها طبقة البرانية ذات الدخل المالي المحدود أما وسطه فتمثله الأربعة الباقية والتي يمكن تقسيمها بدورها إلى قسمين :

ـ القسم الأول يشمل طبقتي الكراغلة والحضر واللتين كانتا ميسورتين ماديا ومحترمتين اجتماعيا .

ـ القسم الثاني ويشمل طبقتي الدخلاء واليهود وهاتان الطبقتان كانتا في سعة من المال غير أنهما لم تكونا تحظيان بنفس القدر من الاحترام اجتماعيا وذلك لأن الأولى مشكلة أساسا من الأسرى والثانية بسبب المعتقدات الدينية .

---

[1] ـ ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ،1984 ص 50

الطبقات الاجتماعية بالمدينة :

الأتراك :

لقد كان أتراك الجزائر ينتمون إلى جنسيات مختلفة فمنهم البلغاريون واليونانيون والألبان و الإيطاليون والروديسيون وغيرهم ؛ لذلك فالأصح أن يطلق عليهم اسم العثمانيين لأنهم يجمعون من مختلف الأيالات العثمانية عزابا ليشكلوا فرق اليولداش ويكونوا غالبا من الفقراء و المهمشين في مواطنهم ، يوعدون بالثروة في الجزائر. و لم يكن هؤلاء الجنود يقومون بأعمال ذات بال ولا يخضعون لتدريبات عسكرية كبيرة غير تعلم الرماية، لكن كل جندي مطالب بالحراسة إذا جاء ت نوبة وجقه[2]، و لهم بعد مدة من الزمن حق المتاجرة في المدينة أو إقامة محل لحرفة من الحرف دون أن يفقدوا صفة الإنكشاري[3]. كما أصبح لهم في عهد الدايات الحق في المشاركة في الحملات القرصنية على السفن والشواطئ الأوربية وكان كل الإنكشاريين يأخذون نصيبهم من الجوائز التي يجلبها القراصنة أثناء العودة سواء شاركوا في تلك الأعمال أم لا[4]، و عند بلوغ أحدهم درجة عسكرية عالية يصبح له طرق عديدة لجمع ثروة كبيرة تؤهله لبناء مسكن لائق وشراء ملكية عقارية في فحص المدينة التي يقيم بها .

بمجرد وصول اليولداش الجديد إلى الجزائر يقوم الكتاب بتسجيله في سجل إداري يعرف بسجل الإنكاشرية يسجل فيه اسمه واسم والده واسم المدينة التي قدم منها ومهنته السابقة التي قد يستقي منها كنيته، ثم يسجل رقم وجقه ويترك مكان أسفل هذه المعلومات ليسجل فيه المبالغ المالية التي يتقاضاها كأجرة كل شهرين. بعدها يحصل الجندي الجديد على البدلة الرسمية وكذا تجهيزه الحربي المشكل أساسا من

---

[2] _ الوجق كلمة تعني البيت في الأصل وتستخدم للدلالة على وحدات عسكرية مشكلة من 11إلى 30 رجلا ولكن هذا المصطلح استخدم للدلالة على كامل الجيش ثم أخيرا على الوجود العثماني بالجزائر ، أنظر: p Boyer op cit. p127.

[3] _ ذكر محمد بن يوسف أن لفظ (يولدش) يعني جندي و(الانقشرية) العسكر الجديد وذلك أن السلطان مراد خان عثمان اتخذ مماليك سنة 94 فسماهم بهذا الاسم فهو أول من سمي به . محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينةوهران، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر ، 1978) ، ص 189.

[4] _ وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص 58 .

بندقية و"يطغان" والذي يقدم له كإعارة وفي حالة ضياعها يقتص ثمنها من راتبه ، وعند مشاركته في الحملات العسكرية يقدم له نعلان يدفع ثمنهما لاحقا[5].

إن مدة الشهرين التي ينتظرها اليولداش إلى حين حصوله على راتبه غالبا ما كانت تدفعه إلى اللجوء إلى طلب تقديم من أحد تجار اليهود مقابل وصل يشهد بهذا الدين فإذا جاء موعد الراتب اقتص منه الدين قبل أن يسلم الباقي إلى الجندي، غير أنه وفي حالة وفاة اليولداش قبل موعد الراتب فإن الحكومة لا تلتزم بدفع هذا الدين . ورغم أن مصاريف الجندي تبدو غير كبيرة إلا أنه غالبا ما يلجأ إلى هذه الديون ربما لأنه يفضل أن يصرف كل نقوده على أن يدخرها وهو غير آمن على حياته. فقد أورد شالير أن حظوظ التركي وثروته شيء محفوف بالخطر طوال حياته.[6]

يسكن اليولداش في قشلات (ثكنات) يلازمونها ، ولا يسمح لهم بالخروج إلى المدينة إلاّ يوم الخميس ،وتحت مراقبة حارس مسؤول عن سلوكهم وذلك حتى يبلغوا سنا معينة أو كما يقول شالير :

"حتى تنمو لحاهم و حينئذٍ يسمح لهم بلبس الطربوش و الاختلاط بالنّاس على مسؤولياتهم"[7]

و قد عرف عن هؤلاء الجنود أنهم ملتزمون بحسن السلوك و احترام الدين لكن ذلك لا يمنع من وجود بعض الانحلال أحياناً "و هو سلوك يميز الجنود عامة" حسب ما يذكر القنصل الأمريكي "شالر"ويذكر أيضا :

"أن الحكومة الجزائرية كانت تسمح بفتح المواخير التي يديرها اليهود لتسلية هؤلاء الجنود حيث يسمح لهم هناك بتعاطي الخمور غير أن ذلك مشروط بعدم وقوع فضائح خاصة أمام الجماهير وذلك احتراما للشعور العام و كل تجاوز لهذا الشرط يعرّض صاحبه لأقسى العقوبات "[8].

---

5 _ V . De Paradis . Alger au xviii siecle 2ed (Tunis: editions Bouslama , 1980) P57.

6 _ وليام شالر ، مصدر سابق ، ص 78 .

7 _ نفس المصدر ،ص ص 54 _ 55 .

8 _ نفس المصدر ، ص 55 .

و إذا كان أمر جمع هؤلاء الجنود في بداية عهد الأتراك في الجزائر موكولا للباب العالي فإن الأمر لم يعد كذلك في نهاية عهدهم، فباستقلال الدايّات أصبح من حق كل المغامرين -ومن جميع الأجناس التابعة للرابطة العثمانية ومن المسيحيين الذين يعلنون إسلامهم - الالتحاق بجماعة اليولداش، وبذلك أصبح نظام الأوجاق أقرب إلى ما يعرف باللفيف الأجنبي .

وحتى لا ينافس هذا اللفيف أي طرف في السلطة فإنهم منعوا غيرهم من الأهالي من الاشتراك في الحكومة ،بل وحتى الكراغلة الذّين هم أبناؤهم من أمّهات جزائريات منعوا من المشاركة فيها بخلاف أبنائهم من الأسيرات المسيحيات فإنهم كانوا يرثون نفس الامتيازات التي تمتع بها آباؤهم من قبلهم، وهي مفارقة غريبة لا يفسرها غير محاولة الأوجاق قطع الطريق أمام قيام أي شعور وطني حول هذا العنصر البشري الذي يربطه بالوطن علاقة الخؤولة .

والأتراك المقيمون في الجزائر كلّهم أساساً من الجنود ولكّنه توجد طائفة منهم وهي أقلّية من المدنيين جاءت من تركيا أو تشكلّت من الجنود المتقاعدين من الجيش ويسمى الواحد منهم "أفندي" أو "خوجة " أي الكاتب وهم ممن

"يعرفون الكتابة أو على الأقل قادرون على معرفة القراءة والكتابة وهذه الفئة تتمتع بامتيازات كبيرة وتوفر كتاب الإدارة الحكومية"[9].

وقد تميز هؤلاء الأتراك أو العثمانيين _كما سبق الذكر _ عن بقية السكان بأنهم كلهم حتى الذين جنّدوا لتوّهم في الأوجاق يعتبرون سادة ويفضلّون عن غيرهم من السكان ،كما تميّز هؤلاء الأتراك عن غيرهم من السكّان في نوع اللّباس الذي كانوا يلبسونه[10]. ولذلك كانوا يعرفون بسهولة ويفسح لهم في الطريق، وقد أورد "دو تاسي" وصفا مستفيضا لهذه الملابس .[11]

[9] _ وليام شالر ،مصدر سابق ، ص 54 .

[10] _ Mouloud Gaid. op cit.p 199.

[11] _ Laugier de Tassy. op cit. pp59 _60.

وقد اختلف المؤرخون في عدد هؤلاء الأتراك، غير أنهم متفقون جميعهم على أن هذا العدد في أقصى الحالات لا يتعدى العشرة آلاف كما أنهم مجمعون على أنه كان في تناقص مستمر في الفترة المدروسة لعدة اعتبارات أهمها عزوف الأوجاق عن استجلاب أعداد كبيرة من الجنود يكلّفون الخزينة أموالا هي في وضع لا يسمح بتوفيرها بعد تناقص مواردها من القرصنة وكذا من الضرائب بعد تعرض البلاد لجملة من الانتفاضات الشعبية في مختلف بايليكاتها.

وينقسم الأتراك على وحدات الجيش كالآتي :

ـ **مشاة الأتراك:** وتنقسم إلى كتائب ، وفرق ، ووحدات ، وفصائل .

ـ **البحارة:** وهم نخبة من العزاب:"الزبنطوط" يتكونون غالبا من ألف رجل فما فوق وأغلبهم من المسيحيين المعتنقين لدين الإسلام.

ـ **المدفعيون:** وهم الذين يقومون بتلقيم المدافع . وإطلاق النار على العدو وخاصة في عهد الدايات حيث تطورت نوعية المدافع المستعملة .

وكانت خدمة الجيش مرتبة على ثلاث مراحل سنويا :

ـ العام الأول ، لحماية المدينة ، وهي (النوبة) .

ـ العام الثاني ، لخدمة المعسكرات أو المشاركة في الامحال أي الحملات العسكرية التي تخرج من العاصمة لجمع الضرائب أو تأديب العصاة .

ـ العام الثالث ، للراحة في الجزائر (العاصمة) .

ويتدرج التركي القادم إلى الجزائر في مراتب الجيش كالآتي :

أ) "أني يولدش": الجندي البسيط الصغير .

ب) "أصكي يولدش":الجندي القديم ، الذي عمل ثلاث سنوات .

ج) "باش يولدش": رئيس فرقة متكونة من عشرين جنديا إلى خمسة وعشرين .

د) "وكيل الحرج ": المكلف بالأسلحة الداخلة والخارجة وصناعتها ،والمتصرف في شؤون الدولة العسكرية برا وبحراً .وهو أيضا المقتصد للحامية ،أو الفرقة أو الكتيبة.

هـ) "أداباشي": قبطان السرية .

و) "بولا كباشي ": رئس الفرقة، أو كتيبة ،أو فيلق...

ز) "آغا ": وهو لقب تشريف يأتي بعد لقب "بولا كباشي".

وبعد خدمات قصيرة في الجيش يحال الآغوات على التقاعد ، ويبقون يتقاضون مرتباهم كما هي بالتمام[12] .

طائفة الرياس:

لم تكن هذه الطائفة خاضعة خضوعا تاما للنظام الإداري ، بل كان لها حكم خاص، فهي بمثابة النقابة لريّاس البحر . وكانت هذه الطائفة تتمتع بمحبة تامة ، واحترام كبير لدى جمهور الشعب ، لأنها كانت تحمي البلاد من غارات العدو البحرية كما أنها كانت غنية جدا بسبب الغنائم التي تأخذها من العدو في عرض البحر، وكانت تجند رجالا من كافة طبقات الشعب ، فيصبحون بحارة ماهرين .ونظرا لمكانة هذه الطائفة لدى الشعب وإمكانياتها المادية أصبحت مهيبة الجانب لدى السلطة الحاكمة ولهذا نجد رجال الديوان _بما فيهم الداي_ مرغمين على تلبية رغباتها . وكانت كلمتها مسموعة ، وأمرها مطاعا في صفوف الجيش ، حتى أصبحت قطبا من أقطاب السلطة يوازي سلطة الداي أو الديوان ولكن هذه المكانة فقدت بريقها في السنوات الأخيرة من عهد الدايات خاصة بعد وفاة رياس بارعون مثل الرايس حميدو وتعرض الجزائر لحملات مكثفة حدّت من نشاط هذه البحرية بعد الإتفاقات التي أبرمها الدايات مثل الاتفاقات التي أعقبت هجوم اللورد إكسموث سنة 1816 ، كما أن انهزام الأسطول العثماني في حروبه مع اليونان وتدمير الأسطول الجزائري بعد موقعة نافارين كان ضربة قاصمة لهذه الطائفة [13]

وعلى ضوء ما تقدم ذكره يبدو لنا أن نظام الحكومة التركية بالقطر الجزائري كان عسكرياً في غالب الأحوال تمثله نخبة قليلة العدد من الأتراك العثمانيين الموزعين على أنحاء القطر الجزائري .

---

[12] _ Laugier de Tassy . op cit . PP 136 _ 138 .

[13] _ P Boyer . op cit . PP 237 _ 239 .

الكراغلة :

هم طبقة المولدين من آباء أتراك و أمهات جزائريات ؛ وقد حاول هؤلاء الكراغلة في كثير من الأحيان انتزاع حقوق مماثلة لتلك التي ينعم بها آباؤهم فحصلوا على كثير منها لكن وبعد ثورة 1630م التي جرت عليهم النفي حرموا من المشاركة في الديوان و اليولداش إلا ما كان حالة استثنائية فقد أصبحوا موضع شك دائم من الأتراك ،فاستبدلوا خدماتهم في الإدارة بخدمات غيرهم من الجزائريين، كما استعانوا في إدارة شؤونهم و خاصة المالية منها باليهود ، و لم يعودوا للمشاركة السياسية إلا عندما استعان بهم الداي علي خوجة في حركته الانتقامية ضد طبقة اليولداش الذين أكثروا التمرد[14].

وقد دام هذا الشك والريبة بين الأتراك و الكراغلة قرابة القرنين من الزمن لم يصل خلالها واحد من الكراغلة إلى منصب في البلاط رغم أن المليشيا الكرغلية كانت تتقاضى رواتبها خوفا من سخطها .وبعد ذلك فكر الكراغلة في استعطاف آبائهم ونيل رضاهم[15] فكان لهم ذلك كما سبق الذكر على يد علي خوجة ثم على يد الداي حسين الذي عينهم في بعض المناصب العليا كأحمد باي الذي عين بايا على قسنطينة .

ولا يمكن اعتبار حركة الكراغلة ضد الأوجاق أنها تصور مسبق للدولة تخدم مصالح الطبقة الأرسطوقراطية المكونة من العائلات الجزائرية الكبيرة بقدر ما هو محاولة من الكراغلة لقلب هيمنة الأوجاق على السلطة، إذن فهي حركة ضد الأوجاق أكثر منها ضد الأتراك[16].

ويرى "بوايي" أن مسألة الكراغلة أو مشكلة الكراغلة _كما يسميها _ انطلقت منذ بداية الصراع بين الباشاوات و الأوجاق فقد استطاع الباشاوات وفيما بعد الدايات تحريك الكراغلة ضد مشاغبات اليولداش لكن سرعان ما أوقفوا هذا العمل

[14] _ عبد الرحمان الجيلالي ، مرجع سابق ، ص 328 .

[15] _ حمدان خوجة ن المرآة ، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري ،ط 2 ،(الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . 1982 ص.

[16] _ A.M.Boudia. La formation sociale algerienne precoloniale. (Alger: o.p.u. 1981). p333.

مخافة أن يخلق تحالفات وطنية تتحول إلى قوّة تعيد النظر في ميزان القوى وقد تؤدي إلى تنحية الوجود التركي من الجزائر كلياً[17].

وعلى كلّ حال فإن حركة الكراغلة فشلت في تحقيق مساعيها أياً كانت . ومُنع الكراغلة من أي منصب في الأوجاق أو في الديوان ، وتبعا لذلك قامت عدة حركات تمرد لكنّها لم تأخذ نفس البعد ولا نفس القوّة وأنها كانت غالبا ما تقوم للدفاع عن بعض المصالح المهدّدة هنا وهناك أو لدعم طرف من الأطراف التركية المتصارعة على السلطة .

ورغم محاولات الأتراك المستمرة في إبعادهم عن مراكز السلطة وفي تقليص تزايدهم العددي استمرّ الكراغلة في الاستفادة من وضعية مادية متميّزة زادت في البروز بعد تحول الأتراك إلى الاعتماد بشكل أكبر على المداخيل الضريبية بعد تقلّص المداخيل البحرية فقد أصبح الكراغلة قوّة داعمة ضرورية للأوجاق وللدّايات كلّما وقع هؤلاء في صدام مع الجند الشيء الذي جعلهم يجنون منافع تعوّضهم عن خسارة الموقع السياسي الذي فقدوه مع بداية القرن 17 .

وإذا لم يرث الكراغلة عن آبائهم الامتيازات السياسية والاجتماعية فإنهم ورثوا عنهم انتماءهم المذهبي إذ جلهم أحناف كآبائهم بخلاف بقية السكان ذوي المذهب المالكي

[17]_ Boyer. "Le probleme kouloughli sous la regence d'Alger" . l'Occident Musulman. n special . 1970 . PP 81-82 ,voir :A.M. Boudia. op cit. PP 332_333.

الحضر:

يتشكل الحضر من طبقة غنية منحدرة من أهل البلاد ومن مهاجري الأندلس الذين اختلطوا مشكلين طبقة تحتل سياسيا المرتبة الثالثة بعد كل من الأتراك و الكراغلة وكان كلا الفصيلين المشكلين لهذه الطبقة يعيشان من ثمار تجارتهما أو من الحرف التي يمارسها أفرادهما. وقد حافظ الأندلسيون على خصوصيتهم إذ كانوا يعيشون في جماعات حسب انتماءاتهم الجغرافية السابقة[18] أملا في العودة القريبة إلى مواطنهم ولكن مع مرور الوقت اندمجت هذه التجمعات في طبقة الحضر حتى لم يعد يفرقهم غير بعض التسميات التي ورثوها عن أصولهم كما حافظ الأشراف ذوو الأصول الهاشمية والعلوية على تميّزهم .

وقد تميز الحضر بتقاليد خاصة جعلتهم يؤلّفون طبقة اجتماعية متميّزة بالوضع الاقتصادي الميسور وباهتمام أفرادها بالمهن الصناعية والتجارية وشغلهم للقضاء والسلك التعليمي كما ظهر من هذه الطبقة البحارة المغامرون والفقهاء والعلماء .

هذا الوضع المتميّز لأفراد هذه الطبقة دفع أبناءها إلى تنمية ثرواتهم واستثمار مزارعهم الواقعة في فحوص المدن التي يسكنونها الشيء الذي خلق طبقة ميسورة الحال شبيهة بالبرجوازية التي عرفتها مدن أوربا آنذاك . كانت هذه الطبقة خاضعة للبايليك وقليلة الاهتمام بالصراعات السياسية وشؤون الحكم لكنّها مسيطرة على مقاليد الحياة الاقتصادية وبخاصة خلال القرنين السادس والسابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر[19]،ورغم هذه السيطرة التي لم يكدرها غير تعاظم النفوذ اليهودي في اقتصاديات البلاد إلا أنهم لم يحاولوا تغيير نظام الحكم أو مجرد التأثير لتعديل أسلوب الحكام في تسيير شؤون البلاد الاقتصادية .

وقد بقيت هذه الطبقة قاصرة عن لعب الدور الذي لعبته البرجوازية الصغيرة في أوربا اجتماعيا وسياسيا خاصة في بداية العهد العثماني في الجزائر عندما كانت تتمتع بكل المؤهلات من ثروة وسيطرة على مقاليد الاقتصاد في البلاد .وربما يعود ذلك إلى تعرّضها لعمليات التغريم والمصادرة والتضييق من قبل الحكام الأتراك، وتخوف الأتراك والكراغلة

[18] _ Mouloud .Gaid . op cit . p201.

[19] _ A.M.Boudia . oop cit . p 350 .

منها وترفّع أفرادها عن بقية الطبقات الدّنيا ما جعلها تعيش جوا من اللااستقرار الدائم بين الطبقة الحاكمة وبقية الرعية [20]، كما أن نظام الاحتكار الذي أقره الدايات المتأخرون وتنفذ اليهود في السلطة قضى على امتيازات هذه الطبقة .

الأندلسيون:

ورغم أن أغلب الأندلسيين كانوا يعتبرون أنفسهم مجرد مهاجرين في بادئ الأمر إلا أن تواجدهم بالجزائر كان عامل ازدهار اقتصادي وثقافي ساهم في التطور العمراني والنمو البشري، فقد ساهم الأندلسيون في عودة الحياة إلى كثير من المدن الساحلية الميتة كما أنشؤوا مدناً لم يكن لها وجود قبلهم .[21]

وقد أحسن الأندلسيون في استخدام مهاراتهم التي اكتسبوها بالأندلس وخاصة في المعاملات المالية والتبادلات التجارية فاحتكروا الحياة الاقتصادية بالمدن كما ساعدهم تمرسهم في مجال البحرية واطلاعهم على بلاد النصارى على احتكار المبادلات التجارية مع هذه البلاد ويجزم بوديكور على أنهم كلهم يمتهنون التجارة بل ولا يرون صنعة أشرف ولا أحسن منها وأن القادرين منهم يفتحون محلات بالمدن لبيع الزرابي والعطور وغيرها وأنهم وإن لم يبيعوا شيئا خلال النهار إلا أنهم يقضون يومهم بها يتقصّون الأخبار ويتبادلون الحديث مع من يعرفون من المارة و إذا انشغل أحدهم واضطر للغياب عن محله لقضاء حاجة ما فإنه يترك محله مفتوحا تحت رعاية جاره، وكان هؤلاء التجار يشكلون عائلة فيما بينهم[22].

كما انعكست الهجرة الأندلسية إلى الجزائر على الجانب العمراني ، إذ أنشئت مدن جديدة نذكر منها مدينة القليعة ، عنابة، أرزيو ،مستغانم والبليدة . وقام الأندلسيون بتزويدها بجملة من المرافق العامة كالعيون و السواقي وجلبوا المياه إلى داخلها ونظموا الري ونشطوا الجانب الاقتصادي : ففي الزراعة تمكنوا من استصلاح مساحات شاسعة

[20] _ سعيدوني والبوعبدلي ، الجزائر في التاريخ ، ج4، (الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ،1984) ، ص99 . وانظر كذلك :
A.M . Boudia . op . cit. pp350 _351 .

[21] _ نفس المرجع ، ص98 .

[22] _ Louis de Baudicourt . La Guerre et le gouvernement de l'Algerie. Sagnier et Bray edition. Paris.1853. PP. 184_185 .

من الأراضي بنواحي "متيجة" و"شر شال" بفضل مهارة فلاحي "فلانسيا" و"أراغون" وتميزت محاصيلهم بالوفرة والجودة أما في ميدان الصناعة فقد أقاموا المشاغل وأنشأوا الورشات وزاولوا مختلف المهن كالحدادة والنجارة والخياطة ومعالجة الخزف والجلد والحرير وطوروا صناعة الأسلحة وتحضير البارود وصناعة السفن ، والجدير بالملاحظة هو أن نشاطهم التجاري وخدماتهم الإدارية كانت أقل شأنا وأهمية فقد اشتهروا بتحصيل الضرائب وجمع موارد الخزينة للإدارة التركية وساعدوا إلى حد كبير في جعل العملة الإسبانية تشيع بين الأهالي ويتعامل بها بين حكام الجزائر وباقي الدول الأوروبية .

ولعل ما ميز الوجود الأندلسي بالجزائر هو مشاركة الأندلسيين في تدعيم الوجود التركي بالجزائر ما جعل لهم مكانة مميزة لدى السلطة وذلك بتدعيم وحدات الجيش كما ذكر ناصر الدين سعيدوني أن حوالي 500 فارس أندلسي من أهالي غر ناطة وأراغون وبلنسية قاموا بمساعدة القوة التركية المشكلة من 1000 جندي من المشاة استعان بهم عروج بربروس للتمكن من تشتيت قوة حاكم تنس وأعوانه في معركة وقعت قرب الشلف .

" كما استعان الحكام الأتراك في حكم المدن التي أخضعوها لأول مرة بحاميات أندلسية، تلك الحاميات التي أوكل أمر الحراسة لها في أغلب المدن مثل مدينة المدية التي نصب بها الأتراك حامية من الفرسان الأندلسيين مع بعض المشاة من الأتراك ... "[23].

سبق الذكر أن الأندلسيين اعتبروا أنفسهم في مرحلة هجرة مؤقتة ولذلك كان وضعهم الاجتماعي مميزا إذ رفضوا الاندماج في المجتمع حتى عهد متأخر وهذا ما جعلهم يحجمون على التزاوج خارج جماعتهم ، فالمرأة الأندلسية نادرا ما تتزوج من غير أندلسي إلا ان اضطرتها الحاجة والفقر إلى ذلك وربما يعود ذلك إلى كونهم أكثر ثقافة وتطورا من ناحية الذوقيات والأريحيات كآداب المأكل والملبس وأسلوب العيش الراقي وازدهار فن العمارة والموسيقى والمعاملات المتحضرة التي ورثوها عن موطنهم الأصلي ، بل حتى لغة التخاطب عند الأندلسيين كانت مميزة لغناها بالمفردات الدالة على غنى الحياة المادية والفنية للأندلسيين ما أدى إلى تأثر سكان الحواضر الكبرى بهذه اللغة وغيرها من عادات

[23] _ سعيدوني ، دراسات وأبحاث في ،مرجع سابق، ص 139 .

الأندلسيين وطبعها بالوحدة على خلاف تنوع عادات أهل الريف التي تقوم على توجيهات شيوخ الطرق الصوفية في أغلب الأحيان كما يرى أبو القاسم سعد الله .[24]

ومن إيجابيات هذا التميز اللغوي انتشار استعمال اللغة العربية في بعض المناطق التي كانت ما تزال تستعمل لغتها البربرية الأصلية خاصة في المدن الساحلية .

" ... ومن جهة أخرى عملوا في نطاق الحواضر على شيوع استعمال مفردات إسبانية وانتشار تعابير لغة الفرانكه Langua Franca التي يغلب عليها الطابع الإسباني وذلك في مجال الأعمال التجارية والعلاقات الخارجية ، في حين ظلت بعض العائلات الأندلسية المحافظة تتداول اللغة الإسبانية لفترة طويلة[25] .

والشيء الذي ساعد أيضا في انتشار هذه اللغة هو تداولها من قبل الوكلاء الأوربيين من خلال المعاملات التجارية السائدة بين الجزائر و أوربا .

الأشراف:

تميزت فئة الأشراف بالمكانة الرفيعة والحضوة لدى السلطة وكذا أفراد الشعب ، ذلك أن نسبهم الشريف وأصولهم العريقة التي تعود إلى آل البيت كانت السبب وراء هذه المنزلة المهمة في المجتمع، وليس هذا بدعا من الأحوال فقد قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بتفضيلهم في العطاء عندما نظم ديوان العطاء.

ويذكر الورتلاني كلاما طويلا حول وجوب احترام الأشراف وتعظيمهم نذكره على طوله توضيحا لسبب تميزهم بهذه المكانة :

" ... يجب على الناس تعظيم الأشراف أيّ تعظيم ومحبتهم واعتقادهم لوجه جدهم الذي انتموا إليه وانتسبوا إليه وأن يعتقدوا أيضا أن الله يغفر لهم لا لشيء أسلفوه ولا لأمر فعلوه وإن وقعت منهم إذاية لأحد فيجب أن يعتقدها كالأمر السماوي من الله وكالغرق والحرق ... فأنت ترى أيها المخاطب إلى هذا الجانب الأعلى من التعظيم فكيف يبغضون ويؤذون وإن ذلك من أكبر المقت وقد قال القسطلاني في المواهب اللادونية في السيرة النبوية من المعاصي التي

[24] _ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ج 1 ، ص154 .

[25] _ سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ،مرجع سابق، ص145.

لا تغتفر أصل ولا تقبل فيها التوبة بغض آل النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى قل إن كان آباؤكم إلى قوله والله لا يهدي القوم الفاسقين انتهى . فإن قلت كل الناس يدعي الشرف وتعظيمهم مشقة عظيمة وعسر عظيم في الدين و تصديقهم تعسف فيه فكيف العمل فهل يصدق الجميع أم يكذب الجميع أم البعض دون البعض وتصديق الأول باطل وكذا الثاني لبطلان كون الجميع شرفاء أو لا شرف فيهم وكذا الثالث باطل للتحكم لاستواء الناس في نظر العقل (قلت) الحق بيّن والدواعي كلها باطلة فلزم أن يكون ممنوعا وسند المنع أن الأنوار النبوية ظاهرة بينة لا غبار عليها"[26].

وبالرغم من أن هذه المكانة جعلت بعض الدخلاء يدّعون الشرف وصعب على العامة إحصاء من هو منهم ممن هو دخيل عليهم إلا أن علماء ذلك الزمن فضلوا الوقوع في الخطأ باحترام الدخيل على ترك التفضيل مطلقا واكتفوا بالشهرة دلالة على النسب ومن ذلك رد الورتلاني على من استشكل عليه معرفة أهل الشرف وطلب لذلك علامة يميز بها عامة الناس الأشراف بقوله :

" إن الأحكام الشرعية والقضايا الإلهية حكمت بأن الشريف مصدق في نسبه كما يصدق في ماله فإن حيازة الأموال معتبرة شرعا كذلك حيازة النسب والحيازة في الأموال لا بد وأن تكون في أمد طويل بحيث يقطع أن هذا لمن حازه و يقوم الأمد الطويل مقام البنية القاطعة به كذلك النسب فلا بد وأن يكون أمداً طويلا يقطع فيه العقل و العادة بأنه لا خلل فيه إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وحينئذ الناس مصدقون في أنسابهم لوجود الحيازة فيها كحيازة الأموال قاله الإجهوري إذ قال الناس على ما حازوا من أنسابهم سيصدقون فيها عملا بالحيازة كما يصدقون في الأموال عملا بها ... وقال الشيخ عبد الباقي في باب مصرف الزكاة بكسر الراء الشرف يثبت بالشهرة اهـ . فأنت ترى ان الشرف يثبت بالحيازة وبشهرته فتبنى عليه أحكام من تحريم الصدقة وتعظيم جانبه لأجله وثبوت حقه فيما له حق فيه وغير ذلك فيما يثبت فيه ."[27]

---

[26] ـ الورتلاني ، مصدر سابق ، ص 115 .

[27] ـ نفس المصدر، ص 116 .

البرّاني :

تتشكّل طبقة البرّاني أو البرّانية من المجموعات السكانية التي دخلت المدن قادمة من بواديها بحثاً عن مصدر رزق ثمّ استقرت بهذه المدن، لكن دون أن تستطيع الاندماج في الطبقات الأخرى المقيمة بالمدينة، إذ إن النظام الاجتماعي الذي فرضته اعتبارات سياسية واقتصادية _سبق الحديث عنها عند الكلام عن الطبقات الاجتماعية السابقة_ منع أفراد هذه الطبقة من الاندماج فيما بينهم وحافظ أصحاب كلّ منطقة جغرافية على تميّزهم وعرفوا باسم أصولهم الجهوية فقد اختصت كل مجموعة منهم داخل المدن بحرفة يقومون بها تحت إشراف أمين يختاره البايليك ليمثل أفراد هذه الطائفة لدى السلطات ويدافع عن حقوقها ويفصل في خصوماتها بمساعدة شوّاش وكتّاب، ويجمع التزاماتها المالية ليقدّمها للخزينة العمومية[28]، وأهم المجموعات التي تشكّل هذه الطائفة هي :

ا_ مجموعة البسا كرة :

أو البسكريين وهم أهالي منطقة بسكرة وضواحيها الذّين قدموا إلى المدن الكبرى كالعاصمة و قسنطينة والبليدة والمدّية وغيرها طلبا لظروف عيش أفضل من تلك التي توفّرها مناطقهم الأصلية، فأوكلت إليهم المهن المتواضعة والأعمال الشاقة كحراسة أبواب المدينة وشوارعها ليلاً وحمل السلع والبضائع وتزويد المدينة بالمياه من الآبار والوديان والحطب من الغابات المجاورة.[29]

ويرأس هذه المجموعة السكّانية أمين يمثّلهم لدى البايليك ويجمع غراماتهم وواجباتهم المالية ليقدّمها بدلاً عنهم .

" ويتقاضى من البايليك مقابل الإشراف على أفراد طائفته 14 خبزة في اليوم وقلّة من الزيت وكيسين من الحبوب وأربعة أمتار من القماش كلّ شهرين كما يستخلص من كلّ بسكري قادم للعمل بمدينة الجزائر خمسين بوجو[30]".[31]

---

[28] _ أحمد السليماني ، تاريخ مدينة الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، بدون ت ، ص ص 40 _ 43 .

[29] _ ناصر الدين سعيدوني ،و مهدي بوعبدلي ، مرجع سابق ، ص 99 .

[30] _ بوجو : قطعة نقدية أنظر تفصيل ذلك في الملحق رقم :09 .

[31] _ ناصر الدّين سعيدوني و مهدي بوعبدلي ، مرجع سابق ، ص 100 .

ب_ مجموعة الميزابيين :

أو بني ميزاب و هم القادمون من "وادي ميزاب" في الجنوب الجزائري و بالتحديد في منطقة تقع في الصحراء و على مسيرة عشرين يوماً منها [من العاصمة] بالقوافل التي تمشي خمسة أيام على الأقل بعد حدود الأيالة دون أن تصادف الماء في طريقها "[32]

ويروي شالير على لسان أحد الطلبة الميزابيين ممّن لقي في مدينة الجزائر أنّهم بوادي ميزاب منقسمون إلى قبائل يحكم كلّ واحدة منها مجلس مكوّن من اثني عشر عضواً منتخباً من الأعيان (مجلس العزّاب) ، ينتخبهم الشعب الذّي قدرته هذه الرواية بحوالي 250000 نسمة. غير أنّ شالير شكّك في هذا العدد و اعتبر ه مبالغاً فيه .[33]

و الميزابيون حسب "شالير" :

" قوم هادئون نشيطون في التجارة و مشهورون بالأمانة و النزاهة في الأعمال وبلدهم يتمتع باستقلال تام عن حكومة الجزائر و الامتيازات التي يتمتعون بها و تجارتهم تضمنها معاهدة مكتوبة وقعتها حكومة الأيالة ، وهم في الشؤون المدنية لا يعترفون بسلطة إلا الأمين الميزابي الذّي يقيم في الجزائر و أنا أعتقد أنّهم يتمتعون بامتيازات كثيرة ... "[34].

و قد يكون سبب هذه الامتيازات الخدمات التي قدّمها الميزابيون للحكومة في صراعها مع الكراغلة الذّي سبق الحديث عنه ، فقد احتكروا دور الوكلاء المعترف بهم، والوسطاء في التجارة مع داخل إفريقية ، و القصابات و الطواحن و خاصة الحمّامات التي يديرون أغلبها و بالتالي فهم إلى الحضر أقرب كونهم ميسورين مادياً غير أنّ مذهبهم الخارجي كما يرى "بوايي" حال دون هذا الاندماج و جعلهم يعدون برانية بدلا من حضر.[35]

و يذكر "شالير" أنّهم يشبهون في ملامحهم و منظرهم العرب و يدينون بدينهم غير أنّهم لا يؤدون الصلاة في المساجد العمومية و لهم مسجد خاص بهم يقع خارج المدينة و

[32] _ وليام شالر ، مصدر سابق ، ص 110 .

[33] _ نفس المصدر ، ص 111 .

[34] _ نفس المصدر ، ص 111 .

[35] _ Pierre Boyer. op cit . p 165 .

ذلك لأنهم يعتبرون المكان غير طاهر ما دامت مجاري المياه القذرة تجري تحت هذه المساجد ، ويتحدثون نفس اللغة التي يتحدثها القبائل غير أن لغتهم كما يرى ، أنقى ، و أكثر أناقة بسبب عاداتهم الهادئة و ممارستهم حرفة التجارة[36].

مجموعة القبائل :

جاء أغلب أفراد هذه المجموعة من المناطق الجبلية المحيطة بالمدن فقبائل العاصمة جاء أغلبهم من جبال "جرجرة" القريبة من "الجزائر" وكذلك حال قبائل تلمسان وقسنطينة والمدية وغيرها من المدن وقد دفعهم تزايد أعدادهم وقلة مصادر الرزق في جبالهم إلى الانتقال إلى المدن بحثا عن هذا الرزق بالاشتغال بالمهن اليدوية أو الزراعية بفحوص المدن أو خدم في بيوت العائلات الغنية أو لدى القناصل والوكلاء التجاريين الأجانب .

وأصل القبايل كما يرى شالير يعود إلى بقايا النوميديين الذين يعيشون في جبال الأطلس الكبير، وفي مختلف السلاسل التي تتفرع عنه، وسكان كل منطقة من هذه المناطق الجبلية يشكلون جمهورية مستقلة تحمل أسماءا عربية مثل بني سنوس وبني زوارة وبني عباس وغيرها .[37]

ويعرف القبائل أيضا بالبربر وهم بطون كثيرة للمؤرخين تفصيل كبير في أصولهم وتفريعا تهم [38] .

يسكن القبائل كغيرهم من قبائل الرعية في بيوت من الطوب تدعى (قربي gourbie) سقفه يكون غالبا من القش المطعم بالتراب ومجموع هذه القرابي يسمى دوارا ، ولا تزال هذه التسميات مستعملة في الريف الجزائري إلى اليوم . و"القربي" عادة مشكل من غرفة واحدة صالحة لجميع الاستعمالات ولا ينفصل منها غير الجزء الخاص بالقطيع إذا كانت العائلة تملك واحدا . وتعتبر صناعة الحايك أهم عمل تمارسه قبائل زوارة وهو في الغالب من صوف الأغنام أو شعر الماعز .

---

[36] _ وليام شالر ، مصدر سابق ، ص 112 .

[37] _ نفس المصدر ،ص 113

[38] _ إسماعيل العربي ،"صنهاجة وكتابة وغيرها من البربر سكان شمال إفريقيا " الأصالة ، شعبان رمضان 1393 ه / سبتمبر أكتوبر 1973 م ، ص ص 117 .160

وقد يكون البيت أحيانا من الأخشاب والقصب المربوط بعضه البعض ثم يطلى هـذا ناء بخليط من الطين وفضلات البقر لتمنع تسرب الأمطار، كما يزرع فوق السطح نبات عى الديس ولا يزيد طول البيت عن قامة الرجل كثيرا[39].

ينقسم القبائل إلى قبيلتين كبيرتين "فليسة" الذين ينتشرون فيما بين "دلّس" إلى "القل" رقا و"زواوة" الذين ينتشرون في المناطق الوسطى جنوب شرق العاصمة ، ويتشكلون ن حوالي 300 قرية غير خاضعة للضرائب والمطالب المخزنية لتعذر وصول جيش الحكومة ى جبالهم المنيعة . ويخوض القبائل فيما بينهم حربا ضروسا بشكل دائم خاصة فيما بين ذين الفرعين الكبيرين، فيلجأ الضعيف منهما إلى مساندة القوة التركية وهو إجراء تفرح السلطة ولذلك فهي تذكي مثل هذه المشاحنات حتى تحافظ على هذا الوضع وتضمن دم تحالفهما ضدها[40].

ويذكر "شالر" أن الحرب كانت دائمة بين الأتراك والقسم المطل على البحر من لاية قسنطينة الذي يسكنه البربر (وهي مواطن قبائل فليسة) وأنه من شدة عداوتهم للترك تبرون كل أجنبي مهما كان أصله تركيا لا يحل سلبه فقط وإنما وجب قتله .

" وبعد عقد اتفاقيات الصلح بين هذه القبائل والحكومة التركية أصبح كثير من أبنائها يقصدون إلى الجزائر وضواحيها للبحث عن العمل ، وهم يشتغلون رعاة ومزارعين وخدما في المنازل ، وفي الحالة الأخيرة يبدون كثيرا من الذكاء والنشاط والأمانة.[ورغم تشويه الحكومة لهم لدى القناصل فإنهم استطاعوا أن يحسنوا صورتهم في نهاية عهد الدايات] ومنذ مدة لا تزيد عن عشرين سنة ، وهم الآن يستخدمون القبائل في منازلهم ، والأجور التي تدفع إليهم هي في العادة دولارين ونصف دولار في الشهر"[41].

[39] _ حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص65. وانظر كذلك : E . Hatin. op cit. P48

[40] _ V. De Paradis .op cit , PP13 _ 14 .

[41] _ وليم شالر ، مصدر سابق ، ص ص 116 _ 117 .

الزنوج :

غالبية الزنوج الذين يعيشون في المدن الجزائرية هم عبارة عن أقليات مستوردة من الجزائر مثلهم مثل الأتراك والعبيد المسيحيين غير أنهم يتميزون عنهم بأن هذه الأقلية لم تكن مشكّلة مثلهم من العزّاب بل إن عدد النساء الزنجيات كان أحيانا يفوق عدد الذكور

يجلب الزنوج في أغلب الأحيان من السودان أو من ضفاف نهر النيجر ليشتغلوا في أعمال السخرة في المدن الجزائرية لدى العائلات الميسورة ، ويذكر "شالير" أن وضعهم لم يكن يشبه وضع العبيد في أوربا والغرب فهو أقرب إلى الخدمة مقابل الرّعاية أكثر منه إلى العبودية فيقول :

"والزنوج يشكلون جزءا آخر من السكان ، ولو أنه صغير ، فهؤلاء في الأصل من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم من داخل القارة أو من طرابلس ، ولكنهم سرعان ما يحصلون على حريتهم باعتناقهم الإسلام ، وهو عمل قلما يتأخر أحدهم عنه والمعروف أن الرقيق كان دائما هنا من النوع الخفيف وهو أقرب أن يكون نوعاً من العمل في مقابل العناية والحماية منه إلى العبودية"[42]

ونفس الكلام يذكره "بوايي" عن أحوال العبيد الشيء الذي يدفع الكثير منهم إن لم نقل الجميع إلى البقاء في خدمة العائلات المالكة لهم ولا يغادرون مدنهم حتى بعد أن يحصلوا على حرياتهم وهو الأمر الذي كثيرا ما يحدث بل و يصبحون أفرادا من هذه العائلات[43].

وإن كان "بوايي" يجعل لذلك أسبابا وتفسيرات مختلفة إلا أنه لا يعطي لتفسيراته أدلة وبالتالي فلا تعدو أن تكون مجرد تخمينات[44].

يعيش الزنوج الأحرار والذين غادروا عائلات ملاكهم تحت سلطة أمين يعرف بـأمين الوصفات ، ولهذا الأمين نفس صلاحيات أمناء الطبقات الأخرى وكذا أمناء الحرف مع الطبقة التي يمثلها .

[42] _ وليام شالير، مصدر سابق ، ص 92 .

[43] _ P. Boyer. op cit. PP 166 _ 167.

[44] – يرجع بوايي هذا الأمر إلى انبهارهم بحياة المدينة التي لم يألفوها مما جعل محاولات الفرار عندهم قليلة

وتعتبر القصابة أهم وظيفة يمارسها هؤلاء الزنوج وذلـك في قصابـات أسـيادهم قدامى، وأما وقت فراغهم فيقضونه في الترفيه عن أنفسهم بالاستماع إلى موسيقاهم الـتي تزال مشهورة إلى يومنا هذا لدى سكان الصحراء الجزائرية والمعروفة بفرق (قرقـابو) يث يطوف مجموعة من الزنوج يحملون طبولهم وقطعا حديدية يقرعونها محدثين أصواتـا ماعية بالأحياء، فيدخلون عليها نوعا من البهجة والترفيه ويكسرون بذلك روتينها مقابل طع نقدية تتساقط عليهم مكافئة على صنيعهم هذا[45].

[45] _ P. Boyer. op cit. PP 167 _ 168.

اليهود:

قدم اليهود الأوائل إلى الجزائر فارين من التطهير العرقي الحاصل في الأندلس بعد سقوط غرناطة[46] فقد قطعوا البحر بقيادة الحبرين راشباز وبرفات ريباش وقد كانت بدايتهم متواضعة فقد سمح لهم "خير الدين" بالمقام مقابل دفع الجزية على ألا يحق لهم فتح سوى عدد محدود من المحلات الحرفية في الأسواق التي يسكنونها، و لم يكن لهم أي أثر في الحياة السياسية خلال القرن السادس عشر، ويقسمهم "هايدو" إلى ثلاثة أقسام :

ا ــ القادمون من إسبانيا

ب ــ القادمون من جزر البليارد

جـ ــ المقيمون في البلد منذ الجلاء أي سقوط أورشليم في يد الرومان وعددهم (سنة 1550) 150 عائلة و قال إنهم يمارسون مختلف الحرف وخاصة صيارفة و باعة متجولون، أمّا أغنياؤهم فكانوا يحترفون الوساطة في بيع الغنائم وإبرام الصفقات مع تونس والباب العالي، كما كان لهم معبدهم و قاضيهم الخاص، لكنهم كانوا عرضة لبعض المضايقات من قبل الأتراك الذين كانوا يسيئون معاملتهم و يُغرّمونهم لأتفه الأسباب، كما كانوا مجبرين على لبس لباس خاص عادة ما يكون بلون داكن .[47]

و يصفهم الأب "دان" الذي رآهم في سنة 1684 بنفس الوصف، لكن عددهم قد تضاعف بشكل بارز إذ يعدهم عشرة آلاف، ومرد هذه الزيادة إلى ما كان يلاقيه اليهود من العنت في أواسط أوربا[48] ، وعدهم "لوجي دو تاسي" سنة 1725 خمسة عشر ألفاً ، واليهود كما يرى دوتاسي وغيره من المؤرخين ينقسمون إلى قسمين هما:

---

[46]_ H.A de Grammont . Histoire d'Alger sou la domination turque (1515-1830) (Paris : imp Baudin et Cie . 1887) p 233 .

[47]_ F.Diego de Haedo. op cit . P133.

[48]_ De Grammont . op cit . P 233 .

أ/ اليهود الأهاليjuifs indigènes :

الذين عانوا من سوء معاملة الأتراك والذين كانوا يمارسون مهناً وتجارة بسيطة ويعيشون في مخيمات في نواحي المدينة ولا يسمح لهم بالسكن خارجها ولا بلبس ما يحلو لهم من اللّباس كما هو الحال مع يهود أوربا، أما نساؤهم فلا شرط على لباسهن غير وجوب كشف الوجه للتّميز عن المسلمات، وكانوا يعاقبون أشد العقاب أمام أي هفوة في احترام هذا القانون، وهؤلاء هم الأغلبية .

ب/ اليهود الفرنكjuifs Francs :

وهم القادمون من إيطاليا خاصة من ليفورن حيث سمح لهم دوقات توسكانيا من إقامة عنابر للعبيد و البضائع القادمة من الجزائر و قد وفرت لهم الحماية التّي يعطيها حكام هذه المقاطعات لمثل هذه التجارة من جمع مبالغ لا بأس بها، و قد استمرت العلاقات بين يهود ليفورن و يهود الجزائر الّذين كانوا يشترون لفائدة بني عمومتهم كلّ البضائع التي كان يصعب بيعها أو تحرم في بلاد المسلمين، و لاحقاً جاء هؤلاء اليهود الليفورنيون ليستقرّوا بأنفسهم في الجزائر حيث جمعوا أموالاً طائلة ثمّ حملت مشاكل الدايات المالية إليهم حق احتكار تجارة الصوف و الجلود والشمع ؛كما حملت لهم أصولهم حق التحاكم أمام قناصلهم والاستفادة من امتيازات دولهم باعتبارهم رعايا أجانب .[49]

لقد كانت ميزانية الدولة عند مجيء موعد دفع الأجور تعاني دائماً عجزاً قد يصل إلى 50000 قطعة ذهبية piastres وكانت الدولة تعوضه ببعض الإتاوات التي تفرضها على الدول الصغيرة مثل السويد ، الدانمارك ، هولندا ، توسكانيا والبندقية وغيرها ... لكن هذه الفوائد لم تكن تصل إلاّ في فترات غير منتظمة و هو ما لم يكن اليولداش لينتظروه، ولذلك فقد اعتمد الدايات على الأموال اليهودية فأصبحوا في البداية يمثلون بنوك الدايات ثمّ وسطاءهم السياسيين ثمّ مستشاريهم و أخيراً وزراءهم . ويعتبر التطور السريع لدور الأقلية اليهودية في الجزائر من الصفحات الغامضة وغير المعروفة في تاريخ مدينة الجزائر ومعها الأيالة كاملة .[50]

[49] _ Laugier De Tassy . op cit . pp 55 _ 57 .

[50] _ De Grammont . op cit pp 232 _ 233 .

كانت الطائفة اليهودية ترتدي إلى جانب ألبستها الخاصة الداكنة اللون مختلف الأزياء الجزائرية التي سادت في المجتمع بالمدن و الأرياف إلاّ أنّه وجدت بعض الاختلافات الطفيفة فيما بين اليهود أنفسهم تبعاً لأصولهم فالميغوريشم وهم يهود الأندلس كانوا يغطون رؤوسهم بقبعات غريبة عن الجزائر أمّا اليهود الأتراك و الليفورنيون فيلبسون حسب المناطق التي جاءوا منها بل حتى المرأة اليهودية لبست نفس ما تلبس المرأة الجزائرية المسلمة من فوطة و وشاح لستر شعر الرأس رغم أنّ الدّيانة اليهودية لا تفرض ذلك عليها ،ولم تتميّز عن المرأة الجزائرية إلاّ بحريتها في الخروج من البيت . أمّا الزعم أنّ لباسهم كان إجباريا فهو زعم خاطئ تكذّبه حريّتهم في لبس أنواع مختلفة من الألبسة دون أن يتعرّضوا لأيّ عقاب .[51]

غير أنه ومع نهاية عهد الدايات عرفت الأقلية اليهودية وضعا صعبا جعل "شالير" يعتبر الطائفة اليهودية في الجزائر واحدة من الطوائف اليهودية الأقل حظوظا وثروة في العالم[52]وذلك بخلاف ما كان عليه الوضع فيما سبق من عهود إذ يذكر "بوايي" أن المهاجرين اليهود من إسبانيا استقبلوا بشكل حسن من قبل حكام وشعب المغرب الأوسط واندمجوا في المجتمع بكل سهولة، فقد اعتُبروا من أهل الذمة كما ينص على ذلك الدين الإسلامي.[53]

[51] _ فوزي سعد الله ، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون (الجزائر: دار الأمة، 1996)،ص 134.

[52] _ شالير ، مصدر سابق ، ص 91 .

[53] _ P Boyer . op cit . p 170 .

المسيحيون :

المسيحيون في الجزائر قسمان ، قسم يمثله قناصل الدول التي تجمعها بالجزائر معاهدة وعائلاتهم و كذا بعض التجار و وكلاء الشركات الأوربية الكبرى ، أما القسم الثاني ويمثل الجزء الأكبر منهم فهم الأسرى الذين تحملهم سفن البحرية الجزائرية أو يقعون أسرى حين انهزام جيوشهم على أرض الجزائر .

ا ــ الأسرى :

يذكر "يحيى بو عزيز" أن عدد الأسرى كان منتصف القرن 17 أكثر من 36 ألفا وأن هذا العدد سرعان ما تناقص فوصل إلى ألفي أسير مع نهاية القرن 18 إلا أنه يستدرك بأن عددهم في عهد الداي محمد عثمان باشا (1766 ــ 1791) كان 24 ألفا حسب رواية أحمد الشريف الزهار في مذكراته[54].

و الظاهر أن الأمر اختلف عليه إذ إنه بالرجوع إلى مذكرات أحمد الشريف الزهار نجد أنّ مجموع ما غنم أحد قباطنة البحر هو 24 ألفا من الأسرى و ليس أنّ مجموع الأسرى في عهد هذا الداي هو 24 ألفاً [55].

أمّا "وليم سبنسر" فقد أورد جدولا منفصلا في سنوات مختلفة توضح لنا تطور عدد الأسرى سلباً و إيجاباً إذ يقول:

" تمكن البحارة الجزائريون من أسر الآلاف من الرّجال و النّساء و الأطفال فمن سنة 1556 أسر الجزائريون 28 مركباً في مالقا و50 أمام جبل طارق و على الرّغم من الحالة التي صور بها كثير من المؤلفين معاناة هؤلاء الأسرى المسيحيين تحت ظلم وفظاعة أسواق النخاسة في الجزائر إلاّ أنّ الوقائع التاريخية تؤكد عكس ما قيل فقد أورد القنصل شالير أن قرصنة الأفراد ألغيت في الستينات من القرن 18 و أن الأسرى بعد هذا التاريخ كانوا يعتبرون عبيدا للدولة وأنه حتى قبل هذا التاريخ كانت سلطات الأيالة تحميهم من الأذى و من سوء معاملة الأفراد و أن حالتهم لم تكن أسوء من حالة أسرى الحرب الذين يقعون في يد إحدى الدول المسالمة المتحضرة [على حد قوله] وأنّ النّساء الأسيرات كنّ يعاملن بالاحترام الذي يفرضه جنسهن..."[56].

---

54 ــ يحي بو عزيز ، مرجع سابق،ص 444 .

55 ــ الشريف الزهار ، مصدر سابق ، ص ص 21 ــ22 .

56 ــ وليام شالير مصدر سابق ،ص 99 .

وإذا كان "كاثكارت"[57] يصف معاناة الأسرى في السجون وسوء معاملة بعض الحراس لهم فإن ذلك لا يعدوا حدود الطبيعة ، وأما حالة اليأس والقنوط التي تصيب بعضهم فتدفع بهم إلى حافة الانتحار كما يقول فمردها إلى حب النفس البشرية للحرية وإلى تناسي دولهم لهم وعزوف ملوكهم عن دفع فديتهم كما يقول شالير:

" ... و أشدّ أنواع البؤس والشّقاء الذّي يعاني منه العبيد المسيحيين في الجزائر هو برود حكومة بلده و جبنها إزاء حالتهم بحيث إنها تحرمهم حتّى من الأمل في الفدية يوماً ما"[58] .

و يعلق عما أشيع حول أسواق النخاسة و الفضائع التي تحدث بها و تحدث ضجة كبيرة في العالم أنّها كلّها اتهامات لا أساس لها من الصّحة، فهم

"... لم يكونوا مطالبين بأشغال مفرطة المشقّة و إذا وجد أحدهم من يضمن عدم هروبه فإنه يسمح له بالخروج بحرية و ممارسة أيّ عمل قد يصل أحياناً إلى مناصب عليا تدر عليه أرباحا طائلة ممّا يجعلهم يغادرون الجزائر و قلوب الكثيرين منهم مفعمة بالأسى و الحسرة ويأخذون معهم بعد دفع فديتهم أو مبادلتهم بأسرى جزائريين كلّ المال الذّي جمعوه أثناء عملهم بالجزائر . و إن حدث و وقع أحدهم في نزوات أو بعض المعاملة السيئة من حارسه فإنّ ذلك لا يخرج عن القانون الكوني العام الذّي يفرضه وضع الأسر والعبودية"[59]

كما يرى "بلحميسي" أنّه :

" في عهد الداي مصطفى باشا (1798 _ 1805) كان هناك مئات من الرياس من أصل مسيحي يعملون في البحرية الجزائرية "[60]

و هذا دليل على تسامح الجزائر كدولة، والإسلام كدين لا يفرّق بين المسلمين فيما بينهم و يجعلهم سواء بمجرد اعتناقهم للدين الإسلامي بصرف النظر عن أصولهم

---

57 _ ج.ل. كاثكارت ،مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا ،تحقيق إسماعيل العربي (الجزائر :ديوان المطبوعات الجامعية 1982) ، ص110 .

58 _ نفس المصدر ، ص 101 .

59 _ وليام شالير ،مصدر سابق ، ص 99 .

60 _ M Belhamissi . Histoir de la marine Algerienne . : : :

العرقية ، فقد كان الريّاس من أجناس مختلفة وكان شرط قبولهم في سلك البحرية هو اعتناق الإسلام وكان يطلق عليهم اسم الأعلاج أو العلوج.

القناصل والتّجار :

يمثّل القناصل والتّجار جل المسيحيين غير الأسرى و هم في الغالب أقلية ، فالتجارة لم تكن بأحجام كبيرة و لم يترك اليهود أيّ مجال لغيرهم و في أيّ قطاع يمكن أن يدر أرباحا[61].

ولكن ذلك لم يمنع وجود تجمعات مسيحية بالمدن الساحلية التي كانت تتعامل عن طريق موانئها مع التجار الأجانب . وشكل هؤلاء الوكلاء والقناصل مجتمعا خاصا بهم . عاش في كنف التسامح الإسلامي حياة بذخ جعل "شالير" يعلق عليه قائلا:

" وإذا شاء القدر ودعتني (كذا) لشغل منصب غير المنصب الذي أشغله حاليا في الجزائر،فسأحزن مدى الحياة لفقد ما أجده من لطف الكرم وسحر العشرة الطبيعية"[62].

ويمكن اعتبار رجال الدين جزءا من هذه المجموعة إذ هم المسؤولون عن إعادة شراء الأسرى وافتداؤهم وهو واحد من أهم النشاطات التجارية آنذاك .

والدور الأساسي الذي يقوم به هؤلاء القناصل ليس بالدرجة الأولى حماية رعايا دولهم أو المبادلات التجارية بين بلادهم وبين الجزائر وإنما حماية المصالح البحرية وسلامة أساطيلهم في البحر الأبيض، ولذلك فإن الدول البحرية الكبرى كانت دائمة التمثيل في الجزائر، وغالبا ما كان قناصلها يتكفلون برعاية مصالح الدول الصغرى التي لا يصل نشاطها البحري إلى درجة اتخاذ قنصل لها في الجزائر، إلا ما كان من أمر النمسا وروسيا فإن هاتين الدولتين رغم نشاطهما البحري الواسع لم تكونا بحاجة إلى اتخاذ قنصل لأنهما كانتا تتعاملان مع الباب العالي رأسا في حالة وقوع أي خلاف مع الجزائر، وهو ما جعل سفن هاتين الدولتين تحترم من الجزائريين من دون أن تكونا مضطرتين إلى دفع أي ضريبة[63].

---

61 _ Laugier De Tassy . op cit p61 .

62 _ شالير ، مصدر سابق ، ص 106.

63 _ P. Boyer . op cit . p p 253 _ 254 .

الطبقات الاجتماعية بالريف:

لقد ظل الريف الجزائري إبان الفترة العثمانية يكتنفه الإهمال إذ لا تكاد تجد موضوع بحث يفرده بالدراسة بل و حتى الدراسات التي تعرج عليه غالبا ما يحيط بها الغموض و لا تكاد تشفي غليلا ، فجل الدراسات عن الجزائر العثمانية تركز على العاصمة لوفرة المادة العلمية حولها وحول أهم المدن مثل قسنطينة و تلمسان و وهران و عنابة ، أما الريف فلا نجد له إلا نتفا هنا وهناك ، رغم أن نسبة سكان المدينة إلى سكان الريف قليلة جدا إذ لا يمثل سكان المدن إلا نسبة 6% ، بينما سكان الريف يمثلون 94% من مجموع السكان[64].

و يمكن تصنيف سكان الريف من حيث نوعية نشاطهم الاقتصادي إلى سكان سهول يشتغلون بزراعة الحبوب أو سكان جبال يشتغلون في البساتين و غراسة الأشجار المثمرة أو أُجراء في فحوص المدن أو خماسة لدى ملاك الأراضي أو رعاة ينتشرون في السهوب أو رحلا يجوبون الصحراء يطاردون الكلأ لأنعامهم أو يتاجرون مع أيالة تونس و مملكة فاس[65]، غير أن هذا التقسيم لا يمكن أن يوضح لنا الحياة الاجتماعية في الريف الجزائري في ذلك العهد كما يوضحها التقسيم المبني على أساس علاقة هذه الأقسام أو الطبقات مع السلطة التركية الحاكمة أو بصورة أوضح على أساس المطالب المالية و الضريبية والخدماتية تجاه هذه السلطة، وسكان الأرياف بهذا الاعتبار إما قبائل متعاونة مع الأتراك تقدم للبايليك خدمات معينة مقابل حظوتها بامتيازات محددة، و إما قبائل متحالفة تؤخذ منها اللزمة، و يطلب منها تقديم المعونة للبايليك و لقاء ذلك تقدم الحكومة الخلع و الهدايا والترضيات لشيوخها و مرابطيها، و إما قبائل ممتنعة عن سلطة البايليك متحصنة عن سطوة محلاتها بمواقعها الجبلية، و إما قبائل الرعية الخاضعة لجميع المطالب المخزنية .

إن العلاقة الاجتماعية بين هذه الطبقات فيما بينها و بين البايليك هي التي تمثل القاعدة الأساسية التي تفسر التطور السياسي للجزائر العثمانية كما يفسر جملة من التحولات العامة بالأيالة خاصة في المرحلة الأخيرة من العهد العثماني .

64_ ناصر الدين سعيدوني ،دراسات وأبحاث مرجع سابق ، ص 97.

65 Laugier de Tassy. op cit.. p53

1_قبائل المخزن :

تعتبر قبائل المخزن طبقة اجتماعية ريفية ذات صبغة فلاحية عسكرية و إدارية كانت تشكل حلقة الوصل بين الحاكم و المحكوم و أبقت الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية متماسكة بالريف الجزائري[66].

"وقبائل المخزن لا تعود في أصولها إلى مصدر واحد بل هي تجمعات سكانية ذات تكوين اصطناعي فمنهم العبيد و منهم الكراغلة و عرب الصحراء كما أن منهم من أقره الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها ،لتكون سندا لهم و منها من أعطيت لها الأرض لتستقر عليها و منها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين في جهات مختلفة ليؤلف جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية.[67]"

"و كما أن أصل هذه القبائل لا يخضع لأصل واحد فإن تنظيمها أيضا لا يعرف قاعدة واحدة متبعة بل بحسب ظروف كل منطقة و كل قبيلة المهم بالنسبة للحكومة هو أن تؤدي في النهاية نفس الدور المنشود منها و هو سلامة طرق المواصلات ، مراقبة القبائل الممتنعة عن سلطة البايليك و كذا جمع الضرائب المترتبة على قبائل الرعية.[68]"

و بحكم أن هذه القبائل تشكلت بصفة غير طبيعية فإنها لم يعد يربطها بأصولها القديمة و مواطنها الأصلية إلا ما علق بتسمياتها مثل قبائل الصحاري التي علق اسم موطنها الأصلي باسمها الجديد، و كذا قبائل العبيد التي يعود اسمها إلى أصولها العرقية و غيرها.

هذا في حين استمدت الغالبية الكبرى من القبائل المخزنية أسماءها من مواطنها الجديدة أو من نوعية السلاح الذي تستعمله أو من الوظائف و المهام الإدارية التي تمارسها ، فالزواتنة عرفوا بهذا الاسم لأنهم سكنوا بجوار واد الزيتون[69] رغم كونهم كراغلة في الأصل أما المكاحلية فعرفوا بهذا الاسم تبعا لنوع السلاح الذي يستعمله فرسانهم، أما قبائل الدوائر فأسماؤهم راجعة إلى طبيعة مهامهم و الحيز الإداري الذي سكنوه[70]، أما الزمالة

66_ ناصر الدين سعيدوني،دراسات وأبحاث ، مرجع سابق ،ص84.

67_ نفس المرجع ص 98 .

68_ A M Boudia. op cit. p 336

69_ يقع واد الزيتون على الضفة اليسرى لواد يسر جنوب شرق الجزائر العاصمة بين قبيلتي الخشنة وبني جعاد انظر : ناصر الدين سعيدوني ، دراسات و أبحاث ، مرجع سابق ، ص 98 .

70_ نفس المرجع ، ص 98 .

فهم قبائل مشردة من مواطنها الأصلية تجمعت في الحدود الجزائرية فسمح لهم الدايات بالبقاء هناك لقاء تقديمهم خدمات عسكرية بتدعيم المحلات ببعض الجنود والخيول عند الحاجة كماتقوم الدولة بحمايتهم ممن يلاحقهم[71]

لقد عمل الأتراك على الإبقاء على تقاليد الولاء نفسها التي ورثوها عمن سبقهم من الحفصيين و الزيانيين وتبعا لنفس التقاليد عملت قبائل المخزن، و ذلك لأهميتها في استخلاص الضرائب و معاقبة الخارجين عن القانون، و مع تقدم الزمن ازدادت صلاحيات هذه القبائل فأصبحت تشارك في كل الحملات التي تشنها محلات الحكومة المتوجهة من العاصمة أو في محلات التي يوجهها كل باي بايليكه بل و أصبحت قيمة كل باي تقدر بمدى سطوة و قوة مخزنه، و من ذلك ما أورده "مسلم بن عبد القادر" معلقا على أمر الداي لباي الغرب بمهاجمة إحدى القبائل المتمردة على طاعة آغا الجزائر رغم أن هذه القبيلة وهي "عريب" لم تكن تابعة لبايليكه إذ يقول :

" ... و عريب هو حي كبير من أحياء الأعراب البادية رعية آغة الجزائر ووطنه ما بين حمزة والدهوص و منه الحد بين رعية باي قسنطينة و بين باي المدية و كان مسار لشيخه بعض التقي على متولي أمره[72] فاعلم به الباشا ظهر له رأيه أنه لا يفيد في ذلك إلا الباي محمد و مخزنه لما يعرفه فيهم من الشجاعة و النجدة فبعث إلى الباي بالغزو عليه أمر لا يتصور في العقل لبعد المكان و عدم تصرف باي الغرب في غير رعيته لأنه بينه و بين هذا الحي رعية باي المدية فنهض الباي من ساعته و كان صاحب حزم وعزم ..."[73]

وازداد اعتماد البايليك على قبائل المخزن بعدما برهنت على كفاءاتها الميدانية في مواجهة القبائل الممتنعة عن سلطة البايليك وفي تغطية العجز العددي للجند التركي، ففرق الأوجاق لم تكن تتجاوز في حالات السلم 4000 جندي بينما لم تكن تبلغ في أقصى اتساع

---

71 _ محمد بن ميمون الجزائري , التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية , تقديم و تحقيق د/ محمد بن عبد الكريم ، ط2 ، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1981) ، ص39.

72 _ في العبارات المستعملة أخطاء و ركاكة في الأسلوب و الظاهر أنها عامية .

73 _ مسلم بن عبد القادر ، أنيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بو نار ، (الجزائر : الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ،1974) ص 99 .

لها 12000 جندي[74] وهو عدد قليل يصعب عليه القيام بأعباء ثقيلة كالتي قامت بها قبائل المخزن والتي كان باستطاعتها أن توفر للبايليك ساعة الضرورة ما يقارب 30000 مقاتل بين فارس وراجل[75] وبالتالي فإن دور هذه القبائل لم يعد مقتصرا على المشاركة في المحلات ودعم الجيش التركي كما كان الحال في السابق وإنما أصبحت يد السلطة التي تؤمن بها تدعيم إجراءاتها الإدارية والحربية التي كانت التحولات السياسية قد فرضتها في هذا العهد وبالتالي أصبحت سلطة الدولة تقاس بمدى نشاط هذه القبائل خاصة وأن هذه القبائل تقدم خدماتها للبايليك من غير أن تحمله أعباءا مالية كالتي تفرضها فرق الأوجاق من رواتب وامتيازات ترتفع بارتفاع عدد الجند فتنقص من ثروة الأيالة وبالتالي من ثروات الأتراك أنفسهم[76].

وبفضل هذه القبائل استطاع الأتراك بسط نفوذهم على جهات واسعة من الأيالة من غير أن يضطروا إلى تسيير الجيوش إليها و يحافظوا على الحاميات بالقرب من المناطق الإستراتيجية و الحساسة كالأسواق العامة و الحصون و طرق المواصلات و السهول الخصبة ، كما ساعد تواجد هذه القبائل في هذه المناطق الحساسة على إبعاد خطر القبائل الممتنعة و الحد من عصيانها و تهديدها للسهول الخصبة و قطعها للطريق أمام انسياب التجارة كما كان الحال قبل تواجد العثمانيين وبالتالي فإن دور قبائل المخزن كان أساسيا في توفير الأمن و حماية الاقتصاد الوطني للأيالة ، الأمر الذي جعل هذه القبائل تحظى بوضعية اجتماعية خاصة ومميزة في هرم الطبقات الاجتماعية بالريف الجزائري إذ تواجد العنصر التركي بالريف يكاد يكون منعدما بخلاف المدن ومنه فإن هذه القبائل كانت تمثل قمة الهرم الاجتماعي وبديلا عن العنصر الحاكم في غيابه. وعلى هذا الأساس أصبحت هذه القبائل في وضع اجتماعي يشبه وضع الإقطاعيين في أوربا غير أن الأراضي التي كانت تستغلها لم تكن ملكا مطلقا لها تباع و تشترى و إنما كان لها حق استغلالها فقط كونها

---

[74] _ Laugier de Tassy. opcit. p125.

[75] _ سعيدوني ناصر الدين ، "دراسات وأبحاث..." ، مرجع سابق ، ص 101 .

[76] _ نفس المرجع ، ص 102 .

تابعة للدولة و بالتالي فمن حق البايليك استعادة هذه الأرض و طرد القبائل التي تستغلها أو تحويلها إلى غيرها[77].

و حتى يسهل على البايليك عملية مراقبة هذه القبائل كانت تتعامل معها عن طريق قادة فرسانها و الذين يستلمون من البايليك حق الانتفاع بالأرض المخصصة لرجالهم والتي تكبر أو تصغر تبعا لعدد الرجال القادرين على تأدية واجبهم تجاه البايليك و الذين يفقدون حق استغلالها في حالة عزوفهم عن تأدية هذه الواجبات غير أنه وفي حالة الوفاة يحق لهم نقل ملكيتها إلى الابن الأكبر أو أي فرد من الأسرة يكون على رأسها ، ويحق لأي فرد من هذه القبائل بعدما يرشحه شيخ الدوار أو قائد الفرسان أن يتقدم إلى البايليك فيسجله الكتّاب في سجل خاص بهذه الأراضي يعرف بدفتر المشاتي ومن ثمة يحق له الانتفاع بها ولا يطلب منه إلا تقديم خدماته في الوقت المناسب [78].

و إذا لم يكن لقبائل المخزن حق تملك هذه الأرض و الاكتفاء بالاستفادة منها في بداية الأمر فإن التطورات السياسية في البلاد سارت في صالح هذه القبائل إذ ازدادت حاجة الدايات و باياتهم إلى هذه القبائل بعد انعدام الأمن و كثرة الثورات .

"هذه الحاجة المتزايدة جعلت البايات يخرقون العرف تحت ضغط الحاجة الملحة إلى استرضائها و يعترفون لبعض القبائل بحق الملكية التامة على الأراضي التي تقيم عليها مقابل أموال ضخمة كانت الخزينة في أمس الحاجة إليها في وقت شحت فيه المداخيل بعد تقلص دور القرصنة في البحر المتوسط ونقص الإنتاج الزراعي لكثرة الثورات[79].

---

[77] ـ سعيدوني ناصر الدين ،" دراسات و أبحاث ... " ، مرجع سابق ، ص114.

[78] ـ نفس المرجع ، ص ص 114ـ 115.

[79] ـ نفس المرجع ،ص 115.

2 _ القبائل المتحالفة:

تميزت هذه القبائل بعلاقتها الحسنة مع البايليك و ذلك عن طريق شيوخها و كبرائها و تقدم هذه القبائل بمجموعة من الخدمات و المطالب المخزنية يتكفل بجمعها هؤلاء الشيوخ الذين تسعى السلطة الحاكمة إلى التقرب المستمر منهم بإسقاط هذه المطالب عنهم و تقديم بعض الهدايا و الترضيات و إصدار فرمانات التعيين لهم و لأبنائهم من بعدهم ومقابل ذلك يحرص هؤلاء الشيوخ على جمع الضرائب من المناطق التابعة لسلطاتهم وحماية المسالك و الطرق المارة بأراضيهم من القطاع و اللصوص [80].

بالتالي فإنّ هؤلاء الشيوخ و عائلاتهم كانت بمثابة السلطة المحلية أو الواسطة بين الحكام و المجموعات القبلية التي يصعب السيطرة عليها و إخضاعها لكل المطالب المخزنية، فقد برزت عائلات وأسر لعبت دورا قياديا داخل القبائل والعروش التي تنتمي إليها [81].

و غالباً ما يستمد هؤلاء الشيوخ سلطتهم من أصولهم العرقية كما هو الحال مع "الأشراف" بجبال البابور وجرجرة ووادي الصومام أو كفاءتهم الحربية و قوة بأسهم كما هو الحال مع قبائل الأجناد بالتيطري و كذا بني عباس و الحراكتة بالهضاب العليا القسنطينية أو الطابع الروحي الديني بالمناطق الغربية حيث حكمت عائلات المرابطين [82].

و قد كان الأتراك يشجعون تناحر هذه القبائل المتحالفة حتى لا يستقر حالها فتقوى إحداها على حساب الأخريات وقد تدعو إلى التملص من سلطة الأتراك أو الثورة عليهم صراحة و لذلك فكثيراً ما زالت قبائل بكاملها و تحولت إلى قبائل رعية و فقدت بالتالي امتيازاتها لصالح قبيلة أخرى كما حدث لقبائل عريب بعد وفاة شيخها و مرابطها سيدي هجرس فاضطرت إلى إعطاء الولاء لسيدي أحمد المقراني الذي كان يحكم قبائل مجانة واستطاع أن يضم منطقة الحضنة التي كانت لقبائل عريب إلى سلطته غير أنّ صراعهم

---

80 _ سعيدوني و بوعبدلي ، تاريخ الجزائر ،مرجع سابق ، ص 109 .

81 _ ابراهيم مهديد ، "الأرسطوقراطية التقليديةالوهرانية خلال القرن19 والرأسمالية الاستعمارية:إشكالية الاندماج الاجتماعي" إنسانيات ،عدد4 جانفي_أفريل 1998 ،ص 78.

82 _ نفس المرجع ، ص 108 .

على مناطق النفوذ مع قبائل متحالفة أخرى هي قبائل الجواب (أولاد عبـــد الله و أولاد علي بن داود) دفع بهم إلى الجلاء نهائياً عن المنطقة و التفرق في الأوطان [83].

لكن قبائل عريب و لبأسها لم تتحول إلى قبائل رعية بل ساعدت البايليك في صراعــه مع خصومها السابقين قبائل الجواب فأقطعهم البايليك وطن حمزة و ضمـــهم إلى قبـــائل المخزن فأسقط عنهم بعض الضرائب و موّنهم بالسلاح [84] و هو الأسلوب الـــذي يتبعـــه البايليك غالباً مع القبائل ذات البأس الشديد خاصة القبائل الممتنعة التي يعجز عن جرهــــا للطاعة .

و في المناطق الشرقية من البلاد استطاع شيوخ هذه القبائل ضم منـــاطق واســـعة إلى نفوذهم فقويت شوكتهم حتى خاف منهم البايات فاهتدى الدايات إلى خلـــق التنـــافس بينهم والدس لهم، فتناحرت القبائل على الرياسة و الحظوة لدى السلطات و قويت نزعـــة التعصب بينهم حتى تقاتلوا و كثرت الفتن بينهم وكثيراً ما تدخل العلمــــاء و المرابطـــون لفض هذه النزاعات، إذ يذكر "الورتلاني" في رحلته أنّه تدخل للإصلاح بين هذه القبـــائل غير ما مرة [85].

أما في جنوب البلاد فيذكر "حمدان خوجة" أنّ البايات يسعون إلى ربــــط علاقـــات مصاهرة مع شيوخ هذه القبائل ليضمن استمرار هذا التحالف . و يضـــع البـــاي تحـــت تصرف أحد الشيوخ بعد تعيينه

" ... عشرين خيمة من الجنود الأتراك و أعلاماً و جوقة موسيقى عسكرية ويكون هذا الشيخ كالملك بالنسبة لسكان الصحراء ... "[86]

و يؤكد هذه السلطة التي يمتلكها شيوخ هذه القبائل "أوجين هاتين" في معرض حديثه عن البدو إذ يرى أنّ للبدو نظام حكمهم الخاص الذي هو في نفس الوقت نظام جمـــهوري أرستقراطي استبدادي فهو جمهوري لأنّ للمحكومين تأثيراً أولياً في كل القضايا و أنّـــه لا يمكن أنّ يحدث أيّ أمر أو يؤخذ أيّ قرار من دون موافقة الأغلبية ؛ و هو أرستقراطي لأنّ

83 _ Ber brugger, « Les Aribs» . in Revue africainne T 08 (Alger :ed Bastide . 1864) P 379 .

84 _ Berbrugger, op cit p379.

85 _ مختار بن الطاهر فيلالي ، رحلة الورتلاني ، عرض و دراسة ،(باتنة: دار الشهاب ، بدون ت) ، ص ص 99 _100.

86 _ حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص 76 .

عائلات الشيوخ تمتاز ببعض الصلاحيات التي تمنحها القوة عادة ؛وهـــو اســـتبدادي لأنّ للشيخ سلطة واسعة جدا بل و مطلقة أحياناً ، و لكن لهذا الإطلاق حـــدود في حـــالات استثنائية . فإذا قام أحد الشيوخ بمظلمة ما فإنّه لا ينجو من تبعاتها مهما كانت ســـلطته ، فالقتل لا تسقطه عنه غير الدية أو الثأر إن لم يدفعها و كذا إذا أثقل كاهل القبيلـــة فـــإنّ سكانها يهجرونه إلى قبيلة أخرى .[87]

غير أنّ هذه القبائل المتحالفة قد تحاول التملص من كل سلطة للبايليك عليها إذا رأت فيه ضعفاً كما أنّ البايليك إذا رأى فيها ضعفاً أو وهناً أو وجد في نفسه القـــدرة علـــى تحويلها إلى قبائل رعية خاضعة لكل الضرائب فإنّه لن يدخر في سبيل ذلك جهداً ،فقـــد اعترف أهل الأغواط لباي الغرب محمد الكبير بالسلطة عليهم و فرضوا علـــى أنفســـهم فروضاً مغرية لكنه حين فطن إلى أن هذه الفروض أعطوها على أساس الحلف بحيـــث لا تكون عليهم بصفة دورية كل عام بعث إليهم من يوضح لهم ذلك، أيّ أنّهم قبائل رعيـــة وجب عليهم دفع اللزمة سنوياً، فلمّا لم يقبلوا ذلك سار بجيوشـــه إليـــهم و حـــاصرهم واضطرهم بعدما هزمهم إلى قبول الوضع الجديد و تبعاته .[88]

[87] _ Hatin. E. op cit. pp 38 _ 39.

[88] _ أحمد بن هطال ، رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري ، تحقيق و تقديم محمد بن عبد الكريم ، (بيروت: عالم الكتب ، بدون ت) ص 53 .

3 _قبائل الرعية:

تمثل هذه القبائل قاعدة الهرم الاجتماعي في الجزائر العثمانية و بالتالي فهي القبائل الخاضعة لجميع المطالب المخزنية و الفروض الضريبية ، ولقد عاش أفراد هذه الطبقة فروقا طبقية كبيرة ففي الوقت الذي يقوم على أكتافهم كل الجهد الفلاحي فإنهم لا ينعمون إلا بالنزر اليسير الذي يعادل خمس الإنتاج فقط .

و بالرغم من أن دخل هذه القبائل كان محدودا جدا إلا أنها كانت خاضعة لجملة من الضرائب كما سبق الذكر والتي أعفيت منها قبائل المخزن والقبائل الحليفة كما أن هذه الضرائب الإضافية لم تبق كما كانت في العهود السابقة مقتصرة على الخراج[89] زيادة على العشور و الزكاة الشرعية بل إنها تطورت وشملت مجموعة من الالتزامات المالية الثقيلة كالغرامة والمونة و اللزمة وغيرها من التسميات المختلفة .[90]

ومما يزيد في عنت هذه القبائل أن هذه الضرائب لم تكن تؤخذ منهم من أصل منتوجاتهم وإنما تؤخذ نقدا مما يضطر هذه القبائل إلى بيع محاصيلها بأثمان بخس للحصول على النقود اللازمة لمواجهة هذه الضرائب ويصف حمدان خوجة هذه المسألة قائلا :

" وقبل تسليم الخمس لهؤلاء العمال و ذلك عادة أثناء جمع المحاصيل ، فإن قائد الدوار يخصم كل ما عليهم من ديون و تسبيقات ، ولا يعطى لهم إلا ما تبقى ، وعلى إثر التقسيم يذهب العامل إلى السوق لبيع محصولاته وبما أن الغلل تجمع في نفس الوقت تقريبا فإن الحبوب تكون رخيصة في فترة معينة من العام..."[91]

وهو ما يزيد في استتراف طاقات هذه القبائل ومواردها ويزيد الهوة بينها وبين باقي طبقات الهرم الاجتماعي ، غير أن وفرة الإنتاج جعل هذا النزر اليسير المتبقي لهذه القبائل يفي بغرضها و يجعلها قانعة راضية بوضعها خاصة في العهود الأولى وفي عهود الدايات والبايات الأقوياء الذين عرفت البلاد في عهدهم رخاءاً ملحوظاً ومداخيل بحرية كبيرة

89_ Y. Lacoste. A. Nouschi.et A. Prenant, L'Algérie passe et présent (Paris : éditions Sociales, 1960) p 153 .

90_ ناصر الدين سعيدوني ، " دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالجزائر " ، الأصالة ، ربيع 2 1396 هـ / أبريل 1976م ص 54 .

91_ حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص 73 .

جعلت المطالب المخزنية تقل بل و تسقط نهائيا في ظروف استثنائية كالمجاعات و الأوبئة وحال الحرب، كما هو الحال مع الباي محمد بن عثمان في حربه لفتح وهران إذ يروي "ابن سحنون الراشدي" أنه حين قرر وضع الرباط حول وهران :

"... نادى في رعيته من ارتحل إليه سقطت عنه المطالب المخزنية و بقي محترما موقرا، فاجتمعت فيه أمة من الناس من كل ناحية بأموالهم وأولادهم فترلوا فيما بين سيدي معروف و البريدية إلى عين " تانسالمت" فقام لهم بكفايتهم من العدة والخيل وغيرهما و أباح لهم الحرث في تلك الجهة فكانوا يحرثون إلى قرب البلد الوهرانية وجعل عليهم قوادا يقومون بأمرهم وكان يبعث لهم في كل شتاء وصيف ما يعمهم به من وافر سيبه مما كانت الأمراء قبله لا تسمح بعشره مرة في العمر فضلا عن مرتين في السنة ويوجه لهم مع ذلك من يقسمه بينهم من خواص العلماء ... "[92]

ومما يلاحظ أيضا على هذه المسألة أن كثيرا من القبائل كانت تسعى بنفسها إلى البايليك وتعرض تبعيتها له و تفرض على نفسها المطالب و الفروض المخزنية التي في مقدورها الوفاء بها ، و يذكر "ابن هطال" واصفا رحلة باي الغرب إلى الجنوب الجزائري لتأديب بعض القبائل العاصية كيف كانت ترد عليه وفود بعض القبائل في الطريق عارضة ولاءها وتبعيتها إذ يقول :

" ... وقد كان ورد عليه أهل تاجموت و أهل عين ماضي بعلمائهم وكبرائهم يريدون خدمته كآحاد الرعية ويلزمون أنفسهم بشيء يرتضاه حتى تأتي على جميعهم المنية فقسط لكل واحدة منهما قسطا معتبرا يعطونه في كل عام إلى آخر الدهر"[93]

و ما يستوجب الملاحظة هو أنّ هذه الفروض والضرائب التي تقدمها قبائل الرعية لم تكن في الأصل مغارم تؤخذ قهراً إنّما تقدّم للبايليك في سبيل أن يمنح هذا البايليك حمايته لهذه القبائل و يوفر لها الأمان من هجمات الأعراب و يسمح لها بالرعي و الفلاحة في الأراضي التابعة لسلطته، و هناك دلائل كثيرة على ذلك منها ما أورده "حمدان خوجة"

[92] _ ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي ،(قسنطينة : مطبعة البعث ، 1973) ص 198 .

[93] _ أحمد بن هطال ،مصدر سابق ، ص ص 51 _ 52 .

قائلا:

" نظراً للأهمية التي يولونها للزراعة و لما يريدونه من حماية لغللهم و ضمان لأملاكهم فإنّهم يدفعون طواعية ضريبة لرئيس الأيالة. "[94]

و منها ما ذكره "ابن هطال" عن أهل الأغواط إذ قال :

"... و عندما وصل المترل قدمت مشايخ بني الأغواط و علماؤهم وبأيديهم كتاب صحيح البخاري رضي الله عنه طالبين الأمان على أنفسهم وأهلهم و هم مذهنون[95] بالطاعة قائلون أن يكونوا رعية على أن يعطوا مائة خادم و خمسة آلاف سلطاني و مائة ثوب وأربعة أفراس. فلمّا رأى حرصهم على هذا الأمر وتحملهم ورضاهم بذلك القدر قال لهم: إن أتيتم لما ذكرتم ووفيتم لما وعدتم فلكم منّي الأمان وأيّ أمان ، ثمّ كساهم كلّهم كما كانت عادته مع غيرهم وزاد لكبيرهم منطقة[96] فائقة رحلة رائقة و طلبوا منه أن يقيم في هذا الموضع حتّى يدفعوا له جميع ما التزموه وانصرفوا و بعث معهم المخازنية لخلاص ذلك على العادة المعلومة في الرعية ... "[97]

ومن هنا يتضح بشكل جلي أنّ علاقة البايليك بهذه القبائل لم تكن علاقة جباية الضرائب فقط و إنّما هي علاقة تبادل مصلحة بين حاكم ومحكوم وإن كانت هذه العلاقة قد تدهورت في نهاية عهد الدايات فمرد ذلك إلى التغير الذي حصل منذ نهاية القرن الثامن عشر بسبب المتغيرات الخارجية الناتجة عن تكتل أوربا لمحاربة القرصنة في البحر المتوسط إضافة إلى الحصار البحري المفروض على الجزائر في كل مرة وكثرة التحرّشات الأجنبية بالسواحل الجزائرية، وهو ما أدى إلى ضعف غنائم البحر و زاد في حاجة الخزينة إلى المداخيل، وبالمقابل اعتلى سدة الحكم مجموعة من الدايات غير الأكفاء الذين كثيرا ما رافق تنصيبهم حملة من شغب العسكر .

---

94 _ حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص 69 .

95 _ كذا في الأصل ولعلها يذعنون .

96 _كسوة يتمنطق بها أي يربطها على وسطه .

97 _ ابن هطال ، مصدر سابق ، ص 53 .

هذا الوضع دفع الحكومة إلى تعويض هذا النقص بزيادة الضرائب على القبائل الـتي لم تتحمل الضغط المالي فأدى كل ذلك إلى تدهور هذه العلاقة ، وقيام هذه القبائل بـالثورة على السلطة العثمانية .

القبائل الممتنعة(المستقلة):

يعتبر كثير من المؤلّفين الأوروبيين أنّ الأتراك لم تكن لهم السيادة على داخل بلاد شمال إفريقيا وأنّ سكّان الداخل غاضبون عليهم جدا، ومنهم "براداي" الذي كتب في القرن الثامن عشر يقول :

" بلاد زواوة لم تكن في يوم من الأيام تحت حكم الأتراك الفعلي ، وهم الآن أكثر استقلالا ماداموا يملكون الأسلحة النارية . والطريقة الوحيدة التي كان التركي قادرا بها على فرض حكمه هي فيما يظهر، تفضيل عنصر عن الآخر أو قبيلة على أخرى " [98]

وهذا الحكم وإن كان فيه شيء من الصحة إلا أنّه بعيد عن الحقيقة الكاملة كما سنرى .

ويذكر "بارا داي" أن قبائل زواوة مشكلة من حوالي 300 قرية لا تدفع أيّ نوع من أنواع الضرائب للبايليك لكنّهم في صراع دائم مع إخوانهم من فليسة الذين بدورهم ليس لهم ولاء لغير شيوخهم و أنّ هؤلاء القبائل في حصانة من هجمات الأتراك داخل أحيائهم الجبلية لذلك فإنّ البايليك يدعم الضعيف منهم حتّى لا تكون الغلبة لفرقة ما قد يؤدي تفوقها إلى بروز قوّة مناقضة للوجود التركي [99]، أمّا "ابن هطّال" فيذكر واصفاً منطقة القبلة أو الجنوب الشرقي لبايليك الغرب كما يلي :

" اعلم أنّه لّما اتفق نظر سيّدنا المذكور [يقصد الباي محمد الكبير] ... في جهة القبلة رأى أنّها ذات بلدان كثيرة و أعراب راحلة و مقيمة غزيرة إلا أنّها لم تنلها أيدي السلطنة و لم تكن منها للملك مصلحة و لا منفعة معينة كأنّها أمّة أبقت من أهلها أو حرة نشزت من بعلها فشمّر لها عن ساعد الجد ، عازماً على رد ما بها من الغفار والصمد . فجمع جموعه و قواده و نشر أعلامه و لم يزد على أن كان جيشه حشمه وخدامه." [100]

وفي الجملة فإنّ بعض القبائل التي تسكن المناطق الحصينة جغرافياً كالجبال والمناطق الصحراوية والبعيدة بالتالي عن طائلة المحلاّت التركية وفرسان المخزن تعتبر قبائل ممتنعة

---

[98] _ ج ب وولف ، مرجع سابق ، ص ص 175 _ 176 .

[99] _ سبق الكلام عن ذلك في المبحث السابق عند ذكر مجموعة القبائل أنظر ص 39 .

[100] _ أحمد بن هطّال ، مصدر سابق ، ص ص 36 _37 .

كونها لا تدفع المطالب المخزنية بل وتهدّد الأمن العام والمصالح الاقتصادية للبايليك وتحارب باقي القبائل (متحالفة أو رعية) .

والواقع أنّ مثل هذه المناطق لم تكن مستقرة فكلّما قوي البايليك جرّد عليها الحملات العسكرية وبالعكس إذا ضعف لسبب من الأسباب فإنّ هذه القبائل تزيد من تفرّدها على المناطق التي انحسرت منها سلطة البايليك ، ويذكر "ابن هطّال" واصفاً إحدى هذه المناطق أنّ باي التيطري حاول إخضاعها ولكنه فشل لقوّة وبأس رجالها غير أنّها لم تقدر على مقاومة هجوم باي الغرب محمد بن عثمان إذ يقول:

"و هذه المدينة تسمّى زنينة قريبة من الدّبداب بنحو أربع سوائع وهي لبعض الأعراب الذين لا حكم عليهم لأحد ، و أهلها أصحاب قوة و عدة وعزة وقد ذكروا له أنّ باي تيطري نزل عليها فطردوه و قتلوا له رجلين وذهب مذموماً مدحوراً .

فلمّا سمع كلامهم على هذا الوجه اشتدّ حرصه عليها و أراد النزول بقربها ... فلمّا رآه أهل تلك القرية علموا أنّهم لا قدرة لهم ولا طاقة لملاقاته فخرجوا منها بأجمعهم و لم يأخذوا شيئاً من أمتعتهم وقوتهم ... " [101]

ويمكن اعتبار القبائل التي كانت سابقة لسلطة الإسبانيين المقيمين بوهران قبائل ممتنعة كونها لم تكن خاضعة لسلطة البايليك إلاّ بعد إجلاء الأتراك الإسبانيين عن مدينة وهران وكانوا يشاركون الإسبان في حربهم مع العثمانيين ويتجسسون لحسابهم ويمدّونهم بأعوان و يغيرون على قبائل الرعية الخاضعة لسلطة البايليك وقد فصّل في أنسابهم وأحوالهم "عبد القادر المشرفي" تقييده بهجة الناظر .[102]

ولقد سعى حكّام الجزائر إخضاع هذه القبائل أو على الأقل الحد من استقلالها وإجبارها على مهادنة البايليك معتمدين طرقا مختلفة بحسب قوة البايليك وقوة هذه القبائل فمتى كان حصارها ودفعها إلى الجبال والقفار كافياً فإنّ البايليك كان يكتفي ولا يغامر بجيوشه في ملاحقتها .كما أنّ الحكومة كانت تقيم حراسة مشدّدة على الأسواق وفرض

---

[101] _ أحمد بن هطال ، مصدر سابق ، ص ص 49_51 .

[102] _ عبد القادر المشرفي الجزائري ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر ، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ، (الجزائر : بدون ت) ص 14 وما بعدها وانظر كذلك : Revue Africaine . (Alger : OPU . 1924) . P200.

عليها رسوماً فيضطر أفراد هذه القبائل أن يرتادوها للحصول على المؤن وبيع منتوجاتهم الزراعية فتكتفي بما يدفعون من رسوم في هذه الأسواق . كما كانت تحاصر مناطق تواجدهم بإقامة قبائل مخزنية على سفوح هذه الجبال وبالتالي تراقب تحركاتهم وتمنع اتصالهم بقبائل الرعية مخافة أن يؤثروا عليها و يدفعوها للثورة، وفي الحالات التي تقوى فيها هذه القبائل وتكثر أعدادها فتصبح خطرا على البايليك فإنّها تجرد عليها الحملات العسكرية لكسر شوكتها وإيقاف خطرها المتنامي كما هو الحال مع منطقة القعدة بالغرب الجزائري والتي يقول عنها ابن هطّال :

"وقد انحاز إلى هذه القعدة جميع من في هذه الجهة من الأعراب وامتلأت منهم الأودية والشعاب ظنّاً منه[103] أنها تنجيه ممن يطمع فيه و تحميه فاعتمد عليها وفوّض أمره إليها حتى أنه رقد بالنوم و لم يشعر بما قدره الحي القيوم ... و لما أصبح الله بخير الصباح وركب و قصد سبع أدوار [هي القعدة]بخيله و رحله ... فلما أحست به الأعراب إلى القعدة تحصنوا في جبل وعر ، والحصين ... فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى أحاطت بهم القوم من كل جهة و جعلت تلتقط أنعامهم و تذهب خيامهم و أمتعتهم حتى أخذوا عن أخرهم ..."[104]

و في الحالات التي يصعب فيها القضاء على هذه القبائل أو إخضاعها بالكامل تطرد من مواطنها و تشرد إلى مناطق بعيدة عن نفوذ البايليك أو إلى المناطق ذات المردود الاقتصادي القليل مع احتفاظ البايليك بالمناطق الخصبة وموارد المياه حتّى يضمن تبعيتهم له بصورة أو بأخرى و يتحكم في مصادر رزقهم .

---

[103] _ كذا في الأصل والصواب منهم .

[104] _ ابن هطال ،مصدر سابق ،ص ص 46 _47 .

إن هذه الطبقات كما هو باد إنما فرضتها محاولات الأوجاق الحفاظ على امتيازاتها الاقتصادية ومكانتها الاجتماعية مع الحفاظ على طبقات حليفة تتمتع بشيء من الرخاء يدفعها إلى محاولة الإبقاء على الأوضاع كما هي في حالة نشوب أي محاولة لزعزعة الأوجاق عن مركزهم ، وفي نفس الوقت لا ترقى إلى مكانة العثمانيين .

ولم يخالف العثمانيون سياستهم الدائمة في معاملة البلاد التي دخلوها في المشرق الإسلامي أو مغربه وهي المحافظة على الأوضاع الاجتماعية كما يجدونها ما لم تمس هذه الأوضاع سلطتهم السياسية وامتيازاتهم الاقتصادية ، والاكتفاء بالسلطة الاسمية عن السلطة الفعلية في الحالات التي تتطلب فيها هذه السلطة الفعلية مجهودات مكلفة لإقرارها ، وخاصة في الأماكن البعيدة عن السلطة المركزية .

وعلى الرغم من وجود ذلك العدد الكبير من الطبقات إلا أن السلطة الحاكمة لم تفلت واحدة منها من دون أن يكون لها دخلا مادياً تدره عليها بشكل مباشر كضرائب وعوائد ومطالب مخزنية أو بشكل غير مباشر عن طريق خدمات تقدمها بشكل مجاني للبايليك أو بالشكلين معاً .

وإذا كان أساس التمايز بين الطبقات الاجتماعية في المدينة لا يظهر بشكل بارز هذا العامل الاقتصادي كون أغلب الطبقات تميزها زيادة عليه فروق عرقية إلا أن هذا العامل يبدو بشكل صارخ في طبقات الريف، لأنها لا تخضع للتفريق بينها إلا إلى هذا العامل .

وإذا كانت هناك فروق طبقية عرقية واقتصادية بين هذه الطبقات وبين طبقات المدينة من جهة وبين طبقات الريف من جهة ثانية ، وفروق أخرى في أساس تعامل السلطة مع كل من هذه الطبقات فإن عادات الجزائريين بمختلف طبقاتهم لم تكن تختلف كثيرا لأنهم كانوا يخضعون إلى ظروف دولية تفرض عليهم تناسي الفوارق والاختلافات .

الفصل الثاني

مميزات المجتمع الجزائري في عهد الدايات

المبحث الأول : العادات الاجتماعية

المبحث الثاني : العادات الدينية

المبحث الثالث : العادات السياسية

المبحث الرابع : العادات الثقافية

إذا صدّقنا روايات الرحالة الأوربيين الذين زاروا الجزائر في عهد الدايات من رجال دين وقناصل ووكلاء تجاريين مثل "دو تاسي" و"شاو" و"دي بوا تانفيل" فإن حياة الجزائريين كانت منحطة إلى درجة كبيرة، أما الأسرى الذين كتبوا عن يومياتهم بالجزائر فإن رواياتهم تعتبر الجزائريين مجتمعا من الوحوش الذين جانبوا طريق الحضارة بعقود من الزمن _ هذا في الغالب _ غير أننا إذا قارناها بما وصل إلينا من كتابات الجزائريين آنذاك وجدنا البون شاسعا ؛ بل إننا عندما نتفحص كتابات هؤلاء الأوربيين أنفسهم ونقارنها فيما بينها نكتشف أن حياة الجزائريين لم تكن تختلف بسلبياتها وإيجابياتها عن حياة أي مجتمع في دولة آنذاك .

وفي هذا الفصل جملة من العادات التي اتصفت بها حياة الجزائريين في المجال الاجتماعي والسياسي والديني وكذا الثقافي وسيتضح من خلال ذلك ما يؤكد فعلا أنهم لم يكونوا بدعا من المجتمعات، بل شابهوا في سلوكاتهم غيرهم من المجتمعات المعاصرة لهم .

وإذا كان وضع الجزائر فيه بعض الاختلافات من حيث العادات والسلوكات فإن مرد ذلك يعود إلى ظروفها الخاصة ، فلقد اعتبرت الجزائر أرض الجهاد ومقاومة حركة الاسترداد التي خاضتها الكنيسة في محاولة لاستعادة كل الأراضي الإسلامية التي خضعت في يوم من الأيام إلى سلطة المسيحيين ، وإذا اختلفوا عن غيرهم في بعض الجزئيات فإن ذلك من طبيعة التمايز التي خص الله بها البشر .

العادات الاجتماعية :

يتكلم المؤرخون الأوربيون في وصفهم للحياة الاجتماعية بالجزائر العثمانية عن بعض الآفات ويهملون الحديث عن الميزات الإيجابية وعن الروابط الحميمة التي اتصف بها المجتمع الجزائري آنذاك . وربما يعود ذلك إلى إغفال المؤرخين الجزائريين الحديث في مؤلفاتهم عن هذا الجانب واهتمامهم بالتأريخ للأحداث السياسية التي عاصروها الشيء الذي أخلى الساحة لغيرهم ممن يرى الأمور بغير أعينهم .

صحيح أن الأوربيين يصفون كرم سكان البوادي وحسن ضيافتهم وصحيح أيضا أن جزءا من الآفات التي يتكلمون عنها كان موجودا وتكلم عنه المؤرخون الجزائريون أنفسهم غير أن حكم الإطلاق هو الخطأ .كما أن تقييم الظواهر الاجتماعية بقيم غير القيم التي تحكم المجتمع ذاته ، وإغفال الحديث عن قيمة هذه الظواهر بالنسبة إلى ظروف حدوثها في الزمان والمكان يعتبر خطأً منهجيا كثيرا ما ترتبت عليه أحكام ظالمة ، خاصة فيما يتعلق بظروف عيش المرأة وكذا أحكام الزواج والروابط الاجتماعية بصفة عامة .

وإذا اعترفنا بوجود جملة الآفات المذكورة فإن الموضوعية تقتضي أن نقيس حجمها بالنسبة إلى ما كان شائعا في المجتمعات المجاورة آنذاك ثم أن نقيسها أيضا بقدر شيوعها في المجتمع وبنسبتها إلى حجم العلاقات الاجتماعية الأخرى .

أ / الزواج:

ينقل لنا الشيخ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري في رحلته صورة عن صيغ عقود الزواج لبنتٍ بكرٍ[1] ثمّ لأخرى ثيّب، ويظهر من خلال العقدين أنّ الفرق بين المهرين غير كبير، و يفهم من ذلك أنّ الثيب كانت تتزوج بسهولة، وأنّ للبكر اشتراط عدم التزوج عليها أو التسري معها إلا بإذنها و هو ما لم يذكر في عقد زواج الثيب.

و قد ذكر ابن حمادوش هذه المسألة في عقد زواج بكر أخرى[2] و كيف اشترط في عقدها عدم الزواج عليها أو التسري معها و اشتُرِط مقابل ذلك أن يكون على والدها إيواء الزوجين دون أجر مدة الزوجية، وهي ملاحظات تظهر لنا طبيعة العلاقة الزوجية في ذلك العهد وبعض الظواهر الاجتماعية الموازية لها مثل كتابة العقود بعد الزواج بمدّة عندما تتزوج البنت صغيرة السن على طريقة الجماعة كما هو الحال مع أخته التي كتب عقدها سنتين و نصف بعد زواجها.[3]

و في ذكره لاشتراط الزوجات عدم التزوج عليهن أو التسري معهن تكذيب لمزاعم بعض الكتّاب الأوربيين الذّين يصفون المجتمع الجزائري آنذاك بالفوضى الجنسية و يبالغون في وصف ما يعرف عندهم بمصطلح الحريم[4] (Harem)أو نساء الرجل وجواريه.

ويلاحظ من مجموع العقود التي أوردها ابن حمادوش أنّ المهور كانت جد معتبرة وأنها كانت تنقسم إلى مُقدَّم و مؤخر يدفع بعد انقضاء مدة معلومة من الزواج وتضبط هذه المدة بدقة في العقود[5] .

---

[1] _ عبد الرزاق بن حمادوش ، رحلة بن حمادوش الجزائري ، تحقيق و تقديم د/ أبو القاسم سعد الله ، (الجزائر: الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ، 1983) ، ص 238 .

[2] _ نفس المصدر ، ص 241 .

[3] _ نفس المصدر ، ص 244 .

[4] _ P Boyer .op cit . P226.

[5] _عبد الرزاق بن حمادوش ، مصدر سابق ، ص 238 . ما يليها .

و ذكر المؤلف نموذجاً لعقد زواج أندلسَيَّيْن[6] يختلف عن سابقيه بكونه أثبت في العقد ما وهب كلا الوالدين للعروسين من أملاك كهدية على زفافهما، ومن خلال هذا العقد يظهر جلياً أنّ الأندلسيين كانوا في حال ميسور و لذلك نجد بعض المغالاة في مهورهم، وهو ما قد يفسر لنا ارتفاع المهور في بعض المدن الجزائرية اليوم أمثال تلمسان وغيرها ربما لكون المدينة إحدى محطات الأندلسيين الكبرى في الجزائر في ذلك العهد .

و يعتبر الحمام المكان المناسب لاختيار الزوجات للأبناء و الإخوة لأنّ التقاليد الإسلامية كانت تمنع اختلاط الرجال بالنساء زيادة على أن الشكل العمراني كان يسمح للمرأة بأن تنتقل عبر سطوح المباني إلى كل أنحاء المدينة من غير أن يراها الرجال [7] بل وحتى اللواتي تدفعهن الضرورة إلى الخروج فإنّ الحجاب الذي ترتديه يمنع الاطلاع على جمالهن، وبالتالي كان الحمام هو المكان الوحيد الذي تلتقي فيه النساء مرة كلّ أسبوع على الأقل، وغالباً ما يكون الموضوع الأساسي للمناقشة هو اختيار زوجات مناسبات؛ إ ذ يذكر "وليم سبنسر" أن هذا اللّقاء الأسبوعي لا يمثل تنظيفا تقليديا فقط ولكنّه يعتبر

> " نوعاً من إظهار الأزياء إلى جانب تبادل الأخبار العائلية وفي مثل هذه المناسبات تعرض الثروة العائلية ، فربّما لبست بورجوازيات مدينة الجزائر [وغيرها من المدن الجزائرية] أشرطة ثقيلة الوزن من الذّهب حول الوسط والعنق ... وهناك قطعة من الحليّ كان قد شاع استعمالها في شكل ماسة أو كرة ذهبية توضع عند نهاية سلسلة ذهبية وذلك علامة اعتماد المرأة على زوجها" [8] .

و إذا كان الاتفاق على الزواج يتمّ مبدئياً في هذه الحمّامات إلا أنّ الزّواج كان يحكمه دستوره الخاص والمقدّس الذّي يراعى فيه جانب الترفيه و السياسة و الاقتصاد

[6] ـعبد الرزاق بن حمادوش ، مصدر سابق ، ص 246 ـ248 .

[7] ـ يذكر دو تاسي معلقا على طريقة البناء أنه لا وجود لا إلى حدائق ولا إلى ساحات عمومية ، بل إن البنايات متراصة فيما بينها بشكل تجعل سطوحها متصلة فيما بينها بالشكل الذي يسمح لك بأن تطوف على المدينة دون أن تضطر للنزول إلى الشارع وهذه الأسطح سالمة من اللصوص أو الغرباء لأن من يرتادها منهم فقد حكم على نفسه بالموت ، انظر . De Tassy op cit . p 105 .

[8] ـوليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص 91 .

والسلوك الاجتماعي زيادة على الأعراف و التقاليد ، هذه الأخيرة التي غالباً ما يتقدمها استمرار الارتباط العرقي الذّي تفرضه العصبية"[9] .

و قد تمتاز مدن الجزائر عن باديتها بارتفاع عدد الذكور نظراً لتواجد الأوجاق بها وكذا جماعات البرانية الذّين يدخلونها بحثاً عن عمل، وقد يكون هذا أحد الأسباب التّي تسمح للمرأة باشتراط عدم التعدد أو التسري بغيرها إلا بإذنها كما سبق الذكر.

وهناك ظاهرة اجتماعية تابعة لمسألة الزواج عرفتها مدن الجزائر وهي ظاهرة التوسط، وتمثله غالباً امرأة مسنّة تربطها علاقة قرابة أو صداقة بالعائلتين المتصاهرتين، ونظراً لحياة التكتم و الحشمة التّي تطبع حياة المرأة في العالم الإسلامي فإنّ دور تلك النسوة كان ذا قيمة كبيرة إذ كنّ يجبن الديار يستطلعن أخبار الفتيات اللاتي بلغن سن الزواج كما ينقلن أخبار الأصهار الاجتماعية و الاقتصادية .[10]

و لذلك فإنهن كن يفزن بجائزة معتبرة في حالة نجاح الوساطة ولا زالت هذه الظاهرة مستمرة إلى اليوم غير أن حدّتها قلّت نظراً لتطور الحياة و خروج المرأة من تلك العزلة .

و تقام حفلات الزواج تبعا للمكانة الاجتماعية و الاقتصادية للعائلات المتصاهرة فإذا كان زواج الريفيين بسيطا يطبعه مشهد واحد يجمع الزوجين و يحمل كل منهما إلى شفتي الآخر كأسا من الحليب، فإن الزواج عند العائلات الحضرية أو الكرغلية يدوم أسبوعا كاملا تتخلله مجموعة من المراسيم يذكر " بانانتي "Pananti جزءا منها قائلا :

> "يتجول الزوج بضعة أيام قبل الحفل في نواحي المدينة على أصوات الطبول والمزمار ... وفي يوم الزواج يقوم بجولة أخرى مرتديا جلبابا أحمر و بجانبه سيف رفيع .كما يوجد خمار ملقى على وجهه للحيلولة دون تأثير عين الشيطان وخلال الثلاثة أيام التي يجري فيها الاحتفال يؤخذ العريس إلى الحمام حتى اليوم الذي يتم فيه الزواج و في ذلك اليوم يجتمع الأصدقاء و الأقرباء فيقوم العريس بالصلاة

[9] _وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص 97 .

[10] _ نفس المرجع ، ص ص 97 _ 98 .

بمحضرهم و ينصرف بعدها ليلتحق بالزوجة في بيتها، وهنا يعلن عن أنهما زوجان لبعضهما بواسطة بعض الصلوات التي يقوم بها الزوج و الأئمة ... "[11].

و المقصود بالصلوات في نص بانانتي هو عقد القران أو ما يعرف عندنا بقراءة الفاتحة و الذي تصبح الزوجة بعده حلالا لزوجها شرعا تنتقل بعدها الزوجة إلى دار زوجها على ظهر حصان مزين بالهودج يرافقها ركب من الأهل و الأصدقاء في موكب بهيج يحملون المشاعل و المزامير و يقرعون الطبول و عند وصولها إلى باب الدار تؤخذ بعناية شديدة كي لا تطأ قدماها الأرض الشيء الذي يعتبر فألا سيئا عندهم[12].

[11] _ وليم سبنسر ، مرجع سابق ،ص 98 .

[12] _ Laugier de tassy . op cit . PP 47 _ 48 .

ب / المرأة :

يعتبر الأوربيون مجتمع الجزائر في العهد العثماني عامة مجتمعا رجاليا لا دور للمـرأة فيه، ففي الوقت الذي يقوم فيه الرجل بمختلف الأعمال السياسية والاجتماعية والدينية وغيرها، يقتصر عمل المرأة على غسل الأواني ونفض الزرابي والأفرشة وتحضير الطعـام ولمواجهة هذه الأعباء كانت النساء ترتدين ملابس بسيطة تساعد الأمـهات علـى إرضاع أطفالهن رضاعة طبيعية ولمدة تتجاوز الثلاث إلى أربع سنوات أحيانـاً، أمـا أرجلهن وسيقانهن فتبقى عارية لا تسترها سوى فوطة مخططة معقودة من الأمام .

ولكي تخرج المرأة المسلمة عليها أن تستر وجهها عدا العينين بمنديـل مربـع أو مثلث تعقده في القفا ثم تضع على كتفيها لحافا يربط في مقدمه يعين على تدعيم سترة الثياب التي غالبا ما تكون خفيفة و غير ساترة ثم تحيط المرأة نفسها بحايك من الصوف الخفيف أو من الحرير أو القطن يسمّى بـ " فوطة نتاع السنانيق "[13] .

وعلى عكس ما يرى "بوايي" فإن المؤرخ الألماني "فيلهلم شيمبر" يرى

> " أن المرأة تعيش كالسجينة تقريبا ، وليس مرد ذلك إلى غيرة زوجها ، وإنمـا مرده إلى العادة المتبعة . فالرجل الجزائري ليس غيورا جدا بل هـو في غيرتـه لا يختلف عن أي إنسان ينتمي إلى شعب آخر . وان هو وجد رجلا في بيته ، فـإن تصرفه في هذه الحالة لا يختلف عن تصرف رجل ألماني مثلا "[14].

والجدير بالذكر أن الأسرة الجزائرية لم يختلف فيها وضع المرأة كثيرا عـن بقيـة الشعوب الأخرى ففي حديث "فيلهلم شيمب"ر عن الأسرة والسعادة الـتي تسـود حياتها المترلية يقول :

> " وقد أتيح لي أن أراقب أسرة كانت تسكن بجواري . فحين يعود الرجل إلى البيت تستقبله الزوجة معانقة إياه مقبلة ، وتجلسه قربها فـوق الأريكـة وتحدثـه

13_ p.Boyer.op cit. p 157.

14_ أبو العيد دودو ، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمـان 1830 _1855، (الجزائـر : المؤسسـة الوطنيـة للكتـاب، 1989)، ص13 .

وتحدثها . ويسرع الأطفال كذلك إلى أبيهم فرحين ، فيضمهم إلى صدره في حنان وحب ويأخذ في مداعبتهم ... "[15].

وفي هذا الكلام تكذيب قاطع لمن ادّعى أن رباط الزوجية لا قيمة له وأن للرجل حق التخلص من المرأة إن هو قدّر عدم صلاحيتها له وأنّه لاوجود للمحبة بين الزوجين وإنما هناك العلاقة الجنسية وفقط .

وفي العائلات الغنية يعتبر الاهتمام بثياب المرأة ومظهرها أهمّ عمل بالنسبة لها، ولذلك فإن الوقت الذي تصرفه النساء الغنيات للاهتمام بأشكالهن لا يحسب عندهن غير أن أهمّ عقاقير الزينة هي الحنّاء والكحل .

وإن كانت النساء الجزائريات لا تستعملن مساحيق التجميل الأخرى والتي تشتهر عند الأوربيات فليس لأنّ هذه المساحيق كانت مجهولة في الجزائر بل لأن الأذواق كانت تفضل هذه الوسائل البسيطة والتقليدية .

ولهذا الاختيار ما يبرره فقد شهد "شالير" أن المرأة الجزائرية قادرة على منافسة نساء أي بلد آخر في العالم (في الجمال) وما يميز جمالهن هو العيون والحواجب والأسنان[16]. وهي المواضع التي تُرَكّز عليها النساء الجزائريات في تجميلهن باستعمال الكحل للعيون والسواك أو ما يعرف محليا بالمسواك للأسنان فإن هذا الأخير ينقي الأسنان ويزيد في صفائها كما يعطي للثة الفم لونا برتقاليا برّاقا[17].

---

15 _ أبو العيد دودو، مرجع سابق، ص 12 .

16 _ وليام شالير ، مصدر سابق ، ص 79 .

17 _ P Boyer . op cit . p159 .

جـ / وسائل الترفيه :

يروي كثير من الأوربيين ــ الذين زاروا الجزائر في العهد العثماني ــ في مؤلفاتهم أن زائرها لا يجد أي متعة لأن الحياة في مُدنها مملة من كثرة رتابتها وقلة وسائل الترفيه عند الجزائريين، ولكن الحقيقة بعيدة عن ذلك كل البعد وربما يعود هذا الحكم كما يرى "بوايي"[18] إلى غياب العنصر النسوي في وسائل الترفيه كون البيئة الإسلامية تفرض عدم خروج المرأة واختلاطها بالرجال إلا للضرورة بخلاف الأمر في المجتمعات الغربية .

ويعتبر المقهى أهم مؤسسة ترفيه لسكان المدينة ويكون في الغالب تحت إدارة أحد الأعلاج أو الأرقاء المسيحيين الذين يدفعون للبايليك جزءا من الفائدة . وتقدم فيه القهوة والشاي، لكّن أهمّ ما يُجتمع عليه في المقهى هو مقابلات لعبة (الدامّة) وعروض (القراقوز) . كما تقوم الفرق الموسيقية بتقديم وَصَلات تطرب بها الحضور .

ولقد اختلفت المناسبات التي تقوم فيها هذه الفرق بعروضها من حفلات زفاف وختان إلى احتفالات بتولية داي جديد أو بقدوم باي من البايات يحمل دنوش بايلكه إلى الخزينة أو انتصار كبير على الأعداء أو غير ذلك . وكانت السلطة السياسية تجازي هؤلاء الموسيقيين بالهدايا في هذه المناسبات الأمر الذي جعل الكثيرين من العوام رجالا ونساءا يهتمون بعزف الموسيقى زيادة على الفرق العسكرية التي تعرف موسيقاها بـــ "النوبة" .[19]

ومن الأماكن التي يجتمع فيها عدد كبير من النّاس الحمّامات الجزائرية التي اتفق الزوار الأوربيون على مدحها ووصف دوام الجزائريين على زيارتها للاغتسال وهو ما جعل الكثير من الكتاب الأوربيين يشيدون باهتمام المسلمين بمسألة النظافة في هذه الحمّامات.[20]

---

18 _ Boyer . op cit . p 114.

19 ــ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر ... ، مرجع سابق ، ص 455 .

20 ــ ج.ب. وولف ، مرجع سابق ، ص 152 .

أما رياضة المصارعة فهي من الرياضات التي يهتم بها الجزائريون كثيرا والتي تجتمع لى مقابلاتها التي تجرى في ميدان خاص ويحضرها عدد لا بأس به من المشاهدين، وقد صف الكثير من الأوربيين هذه المقابلات وعلقوا على مهارة المتصارعين الذين لا غفلون مناسبة دون المشاركة بعروضهم في إتحاف الجماهير[21].

[21] ــ وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص 103.

د / الآفات الاجتماعية :

من مميزات المدينة الجزائرية هو وجود نسبة عالية من العزاب الذكور على خلاف المدن الإسلامية إذ الأصل في العالم الإسلامي هو الزواج المبكر غير أن الظروف السياسية والاجتماعية فرضت هذا الوضع الشاذ، فقد فرض على البرانية القادمون إلى المدن وضع العزوبة كونهم غير قادرين على استقدام زوجاتهم إلى المدينة ولا هم قادرون على الزواج من بنات المدينة نظرا للحاجز الطبقي ،كما فرض نفس الوضع على الزنوج والأسرى المسيحيين الذين كانت أعدادهم كما سبق غير ثابتة لكنها في الغالب كبيرة .

وإذا كان هذا الوضع مفروضا على هاتين الفئتين فإنه بالنسبة لفرق الأوجاق وضع اختياري، اختاره العثمانيون الذين يستقدمون إلى الجزائر مخافة أن يفقدوا سلطاتهم وامتيازاتهم خاصة بعد محاولات الكراغلة مناجزتهم عليها، فأصبح الدايات يحاولون منع تزوج أفراد الأوجاق من الجزائريات بشتى الطرق ويضعون في سبيل هذه الزيجات مجموعة من المثبطات منها منع الوجبة اليومية من الأكل ومنعهم حق الإيواء في القشلات.

ولقد ولّد هذا الاختلال الاجتماعي جملة من الآفات أهمها ظاهرة اللواط لدى جماعة اليولداش وشيوع الزنا في المدن. وقد ركز الرواة الغربيون وخاصة القناصل على ظاهرة اللواط عند الجنود الإنكشارية إما تصريحا كما هو الحال عند "بوايي"[22] أوتلميحا كما عند "لوجي دوتاسي"[23] .

وإذا كان اللواط ظاهرة كتب عنها الأجانب فقط فإن ظاهرة الزنا قد تكلم عنها حتى المؤلفون العرب كالزهار الذي أورد أن أول الأعمال الخسيسة لحسين داي آخر دايات الجزائر هو بناؤه لحارة خاصة بالمومسات يرتادها جنود الإنكشارية[24].

---

[22] _ P Boyer . op cit . pp 227 _ 228 .

[22] _ وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص ص 99 _ 100 .

[23] _ L. de Tassy . op cit . PP 79 _ 80 .

[24] _ الزهار ، مصدر سابق ، ص 144 .

إن الكثير من المؤرخين الأوربيين يعتبر أن عدد هذه المومسات كان قريبا من 3000 في مدينة الجزائر وحدها و هو رقم مبالغ فيه لا محالة و قد استنتج "بوابي" أنّ عدد البغايا كان مرتفعاً من خلال السعر المنخفض الذي كن يتقاضينه غير أنّه لم يحدد عددهن[25].

و يعلق "سبنسر" على هاتين الظاهرتين بقوله :

" ... فبالرغم ممّا كان يشاع من ولع أعضاء الأوجاق بالصغار و خاصة اليهود أكثر من ولعهم بالفتيات و تركهم لهن في كثير من الأحيان فإنّ ما نملك عليه من الوثائق كان فقط هو تواجد البغايا غير التركيات التي احتفظ بهنّ لإمتاع العزاب من اليولداش وقد كانت تحت إشراف المزور و كن مراقبات بشدّة و يفتّشن بانتظام . ومطلوب منهنّ أن يعشن في حيّ مدني خاص محجوز ومقفل على القادمين من خارجه وقبل زيارة الحيّ من قبل الزبون كان عليه أن يقدم طلباً إلى المزور يذكر فيه السعر الذي يستطيع الدخول على أساسه و يحدد اليوم الذي يريد الدخول فيه ... "[26].

و من تعليق "سبنسر" يتضح أولا أنّ وجود الشذوذ كان مسألة عارضة لم تثبتها الوثائق و ربّما حدث بصورة انعزالية أمام أحد الأسرى فأقام حولها الرواة الأوربيون الأساطير كما هو الحال مع أيّ مسألة من شأنها أن تشين إلى الوجود العثماني بالجزائر.

كما يتضح أنّ البغاء كان محدوداً و مراقباً من قبل السلطة بالشكل الذي يستحيل معه أن يكون الزنا ظاهرة متفشية في المجتمع لا يكاد يسلم منه رجل أو امرأة كما يزعم "بوابي" [27].

إنّ هذه السلطة المتهمة ذاتها كثيراً ما سعت إلى محاربة هذه الظاهرة في عهد بعض الدايات المصلحين كعلي خوجة الذي يقول عنه الزهار :

---

[25]_ P Boyer . op cit . p 228 .

[26]_ وليم سبنسر ، مرجع سابق ، ص ص 99 _ 100 .

[27]_ P. Boyer . op cit . p p 229 _ 230 .

" ... ثم إنه أمر بإبطال الزنا و الخمر و من وجدوه مخموراً أو زانياً فيبعث بـه للقاضي لإجراء الحد الشرعي و أمر الناس بالصلاة مع الجماعة و نادى مناديـه أنّ من يبقى بدكانه بعد الأذان فلا يلوم إلا نفسه ."[28]

لقد كان النظام العام للدولة يفرض على الجنود ألا يقوموا بتجاوزات على المـلأ احتراماً للشعور العام و للمبادئ الإسلامية، وإذا كانت الحكومة تسمح بوجود بعض المواخير التي يديرها اليهود غالباً فذلك حتى تمنع شغب الجنود الذين تدفعهم حياة العزوبة ــ التي اختارها الأتراك حفاظاً على امتيازاتهم السياسية ــ إلى التعدي على حرمات السكان ؛ ويعلق "شالير" على ذلك قائلا :

"و إذا كان الأتراك يراعون حسن السلوك و يحترمون تعاليم الدين التزاماً بمبدأ سياسي فإنّ التجربة أثبتت أنّ هذا لا يمنعهم من التحلل أحياناً و الميل إلى المجون الذي يميز الجنود في كل مكان و تبعاً لذلك فإنّ الحكومة تسمح لفتح المواخير ... وكل ما من شأنه أن لا يؤدي إلى تعكير الهدوء السياسي و يسمح في نفس الوقت بإنعاش كبرياء الإنكشاري و زهوه تطبقه الحكومة بدون تردد ... "[29] .

ومن الآفات التي عرفتها الجزائر في عهد الدايات ظاهرة الرشوة و هي ظاهرة ولدت مع عهد الباشوات فقد كان هؤلاء يشترون مناصبهم رشوة من الباب العالي ولكن عندما شحت مصادر الدخل في الأيالة ــ نظراً لتقلص نشاط القرصنة وضعف الموارد البحرية في عهد الدايات ــ أصبحت الرشوة واحدة من المصادر الثابتة فكل المناصب أصبحت عرضة للبيع، كما كثرت المناصب فأصبح لكل نشاط يمكن أن يدر ربحاً ما خوجة مسؤولا عنه، وبطبيعة الحال يباع هذا المنصب رشوة لمن يمكنه الدفع والذي بدوره يأخذ رشوة ممن هم تحت سلطة منصبه الجديد ليستعيد ما خسره في سبيل الحصول على ذلك المنصب.

و يذكر "ابن حمادوش" صورة أخرى من صور هذا الفساد وإن لم تكن دفع رشوة مالا فهي استعمال النفوذ والمحسوبية إذ يقول :

---

28 ــ الزهار ، مصدر سابق ، ص 136 .

29 ــ شالير، مصدر سابق ، ص 55 .

"... و كان لي تلميذ ، ابن عمتي ، يصطحب مع خوجة الملح [مدير الجمارك] وكان إذاك علج الباشا إبراهيم ، طلبت منه أن يطلب من صاحبه إجازة سلعتي ، فترل إليه و جلس عنده حتى وجهتها له هنا ، فأدخلها مخزنه و بعثها مع أحد خدامه . فلم يمسكه صاحب الباب فسلمت من المكس ."[30]

ويذكر "الورتلاني" هو الآخر في رحلته أخبارا عن انتشار الرشوة ويشدد في الوعيد لمن يقدّمها ابتغاء الحصول على ولاية من الولايات كالقضاء والإفتاء ويخبر عن أبيه أنه كان لا يصلي خلف مثل هؤلاء[31].

30 _ ابن حمادوش ، مصدر سابق ، ص 114 .

31 _ الورتلاني ، مصدر سابق ، ص 111 .

العادات الدينية :

يشترك الجزائريون مع غيرهم من المسلمين في بعض العادات الدينية كالاحتفال بالأعياد الدينية مثل المولد النبوي وعيدي الأضحى والفطر ويتميزون عنهم ببعض الفروق فرضتها ظروف الجزائر فلقد اجتمع في الجزائر العنصر الأصلي من عرب وبربر والعنصر التركي والعنصر الأندلسي ولكل خصائصه غير أن الطابع التركي هو الذي يغلب على المدن كون تأثير الحاكم فيها يكون أكبر لوجود السلطة المركزية بالمدن ولوجود حاميات من الأوجاق الأتراك .

أما سكان البوادي فإن تأثير العثمانيين في عادتهم لم يكن بالشيء المذكور لأنهم كانوا يتّبعون في عاداتهم توجيهات شيوخ الزوايا وأئمة الطرق الصوفية بالإضافة إلى تقاليدهم التي ورثوها عن آبائهم والتي لها قداسة لا تضاهى.

ومع الأسف الشديد فإن المؤرخين اهتموا بذكر عادات أهل المدن وأهملوا الريف إلاّ ما كان نتفاً في كتب الرحالة الذين جابوا البلاد وهم قلّة، زيادةً على أن الرحالة يستقرّون في المناطق التي يصفونها لمدد قصيرة لا تكفي لملاحظة جميع العادات مثل ما هو الحال مع الذين كتبوا عن المدن فإنّ منهم من عاش فيها لسنوات مثل الأسرى والقناصل .

ولهذه الأسباب فإن العادات الدينية التي سيرد ذكرها بعد قليل تتعلق بسكان المدينة أكثر منها بسكان الريف.

أ / الاحتفال بعيد الأضحى :

إن الاحتفال بعيد الأضحى مثلا يبدأ بإطلاق طلقات من المدافع و البنادق إيذانا بطلوع فجر يوم العيد فيعمد الداي في العاصمة

"لتلقي تهاني و هدايا أعضاء حكومته وممثلي الحكومات الأجنبية المقيمين في العاصمة ثم يقود ذهاب الوجهاء و سكان المدينة وأعضاء الأوجاق إلى جامع الحوّاتين حيث يقع ذبح التضحيات[32] و أثناء ذلك تكون طلقات البنادق على أشدها و الفرقة العسكرية للموسيقى تعزف الموسيقى الحربية .و عند انتهاء الصلاة الرسمية تفتح أبواب قصر الداي على مصراعيها للعامة فيقدم الكوسكوسو المطبوخ بعناية لكل من حضر"[33].

و يذكر "كاثكارت" أسير الداي في مذكراته ما يؤكد هذا الوصف ليوم العيد ويزيد عليه إذ يؤكد أن العيد يحتفل به في القصر بالمآدب و الموسيقى و مباريات المصارعة والصواريخ و المفرقعات وتبعا لوصفه فإن هذه الاحتفالات تبدأ قبل يوم العيد و تنتهي باليوم الثالث للعيد .

ففي اليوم الأول يرفع العلم التركي على القصر وعلم الجزائر على تحصينات المدينة وتطلق مدافع هذه التحصينات نيرانها والمدافع المسددة إلى البحر قذائفها، وبعد مباريات المصارعة التي تقام في المدينة يأتي كبار الموظفين في الدولة وأعيان المدينة إلى قصر الداي ـــو كذلك الشأن مع البايات في بايليكاتهم ــ لتقبيل يديه و تقديم التهاني بيوم العيد كما يحضر هذه المراسيم القناصل وشيخ البلد وأمناء الطوائف ومنهم أمين طائفة اليهود وعقب هذه المراسيم يدعى كبراء القوم لتناول الغذاء مع الداي على مائدته[34].

و في اليوم الثاني يعطى العبيد عطلة ليحتفلوا هم بدورهم بالعيد من غير أن يكونوا ملزمين بالخدمات التي يقدمونها لسادتهم في سائر الأيام.

---

32 ــ كذا في الأصل والصواب الأضحيات .

33 ــ وليم سبنسر ،مرجع سابق ،ص 101 .

34 ــ كاثكارت،مصدر سابق ،32

أما اليوم الثالث فيحتفل به بنفس الكيفية التي احتفل بها في اليوم الأول عدا إطلاق الصواريخ ومعايدة القناصل للداي[35].

و يذكر "بوايي" أحداث اليوم الأول بشيء من التفصيل والترتيب إذ يؤكد أن اليوم الأول يبدأ بخروج الداي إلى المسجد وبعد أداء الصلاة يذبح الداي كبش الفداء في القصر و بعد انتهائه يرفع العلم على سطح القصر وعندها تطلق مدافع البحرية طلقات تعلن للرعية أن الداي قد فرغ من الذبح وأنه يمكنهم أن يذبحوا أضحياتهم الآن.[36]

و في هذا الإجراء اتباع واضح للسنة النبوية بعدم الذبح قبل فراغ الإمام من ذبحه فقد أورد غير واحد من الفقهاء أن من ذبح قبل ذبح الإمام يعيد الأضحية فإنه خالف السنة.[37]

أما عيد الفطر فإن الاحتفال به لا يخالف في كثيرٍ الاحتفالَ بسابقه غير غياب الأضحية والاستعاضة عنها بمظاهر الفرح الأخرى .

35 _ كاثكارت،مصدر سابق ،ص32

36 _ P Boyer . op cit . PP 225 226

37 _ ابن أبي زيد القيرواني ، متن الرسالة ، (الجزائر : مكتبة رحاب، 1987) ص 82 .

ب/ الاحتفال بالختان وبعيد المولد:

يحتفل الجزائريون بختان أولادهم احتفالا كبيرا خاصة إذا كانت العائلة من طبقة اجتماعية رفيعة أو كانت ميسورة الحال ، و من العادة أن ينتظر الفقراء و البسطاء من الناس فرصة ختان واحد من أبناء هذه العائلات ليختنوا أبنائهم في نفس اليوم فتتكفل هذه العائلات بمصاريف الاحتفالات للجميع.

و يذكر "الشريف الزهار" أن احتفالات ختان ابن الداي مصطفى كانت منقطعة النظير فقد :

" أخرج الطباخين من دار الملك و أضاف إليهم آخرين و كذلك طباخي وزرائه ودعا أهل البلد من الخاص و العام و كافة الفقهاء و الطلبة و كافة أهل الجهاد من رؤساء و غيرهم و جمع كل أهل الآلات من ترك و عرب ... و رتبوا في كل ليلة من أنواع الملاهي على اختلاف أنواعها ... "[38]

فكان الإطعام للجميع وكذا ضروب الغناء والترفيه وإطلاق المدافع وعروض الفروسية والبهلوانات ودامت الأفراح سبعة أيام نال خلالها الناس غاية من الإنعام خاصة طلبة العلم و الزوايا

"و أمر بختان أولاد الفقراء فاجتمع منهم خلق كثير و رسم لكل واحد عشرة محبوب و استمر الختان في أولاد الفقراء عن الحالة نحو الشهر و يعطيهم مثل ما أعطى الأولين من الصبيان "[39] .

وعادة إعطاء الصبية المختتنين نصيبا من المال لا تزال سارية في الجزائر إلى اليوم يتوارثها الناس جيلا بعد جيل .

ويذكر "ابن حمادوش" قصة ختان لابنه بصورة يتجلى من خلالها أهمية الاحتفال بالختان وكيف لامه أهله لأن فقره دفعه إلى البعد عن الاحتفال فيقول :

"... و في يوم الجمعة لقيت حجاماً فأخذته معي إلى داري و ظننت[40] أن ابني

[38] ـ الشريف الزهار : مصدر سابق ،ص 83.

[39] ـ نفس المصدر ص 83 .

[40] ـ في الأصل و ظنت .

لا يعرفه، فدخلنا الدار و قلت له اصعد مع عمك للعلوى [41] ففر إلى خارج الباب فاتبعنه أنا و الحجّام و لم يعلم أهل المترل ما هو الأمر فقبضته و أتيت به العلوى فأمسكته فطهره وكان ختانا لم يعلم به أحد و كان أهلي طامعين أن يجعلوه وليمة عرس .فسقط في أيديهم و لاموني عليه "[42].

وكذلك كان حال الجزائريين في الاحتفال بعيد المولد النبوي، فلقد كانوا يولونه اهتماما بالغا ويحيون ليلته في المساجد يتلون القرآن ويرّشون ماء الورد كما تعد النساء أكلات شبيهة بتلك التي تعدها من رزقت بمولود جديد، وإن كان "ابن حمادوش" ذكر في رحلته وصفا لاحتفال أهل فاس بالمولد و علق عليه بأنه أحسن مما يحدث في الجزائر فقال:

"... و في ذهابي له لقيت الطبالين و العياطين و آلات الطرب كلها في السوق ذاهبين بأربع قباب من شمع ، كل واحدة من لون أحدها خضراء و أخرا [43] بيضاء وأخرى حمراء و الرابعة نسيت لونها أحسن مما يجعل في الجزائر عندنا "[44].

---

[41] _ المقصود هو الطابق العلوي .

[42] _ عبد الرزاق بن حمادوش ،مصدر سابق ،ص .

[43] _ كذا في الأصل و الصواب أخرى بالألف المقصورة .

[44] _ نفس المصدر ، ص 84 .

جـ / قراءة البخاري:

يذكر "ابن حمادوش" في غير ما موضع من رحلته ولع الجزائريين بقراءة صحيح البخاري في المناسبات و في غيرها و يذكر طرق هذه القراءة وكذا الاحتفال بختمها مما يجعل هذه القراءة من الأهمية الدينية بمكان عندهم خاصة في شهر رمضان وأثناء تعرض البلاد لهجمات الأعداء .

و عادة أهل الجزائر أنهم يقرؤون صحيح البخاري بحضور كبار شيوخهم ممن يروونه دراية ، فيقرأ المسمع من كتابه جزءا متفق عليه كل ليلة ويتابعه الحضور من الطلبة والعامة من خلال كتبهم التي بحوزتهم .

والغالب أن هذه الكتب مقسمة إلى أثمان و يقوم الشيخ بشرح ما أشكل على الحضور [45] .

وقد ذكر الشريف الزهار هذا الاهتمام من أهل الجزائر برواية البخاري وتفضيلها على غيرها رغم اهتمامهم برواية صحيح مسلم و السنن الأربعة، إذ يقول :

"...أما صحيح مسلم فكانت له ختمة واحدة لأن رواية البخاري عندنا أشهر وأظهر و إن كانت بقية الأسانيد الستة كذلك إلا أن أهل الجزائر لهم ولوع برواية البخاري و المشاهير من علمائهم يقرؤونه دراية و يبتدئون قراءته من أوله إلى آخره مدة ثلاثة أشهر من اليوم الأول من رجب و يختمونه في أواخر رمضان على وفق المراد فيكون الختم على بابه..."[46]

و من عادة أهل الجزائر أن يحتفلوا بختم رواية البخاري في الجامع الكبير فيرش الخدم ماء الورد ويتبادل الناس التهاني بتيسير الله لهذه الرواية كما يصلّون على النبي جماعة صلاةً معلومة لهم معهودة يوردها ابن حمادوش في رحلته و هي :

" اللهم صل أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، عدد معلوماتك و مداد كلماتك كلما ذكرك و ذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك و ذكره الغافلون "[47] .

---

[45] ــ ابن حمادوش،مصدر سابق ،ص ص 122ـ125 .

[46] ــ الشريف الزهار ،مصدر سابق،ص182.

[47] ــ ابن حمادوش،مصدر سابق ،ص125.

د / الاحتفال بليلة القدر:

يهتم الجزائريون بشهر رمضان ويحتفلون بقدومه ويحيون لياليه غير أن احتفالاتهم بليلة القدر وهي عندهم ليلة السابع والعشرين تفوق غيرها من الليالي إذ يقوم القائم بالجامع بإخراج كميات لا بأس بها من الشمع و يوزعها على الناس فيأتون بها إلى دار المفتي . فإذا صلى العصر خرج المؤذنون وغيرهم يحملون هذه الشموع فيطوفون بها المدينة إلى غاية دار الإمارة و يعودون من طريق غير التي جاءوا منها يسبقهم الحادي بالإنشاد والصلاة و السلام على النبي حتى يصلوا إلى المسجد فتُعلّق هذه الشموع في قناديل معدة لذلك ويحيون ليلهم إلى الفجر .

وفي صلاة الفجر يفتح الإمام كتابه ويقرأ ما تيسر من القرآن ثم يختم بذكر أوراد من الدعاء معلومة لمثل هذه المناسبة والناس تعيد بعده التسبيح كل هذا والخدم يرشون ماء الورد فإذا فرغوا قام الإمام بالدعاء للجميع والناس رافعة أيديها بالتأمين،كما يذهب الناس إلى ضريح "سيدي عبد الرحمن الثعالبي" فيحضرون ختم البخاري هناك بنفس الطريقة التي تحدث في داخل المدينة و يتهيأون لعيد الفطر[48].

وإذا كان هذا حال المساجد فإن أيام رمضان لدى العامة لا تقل احتفاءا فبعد إيذان المدافع بطلقاتها عن ميقات الإفطار و فراغ الناس من إفطارهم تتحول طرقات المدينة على غير العادة ليلا إلى ميدان للهو و التجوال وحضور حلقات المدّاحة والقوالين وعرائس القراقوز وقد ازدانت الشوارع بقناديل الشموع و اجتمع الناس في المقاهي يشربون ويستمعون إلى فرق الموسيقى والغناء والرقص إلى منتصف الليل حين تدق فرق من الزنوج موسيقاها معلنة نهاية السهرة فينصرف الناس إلى بيوتهم استعدادا ليوم جديد يبدأ باكرا.[49]

أما النساء في البيوت فيتزاورن فيما بينهن ويجتمعن في حلقات يشارك فيها الصغار حول مُسِنّة تروي قصصا و أساطير من التراث[50].

48_ ابن حمادوش ، مصدر سابق ،ص126 .

49_ P Boyer .op cit . p224 .

50_ Ibid. pp 224_ 225 .

العادات السياسية:

هناك مجموعة من العادات فرضتها السياسة على الجزائريين منها عادتهم في ترتيب الدنوش أو واجبات البايات نحو الخزينة العمومية، ومنها عاداتهم عند تعرض المدن الساحلية لحصار وقصف المدفعية وكثيرا ما تعرضت هذه المدن و خاصة العاصمة لهذه الهجمات الأوربية ومنها الاحتفالات التي تفرضها أفراح الباب العالي.

ولكون الجزائر أصبحت في عهد الدايات مستقلّة استقلالا شبه تام عن الدولة العثمانية وأصبحت في مقام الحليف السياسي والعسكري لها أكثر منها في مقام الولاية التابعة فإنها أصبحت في حلّ من جملة الأعراف والضوابط السياسية التي كانت تخضع لها سابقا ؛ لكنّ ذلك لا يعني لا مبالاة الجزائريين بالباب العالي، فإن الشواهد تؤكد احتفال الجزائر بكل أفراح الباب العالي ومشاركتها المستمرة في حروبه .

وإذا كان حكام الجزائر قد استقلوا عن سلطة الباب العالي إلا أنهم بقوا ملتزمين بالولاء لسلطة أخرى هي سلطة المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية، فقد كان لهؤلاء المرابطين سلطان كبير على العامة ولذلك فإن الحكام كانوا بحاجة ماسة إلى مساندتهم، ولولا هذه المساندة لما استطاعت الأقلية التركية المحافظة على سلطانها في الجزائر طوال هذه المدة، ولكّن هذه المساندة سرعان ما تحولت إلى مواجهة في العقود الأخيرة من حكم الدايات .

فما هي أهم هذه العادات التي حكمت الحياة السياسية بالجزائر ؟

أ / عاداتهم عند الحرب:

يذكر "الشريف الزهار" في معرض حديثه عن فترة حكم الداي محمد عثمان باشا واصفا حال الجزائريين أثناء تعرضهم لهجوم عمارة أوربية سنة 1184هـ فيقول:

"...ولما قدم الإصبانيول و شاهد الناس عمارته بحيث غاب البحر لكثرة المراكب ودهش الناس و قالوا ما لنا منجي ولا ملجأ إلا الله و هذا لا نكاد نقدر عليه ، وما لنا إلا الصبر و الدعاء. فقرؤوا البخاري و ختموه و تضرعوا لله ثم صبروا و ثبتوا حتى نصرهم الله ".[51]

أما في حالة الاستعداد لغزو العدو فقد أورد "ابن سحنون الراشدي" ما مفاده أن الجزائريين كانوا يغتبطون لرؤية استعداداتهم الحربية و يشاركون مع الجيش النظامي بقدر استطاعتهم، فأثناء حصار مدينة وهران شارك الأهالي في جر مدافع الباي و تعبيد الطرقات لها إذ يقول :

" ...ثم أصبح في اليوم الثامن من رجب من السنة المذكورة يخرج تلك الآلة من بلده فأخرجها إلى موضع يعرف بعقبة خدة بينه وبين البلد نحو الثلاثة أميال فكان يوم إخراجها من أيام النزهة العجيبة وأوقات السرور الغريبة خرج فيه الصغير والكبير و لم يتخلف أحد عن ذلك الفضل الأثير، فجرها الناس بأيديهم فرحين مستبشرين وهم ما بين صارخ من الفرح ومكبر ومصل على النبي صلى الله عليه وسلم وكلهم يبادر صاحبه ليفوته بما يجره وهو راكب معهم وطبوله ترعد خلفهم، ولما وصلوا بها المحل المذكور لحقهم ما كفى جميعهم و فضل أكثره عنهم من الطعام المعتاد و قدور اللحم المطبوخ بأنواع التوابل وصواني الحلاوات وغير ذلك مما لفظه بحر داره الكريمة ، وأما الخبز و الفواكه اليابسة فلا يعد ما أخرجه من ذلك يومئذ..."[52].

[51] ـ الزهار ،مصدر سابق،ص27.

[52] ـ ابن سحنون الراشدي ،مصدر سابق،ص249.

ب / الدنّوش:

كان بايات الجزائر يدنّشون كل ثلاث سنوات أي يدفعون مستحقات بايليكاتهم لدى الخزينة العمومية أما خلفاؤهم فكانوا يدنّشون كل ستة أشهر ما عدا حين يكـون هذا الموعد يوافق دنّوش الباي .

وتحكم هذه العملية طرق متعارف عليها وتقاليد رسمية يحترمها جميع البايات فـإذا حملها الباي كل ثلاث سنوات عرفت بالدنّوش و رافقها هيلمان كبير قـاده البـاي ورجال حاشيته وإذا حملها خليفة الباي عرفت بالدنّوش الصغرى أو العوائد .[53]

و قد قدم كثير من المعاصرين وصفا دقيقا لمراسيم تقديم هذه الدنـوش ومنـهم "الشريف الزهار" الذي يصف دنّوش باي الغرب قائلا :

"... تقدم الباي محمد باي، وجاء معه بتحف و أموال و هدايا كثيرة من الخيل العتاق والعبيد والمصوغ والأثاث الفاخر..خرج من معسكر وقومه يلعبون بالسلاح بين يديه ويضربون البارود والصناجق ترفرف والطبول تدق حوله. إلى أن وصلـوا موطن المبيت فنصبوا خيامهم وبنوا فساطينهم الملونة ، وباتوا ليلتهم علـى أكـل وشرب..فلما أصبح الله بخير قاموا بفريضة الصبح ركبوا وساروا وهـم يلعبـون ويضربون البارود والناس تتلقاهم بالهدايا للباي وهو يكافيهم على حسب المقامات ... وكل يوم عندما يصل جهة المبيت يوزع عليهم الدراهم ... وهكذا كل يـوم حتى يصل للجزائر خصوصا عندما تكون بينه وبين الجزائر مرحلتان أو ثلاثة فإنـه يجتمع عليه خلق كثرة للطمع..."[54].

و عندما تصل القافلة إلى العاصمة يستقبلها آغة العرب ومعه كبار الموظفين وعليـة القوم في مكان يبعد نصف ساعة عن الجزائر يقال له عين الربط ومنه يسير موكـب مهيب نحو دار الإمارة للقاء الداي وفي الطريق يوزع الباي المال على الفقراء فيرمي لهم بالدراهم في الشارع يمنة ويسرة إلى أن يصل إلى قصر الإمارة و البراح أمامه ينـادي بالصلاة على النبي وعند وصوله دار الإمارة يخضع الباي والوفد المرافق لـه لمجموعـة معقدة من التقاليد أهمها توزيع الهدايا على الداي وكبار الموظفين بحسب الرتب.

53 _ ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، مرجع سابق ، ص 100 .

54 _ الزهار ، مصدر سابق ،ص ص 36 _ 37 .

ولهذه الهدايا الدور الحاسم في حفاظ الباي على منصبه والرضا عنه في حالة سخائه، وفي عزله والسخط عليه في حالة العكس .

ففي الحالة الأولى يبقى الباي في ضيافة الداي لمدة أسبوع ويدعى فيه لحضور مائدة الداي و موائد الوزراء و تقدم له هدايا بدوره من قبل الداي ووزرائه ثم يسايره الآغا إلى عين الربط ومنها ينطلق إلى بايلكه عائدا [55].

ويقدم الخزناجي للباي قسيمات عليها كشف بالأموال التي قدمها للخزينة كإثبات يحفظه في سجلات البايليك لمراجعة الحساب أو للاستشهاد به في حال وقوع أي لبس وتعرف هذه القسيمات بـ" تذاكر الخلاص " [56].

وبطبيعة الحال فإن الطريقة نفسها تحكم دنوش البايات الآخرين ولا تختلف عنها إلا في قيمة "اللزمة" وهي القدر المفروض على البايليك من الضرائب وكذا في نوع الهدايا المقدمة .

[55] _ سعيدوني ، النظام المالي ،مرجع سابق،ص101.و أنظر كذلك الشريف الزهار ، مصدر سابق،ص45_46.

[56] _ الشريف الزهار ، مصدر سابق ، ص 29 .

جـ / الروابط مع الباب العالي:

تعرف الهدية التقليدية التي تقدمها الجزائر للسلطان العثماني بالباشكاش وكانت تبعث في العادة على ظهر سفينة إحدى الدول التي تربطها علاقات ود مع الجزائر كفرنسا مثلا، فيقابلها السلطان بالترحاب ويكرم وفادة مرافقيها ويبعث معهم بفرمان التعيين للداي الجديد وبهدية للدولة غالبا ما تكون عتادا حربيا لتدعيم الأسطول .

ويقيم الداي عند وصول آغة الباشكاش بالخلعة والتقليد أفراحا يحضرها العامة والخاصة يصفها الزهّار بقوله :

" ... واجتمع الديوان والعلماء ونقيب الأشراف والمشائخ وأعيان البلد ومن لزم حضوره من الكرام ثم ألبسوا الخلعة للباشا وتقلّد القلج [السيف] وقرىء الفرمان جهرا على رؤوس الملأ ، وانطلقت المدافع بإعلان البشارة ، وبسطت الأكف بالدّعاء ، وابتهل الناس بالطلب من المولى المنان بدوام نصرة السلطان . ثم جلس الأمير على كرسي المملكة وأجريت رسوم تقبيل يده ، وبورك له بالأمر الذي استولى عليه . وكان يوما معهودا بالسرور ، ولم يشهد مثله في غابر الدهور."[57]

و رغم أن البلاد أصبحت تتمتع باستقلال شبه تام عن السلطان العثماني في عهد الدايات إلا أنها حافظت على بعض المراسيم التي بقيت تضبط عاداتها السياسية ومنها مشاركة الجزائريين في أفراح الباب العالي . فقد أورد الزهار أخبارا عن اشتراك الجزائر سنة 1240 هـ في الاحتفال بمولد السلطان عبد المجيد ودامت المدافع مدوية بطلقاتها لمدة سبعة أيام وأرسل الداي إلى عمّاله في البايليكات بالبشارة . وفي العام الموالي جاء رسول السلطان يخبر عن ميلاد ابنة للسلطان محمود فكان موقف الجزائر مماثلا إذ :

"... وقع مهرجان كبير في باب الجهاد . ومن الغد أحضر الباشا العلماء ونقيب الأشراف وكافة أهل الديوان ،وأعيان البلد ولبس الخلعة السلطانية وضربت النوبة ، وأطلقت المدافع صباحا ومساءا من جميع الحصون سبعة أيام ، وبعث البشائر لجميع البايات والقيّاد ... " [58].

---

[57] _ الشريف الزهّار ، مصدر سابق ، ص 145 .

[58] _ نفس المصدر ، ص 158 .

د / المرابطون:

لقد كان الدافع الديني هو سبب التواجد العثماني في الجزائر منذ البداية فالخطر الصليبي الذي كان يتهدد السواحل المغاربية هو المبرر الظاهري على الأقل للتدخل العثماني في المنطقة . هذا من جانب العثمانيين أما بالنسبة لسكان المنطقة فإن هذا الدافع هو وحده الذي أرغمهم على طلب المعونة العثمانية .

ولما كان أمر الدفاع عن السواحل الجزائرية موكولا بالدرجة الأولى إلى المرابطين فقد نالوا الحظوة بدخول العثمانيين ونشأت بينهم وبين السلطة الجديدة علاقة ود متبادلة بين الطرفين نظرا لحاجة كل منهما للآخر فقد كان المرابطون في حاجة إلى سلطة قوية تدعمها قوة عسكرية قادرة على صد الخطر الصليبي المحدّق بالمغرب الإسلامي قاطبة واسترجاع ما ضاع من مدن ساحلية لصالح إسبانيا والبرتغال ، وفي الوقت نفسه كان العثمانيون في حاجة إلى قوة محلية تدعم وجودهم وتزكي بقاءهم وتبرر بعض أخطائهم ولم يكن هناك أحسن من القوة الروحية التي يمثلها المرابطون .

"وشاع في الجزائر التحالف بين العثمانيين والمرابطين حتى عرف الناس أن هناك سياسة عامة متبعة ، فكثرت الأضرحة والقباب ودخلت الطرق الصوفية من المشرق ومن المغرب وجاء الدعاة الحقيقيون والأدعياء المزيفون ينشرون أفكارهم وأورادهم بين الناس ، وأصبحنا لا نكاد نجد قرية أو مدينة بدون العديد من الزوايا والأضرحة والمشاهد . وعند كل بناية أناس يتبركون ويدعون ويزورون ويتقربون يقيمون الحضرة ويقدمون الهدايا ويذبحون الذبائح آتين من كل فج ... وأصبح الحكام يظهرون كل الاحترام والتبجيل لأهل التصوف الحقيقي والكاذب معا أما العامة فلا تسأل عن أحوالها وعقائدها ومستواها الخلقي والاجتماعي"[59].

ويذكر "عبد الرحمن الجيلالي" _ بعدما يصف أفضال الطرق الصوفية في نشر الإسلام بالطرق السلمية في إفريقيا وآسيا والوقوف في وجه الإرساليات التبشيرية وتقديم الخدمات الاجتماعية _ أن الترك لما صاروا

---

[59] _ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1981) ، ج1، ص472.

"...سادة البلاد الجزائرية ، اضطروا إلى اتخاذ سياسة صوفية ، و مثلهم في ذلك دولة الأشراف في القسم الغربي من الشمال الإفريقي ، فإذا كانت المناطق الغربية في الشمال الإفريقي تحتوي خصوصا على زوايا شاذلية فإنه في القسم الذي كان يسيطر عليه الأتراك كانت السيادة فيه للزوايا القادرية واعتمد الترك على جماعات هذه الطريقة القادرية وكذلك سائر زعماء الطرق بصفة عامة والصوفية المحليين بصفة خاصة فأحاطوهم ... بالدعاية ومظاهر الاحترام ورفعوا من شأنهم في نظر العامة و لم يقصروا في مجازاة خدماتهم بسخاء ولا في عقاب مظاهر المعاداة لهم بقسوة..."[60].

وبلغت عناية الأتراك بهؤلاء المرابطين لدرجة تقديسهم وتحبيس الأوقاف عليهم ورفع الضرائب والمطالب المخزنية عنهم وعن عائلاتهم بل وإن "بوايي" الذي يذكر بعض الرعاية التي يوليها الأتراك للمرابطين والمكانة التي أصبحت لهم في الحياة العامة يقول أنه حتى أخطاؤهم تبرر تبريرا يحفظ لهم مكانتهم كما حدث مع المرابط الذي اعتدى على عرض بنت قنصل إحدى الدول الأوربية الشمالية و لم يتجرأ أحد على منعه كما أن الداي الذي تقدم أبوها بشكوى إليه لم يكن رده عليه سوى أن ما قام به المرابط هو شرف له ولابنته[61].

وسواءٌ أصحَّت هذه الرواية أم لا فإنها دلالة على المكانة التي كان يحتلها المرابطون في نفوس العامة وكذا لدى السلطة .

ولما كان هذا وضع المرابطين فإن كثيرا من الأدعياء دخلوا هذا المجال فادعوا الولاية، وكثرت بدخولهم هذا الميدان الشعوذة والخرافات وادعاء الكرامات والخوارق، حتى بلغ الوضع إلى درجة من الانحطاط الفكري والخلقي وتجاوز الحدود

[60] _ عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق ، ج3 ، ص255.

[61] _ P. Boyer. op cit p 80.

الشرع ما دفع ببعض العلماء إلى مواجهة هذا التيار في مؤلفاتهم كما هو الحال مع "عبد الكريم بن الفكون" في "منشور الهداية"[62] و"الورتلاني" في رحلته .

ولقد علّق "الورتلاني" على ما لحق بالطرق الصوفية من انحرافات وتجاوزات أخلاقية إلى حد جعله يصفهم باتباع خطوات الشيطان والابتداع في الدين خاصة ما أحدثوه من أمر الغناء والرقص للتعبد في الحضرات التي يقيمها الشيوخ لمريديهم وما يرافقها من جذب وفقدان للعقل فيقول :

"وقد عمت البلوى والعياذ بالله بانكباب أبناء الطوائف على السماع بالدفوف والمزامير وسائر الآلات والأشعار والألحان واتخذوا ذلك صراطا مستقيما واتبعوا فيه شيطانا رجيما ونبذوا السنة وراء ظهورهم وزالت هيئة الشريعة من صدورهم وكان لهم ذلك ديدنا في سائر الأزمان فصاروا مسخرة للشيطان ..."[63].

ويذكر بعض الشيوخ الذين اشتهروا باتباع السنة وآثار الصلاح غير أنه يذم اتباعهم لسماع الموسيقى واتّخاذ ذلك عبادة ، وإن كان لا يقدح في هؤلاء الشيوخ مباشرة إلا أنه يشدد النكير على من يقتدي بهم من المنتسبين إلى الطرق وينصحهم باتباع السنة واجتناب مواقع الظنة لأنه كغيره من علماء العصر يعتبرون أن من درج في التصوف وأصبح من أهل الكشف كما يسمونهم يسوغ له ما لا يؤذن لغيره ، بل إنه يذكر حادثة وقعت لواحد من هؤلاء الشيوخ هو الشيخ سيدي محمد بن سالم الزليتني فيقول :

"حج مع شيخنا الوالد رضي الله عنه وأرضاه بعض أهل زاويته وكان يسمع بالدف على عادتهم فبعث إليه الشيخ فقال له إن أردت مرافقتنا فاترك هذا السماع

---

62 _ ذكر ابن الفكون في كتابه هذا وخاصة في الفصل الثالث منه أن كثيرا ممن تشهد لهم العامة بالصلاح و الكرامات بل ويقدسهم حتى بعض الخاصة إنما هم دخلاء على هذا الفن فلا صلة لهم بالتصوف ولا بالزعامة الدينية ويقدح حتى في علمهم وصلاحهم ويعتبر تأليفه بدعا من التآليف في زمانه ، انظر تفصيل ذلك في الدراسة التي أجراها له المهدي بوعبدلي ،" عبد الكريم بن الفكون القسنطيني (988_ 1073) والتعريف بتأليفه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية " ، الأصالة عدد 51 ذو القعدة 1397 هـ/نوفمبر1977م ، ص ص 14 _ 32 .

63 _ الورتلاني ، مصدر سابق ، ص ص 187 _ 188 .

وإلا فاعتزلنا فاعتذر بأن ذلك من عادات أسلافه فلم يقبل منه الشيخ ذلك و لم يزل به حتى ترك السماع"[64].

وقول "الورتلاني" هذا لا ينبغي أن يفهم منه أنه معاد للصوفيـــة أو للمرابطـــين جميعهم وإنما هدفه النكير على المغالين في الضلال بما عاكس الصواب وخالف الشريعة بشكل فاحش فقد أورد في رحلته الفصول الطوال عن زيارته لأضرحة بعض الأوليــاء والصالحين وذكر كراماتهم وأفضالهم .

[64] ـ الورتلاني ، مصدر سابق ، ص 187 .

العادات الثقافية :

إن الوضع الثقافي لأي بلد يأخذ صبغته وشكله من خلال الوضع الاجتماعي والسياسي العام والجزائر كغيرها من الدول العربية الإسلامية تأخذ مشروعها الثقافي من الأسس الثقافية للحضارة الإسلامية السائدة آنذاك، ومن الطبيعي أنه في حالة ما إذا وقع ضعف أو خلل من السلطات المركزية في تبني هذه المشاريع لأي سبب من الأسباب فإن الجماعات المحلية هي التي تتبنى قضاياها الثقافية بنفسها منهجيا وماديا، ولما كان النظام العثماني متجها إلى جهاد البحر لصد الهجمات المسيحية المستمرة على سواحل المغرب الإسلامي ثم إلى النظامين الإداري والمالي فإنه أهمل قضايا الثقافة لفترات طويلة فتسبب ذلك في تقلص المعارف ونزول مستواها لأن من عيوب الثقافات التي تتبناها الشعوب في فترة غفلة الدولة عن المجال الثقافي هو اللجوء إلى التقليد والجمود والابتعاد عن الاجتهاد وكل ما له علاقة بالعلوم العقلية وتخزين المعارف الموروثة دون اكتراث بالبحث والنقد والتحليل .[65]

و ها هو "الورثلاني" في رحلته يتحدث عن العلوم التي كانت تدرس في الجزائر والتي لم تكن تتعدى الفقه وعلم الكلام أما غيرهما فليس له أهمية ، فيقول:

> "... غير أن أهل وطننا لا يشتغلون بالإعراب أتم اشتغال وإنما دأبهم بالفقه وأصول الكلام وإنما مسائل الإعراب والمنطق والتصريف والبيان والأصول فعلى طرف الثمام"[66].

غير أن بعض الباحثين والملاحظين الغربيين وخاصة السياسيين الذين زاروا الأيالة آنذاك يتعرّضون إلى الجوانب الثقافية الضعيفة مثل العلوم الطبية والرياضيات والفلك وغيرها فيلاحظون انعدامها أو ضعفها ويسارعون إلى مقارنتها بنظيرتها الغربية ثم يخلصون إلى نتيجة مفادها أن المجتمع الجزائري يرفض كل ما هو علم مستحدث على أنه من التفاهات التي يختص بها الأوربيون .[67]

---

[65] _ عبد المجيد مزيان ، "الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل عهد الاستعمار "، الثقافة ، عدد90 نوفمبر / ديسمبر 1985،ص 36.

[66] _ الورثلاني ، مصدر سابق ، ص 549 .

[67] _ Shaw . op cit . p 77 .

أ / وضع العلوم:

إن الحديث عن الوضع العلمي في الجزائر أثناء وقبيل التواجد العثماني يقودنا إلى التركيز على أهم الحواضر و مراكز الإشعاع العلمي و الحضاري وهي مدينة تلمسان في الغرب الجزائري ومدينة بجاية و مدينة قسنطينة في الشرق.وكانت هذه المراكز مقارنة مع الوضع العام للبلاد تعد أهم مراكز توارثت العلم وازدهرت بها المعرفة ،كما اشتهرت بها أسر علمية . وكذلك الشأن بالنسبة لمدن أخرى مثل الجزائر بسكرة ووهران لكن هذه كانت أقل مستوى من سابقاتها أما الريف الجزائري فكان يرسف في أغلال الجهل وكان حظه من العلم قليلا جدا وحتى أبناؤه من الطلبة الذين يسافرون إلى هذه الحواضر طلبا للعلم فإنهم سرعان ما يستقرون بها ولا يعودون إلى قراهم بعد اكتمال تعلمهم ما جعل الرحالة "حسن الوزان" الشهير بـ "ليون الإفريقي" يصف هذه الأرياف حين المرور بها قائلا :

"لا يوجد بين السكان من يملك قليلا أو كثيرا من العلم .لدرجة أن أي أجنبي يمر ببلدهم ، ويكون على جانب من العلم ، يتشبثون ببقائه لديهم ، ويحيطونه بمظاهر الاحترام و الإجلال ، يلجئون إليه لتسوية نزاعاتهم ، ويتخذون منه مستشارا يطلبون إليه الرأي لحل خلافاتهم ".[68]

لكن هذا الوضع لم يبق على ما هو عليه فقد ظهرت بدخول العثمانيين إلى الجزائر حركة جديدة تعدت مراكز الإشعاع سابقة الذكر وانطلقت إلى الريف بجباله وسهوله وكذا الصحاري وانتشرت الزوايا العلمية كما تحولت الزوايا الدينية القديمة إلى احتضان التعليم بعدما كانت تقتصر على الإطعام وإيواء عابري السبيل.

وقد ساهم في هذه النقلة النوعية نزوح علماء الأندلس إلى الجزائر فارين من بطش الكنيسة في بلادهم يرافقهم اعتقادهم بأن ما أصابهم بالأندلس مرده إلى الابتعاد عن الدين فأرادوا تدارك ما فاتهم فأخذ بعضهم يجوب البلاد لاستنهاض الهمم والحث على الجهاد والعودة إلى الدين وعلومه [69].

---

[68] _ Jean.Leon l Africain. Discription de l Afrique trd par A.Epaulard.(Paris : librairie d amerique et d orient 1981) pp 348_349.

[69] _ العيد مسعود ، " حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني " سيرتا ، ماي 1980 ص 60 .

غير أن اهتمام السلطة الحاكمة بهذا الجانب انعدم بعد ذلك وخاصة بمجيء الدايات مما جعل عملية التعليم تصعب على طالبيها والمتكفلين بها وهو ما يلاحظه "الورتلاني" في رحلته فبعدما يذكر المدارس الحكومية في تونس ويثني عليها حتى نوى الإقامة بها وذلك:

" ...رغبة في نشر العلم وبثه لكثرة الآخذين فيها مع عدم الكلفة للطلبة الآخذين بخلاف وطننا فإنه لابد من كلفة الطلبة والإقامة بمؤونتهم وإلا انقطع مادة العلم "[70].

وتسبب ذلك في هجرة الكثير من الطلبة والعلماء الجزائريين إلى تونس ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية طلبا للعلم ويذكر "الورتلاني" في رحلته عددا من العلماء المهاجرين من الجزائر إلى تونس ومصر ، الذين التقى بهم خلال هذه الرحلة [71]، ومنهم أحمد بن عمار مفتي الجزائر ، وأحمد بن حمود ، والصالح القصاري ، وأحمد الصديق الجزائري ، والشيخ عبد الله بن رحاب من أولاد دراج ، وهو صهر الرحالة ، وعبد العزيز عم الورتلاني ، وقاضي مدينة المدية الشيخ ابن نوة وغيرهم .[72]

والجدير بالذكر أن العلوم المتداولة في الجزائر آنذاك سواءٌ انتشرت أم قلت لم تكن تتعدى كما سبق الذكر النقلية منها أي الدينية أو الشرعية مع بعض ما تدعوا الحاجة إلى إضافته إليها كعلوم اللغة كونها أداة وبعض المنطق للاستدلال في علوم العقيدة ومقارعة الخصوم أما العلوم العقلية فتكاد تنعدم .

و العلوم الشرعية التي كانت تدرس هي القرآن وما يلازمه من علوم كالتفسير والقراءات وغيرها وعلوم الحديث وفقه العبادات والمعاملات وإذا كان الإنتاج العلمي في الشرعيات غزيرا فإن جانب الإبداع والجدة فيه كان معدوما . بل إن كل محاولة للخروج عن طوق التقليد وتقديس الموروث كان يعتبر مغامرة كثيرا ما حملت أصحابها إلى الموت المؤكد وكثيرا ما استعملت هذه القضية لأغراض سياسية أو

[70] ـ الورثلاني ، مصدر سابق ، ص 678 .
[71] ـ مختار بن الطاهر فيلالي مرجع سابق ص 169 .
[72] ـ الورثلاني ، مصدر سابق ، ص 286

للتخلص من الخصوم فقد ذكر "الورتلاني" الصراع الشديد الذي قام بين "الشيخ عبد القادر الراشدي" وعلماء قسنطينة فقال :

" وقد وقعت بينه وبين طلبة قسنطينة مخاصمة عظيمة ومنازعة كبيرة حتى رموه بالتجسيم[73] بل بعضهم كفره ومن الإسلام أخرجه وذلك أمر عظيم في الدين ...وإنما هو تحامل عليه سببه الحسد والغيض والتنافس أو إنما رموه بذلك لما علموا منه من كونه طويل اللسان عليهم بالعلم بل وقد نسبوا له كثرة الرشوة وغير ذلك مما لا يناسبه ...إلى أن أرادوا الفتك به عند السلطان فسلم والحمد لله ونجا من شرهم غير أنهم أخرجوه عن الموضع المعد له من القضاء وصيروه لأنفسهم ... "[74].

وظاهرة التقليد هذه جعلت الإنتاج العلمي يختلف من علم لآخر فالعلوم التي تعتمد على الحفظ كان إنتاجها غزيرا، أما العلوم التي تحتاج إلى سعة أفق واطلاع ثقافي واسع واستقلال عقلي كبير مثل التفسير فقد ندر فيها الإنتاج، ومع ذلك فقد اشتهر مجموعة من العلماء في ذلك العصر بالتفسير مثل "عبد القادر الراشدي القسنطيني" و"محمد الزجاي" وشيخه "ابن لؤلؤ" ويذكر "ابن ميمون" أن القاضي أبو علي حسين وكان من قضاة الداي محمد بكداش قد نبغ في التفسير فيقول :

"...قيوم البيان و رئيس علوم اللسان و علامة تفسير القرآن...".[75]

بيد أن هؤلاء العلماء و غيرهم لم تكن إنجازاتهم في التفسير غير مجموعة من الشروح لتفاسير سابقيهم أو زيادة في تبسيطها وأغلبهم اشتهر في تدريس التفسير وليس في التأليف فلا نكاد نعثر على واحد من تآليفهم، وقد ذكر "ابن ميمون" الفقيه "مصطفى ابن عبد الله البوني" وقال بأنه كان يدرس في حلقته تفسير الشيخ عبد الرحمن الثعالبي .[76]

[73] _ المجسمة فرقة من الفرق الإسلامية من رؤوسها "هشام بن الحكم" القائل : "إن الله جسم محدود ،عريض، عميق،طويل طوله مثل عرضه،وعرضه مثل عمقه ..." أنظر : أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،ج1، (بيروت : المكتبة العصرية ، 1990) ،ص 281.

[74] _ الورثلاني ، مصدر سابق ، ص ص 697_698 .

[75] _ ابن ميمون ،مصدر سابق ،ص146.

[76] _ نفس المصدر ،ص235.

و حتى الذين اشتهروا بالتأليف كـ "أبي راس الناصري" فإن تآليفهم لم تتعد كونها منقولات عن شيوخ سبقوهم إما مشافهة أو من تقاييدهم فقد وصف الناصري كتابه بأنه ينقسم إلى ثلاثة أسفار في كل سفر عشرون حزبا أما عن مضمونه فيقول :

"...طالما تكلمت فيه نقلا من كتاب شيخ أو فيه مع الزمخشري و البيضاوي، وابن عطية وغيرهم فيا لها من عطية . وتقييد على الخراز و الدرر اللوامع والطراز..." .[77]

و يذكر أبو القاسم سعد الله مجموعة أخرى من العلماء الذين اهتموا بعلم التفسير إما تدريسا أو تأليفا إلا أنه يؤيد الرأي الذي سبق الحديث عنه من أن أغلبهم لم يبدعوا و أن تآليفهم اتسمت بالبساطة وغلبت عليها العامية مجاراة لطبيعة المجتمع.[78]

أما الحديث و علومه فقد كان خيرا من سابقه ذلك أن الجزائريين اشتهروا بقوة الحفظ و قد سبق الحديث عن اعتنائهم برواية البخاري و اقتران روايتها بأغلب الاحتفالات الدينية و كذا حين تعرض البلاد لهجمات الأعداء، وقد لمع في سماء الجزائر عدد من العلماء الذين يحفظون الصحاح عن ظهر قلب مع حفظ المتون الطوال في علم مصطلح الحديث حتى أصبح الحفظ هو الفاصل بين العلماء وميزان السبق بينهم و أساس الاحترام و التقدير وأصبح طلب الإجازة من الحفاظ والسفر في طلبها ديدن الطلاب في ذلك العهد وقد تحدث ابن حمادوش عن هذه الإجازات كثيرا وسجل معظمها في رحلته لأنها كانت دليلا على قدر العالم ومبلغه من العلم أو شهادتهم العلمية في ذلك الزمان وكانت الإجازات في علوم الحديث يتصل فيها سند العلماء إلى أصحاب الصحاح ومنهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام دلالة على صحة مروياتهم.

و يعدد "ابن حمادوش" في رحلته شيوخ "الورززي" واتصال السند بين الورززي والنبي عليه الصلاة و السلام ليوضح قيمة الإجازة التي حصل عليها منه ثم يعرض هذه الإجازة والتي جاء فيها :

---

77 _ أبو راس الناصري ، مصدر سابق ،ص179.

78 _ أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر ... ، مرجع سابق ،ج2 ص ص20_21 .

"...فأسمعته بعض موطأ مالك بن أنس رضي الله عنه من رواية يحي بن يحـــي الليثي وأجزته سائره و أسمعته بعض صحيح مسلم بن الحجاج القشيري و أجزتـــه سائره ورغبني أيضا أن أجيزه في كل ما صحت لي روايته من مســــموع ومجــاز فأسعفته فأجزته أن يروي عني الكتب الستة ...و موطأ مالك و مسند أحمــد بــن حنبل وهذه سمعتها كلها من شيوخنا رحمنا الله و إياهم ...".[79]

والجدير بالذكر أن العلوم الحربية وحدها بين العلوم العقلية حضيت بالاهتمام لعلاقتها بالجهاد ميدان العثمانيين المفضل ومنها ما كتبه الرايس إبراهيم بن زكريا الأندلســــي حول المدافع وفنون صنعها واستخدامها.[80]

[79] ـ ابن حمادوش ، مصدر سابق ، ص37.

[80] ـ إبراهيم بن زكريا الأندلسي ، كتاب العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالعاصمة تحت رقم 1511 و 1512 .

ب / وضع التعليم :

لقد رأينا في بداية المبحث وضعية العلوم في البدو والحضر وما هي الظروف التي دخلت في هذا التوزيع . لكن أمورا تدخلت وغيّرت هذه الوضعية ، فحدث توازن نوعي بين الريف والمدينة ورأينا كذلك نوعية العلوم المدروسة . فما هي مراكز التدريس في هذا العهد ؟

1 ــ الكتاتيب :

الكتّاب هو المرحلة التعليمية الأولى التي يمر بها الطفل أو كما يسمى اليوم المدرسة الابتدائية .والكتّاب نوعان : بدوي وحضري ، فأما البدوي فيسمى الشريعة[81] أي مكان تدريس الشريعة ، وهو عبارة عن خيمة ممتازة وسط الحي البدوي تخصص للتعليم . وأما الحضري فيسمّى "مسيد " أو مكتب .

ويلتحق الأطفال بالكتّاب عندما يبلغون السادسة حيث يتعلمون الكتابة والقراءة، وتُركّز برامج التدريس على تعليم مبادئ اللغة العربية واستظهار كتاب الله وتعليم بعض مبادئ الحساب والتدريب على الزخرفة والخط[82] .

كان كل كتّاب عبارة عن خيمة تحوي ما بين 15 إلى 20 صبيا ، وكان كل حي في المدينة يتولى تعيين مُعلّم يشترط فيه أن يكون مثقفا وأن يكون رجلا خيّراً .

إذا نظرنا إلى المرونة النظامية للمؤسسات التعليمية فإننا نلاحظ طواعية هذه المؤسسات للحاجيات الاجتماعية ، فهي في غالب الأحيان مفتوحة الأبواب والحلقات للصغار والكبار ، والأساتذة أحرار في تعيين موادهم وتوقيتهم ومنح إجازاهم ، ولكن هذا لا ينفي تحديد المستويات .

كما أنه لا يوجد تحديدات ضيقة تفصل بين طبقة المؤسسات نفسها : فمسجد الحي والجامع والمدرسة (المسيد) ، لها صفاتها وميزاتها بالإضافة إلى صفاتها المشتركة

[81] ــ مازال سكان البوادي بالغرب الجزائري يستعملون هذه التسمية ونظرا لأن هذه الكتاتيب غالبا ما يدفن بالقرب منها شيوخ القبيلة تحول هذا المصطلح ليعني المقبرة

[82] _ P. Boyer . op cit . P 201 .

والتكاملية فيما بينها . ولكل منها وظيفتها الاجتماعية والتاريخية التي لا يمكن أن نغفل عن معرفتها .

2 _ الرباطات والزوايا :

إن الرباط في الأصل من بيوتات الاعتكاف والعبادة وتعليم الشريعة ، والشيوخ والطلبة فيه منقطعون لمدة يختارونها حسب طاقاتهم للتعمق في معارفهم الدينية ولممارسة تدريباتهم الروحية .

وقد عرفت الحركات المرابطية تطورا كبيرا وانتشارا شعبيا في المراحل التي تغيب فيها السلطات الحاكمة عن أداء دورها في حماية البلاد والدفاع عن الدين ، وسرعان ما تحول هذا الانقطاع للتعبد والاستعداد لملاقاة العدو إلى انقطاع للتعلم خاصة عندما استطاع العثمانيون أن يتكفلوا بصد العدو وطرده عن جل السواحل، فلم يعد لهذه الحركات المرابطية مبرر وجود فتحولت إلى مساندة هذه السلطات في محاربة العدو وإلى تعليم الطلبة أمور دينهم .

وقد انتشرت الزوايا في بداية العهد التركي في الريف ، بالإضافة إلى الزوايا التي كانت قائمة في المدن ، والتي استحدثت بها خلال هذا العهد ، لكن زوايا المدن لم تكن لها أهمية زوايا الريف فقد استطاعت على حداثة إنشائها أن تنافس زوايا عريقة كزاوية سيدي "عبد الرحمن الثعالبي" بالعاصمة وكذلك زوايا مماثلة في مدن : تلمسان، وهران، بجاية وقسنطينة[83].

وقد سهلت الزوايا المرابطية وساعدت على انتشار التعليم ، لأن المباني كانت جاهزة فلم تتطلب حركة التعليم في الريف كبير وقت أو عناء لانطلاقها ، ولذلك ازدهرت حركة التعليم في الريف بسرعة فائقة مما جلب حتى طلاب المدن إلى الدراسة فيها.

و قد أورد كثير من العلماء في مؤلفاتهم ارتحالهم من مدنهم إلى الزوايا الشهيرة بالريف طلبا للعلم، كما هو الأمر بالنسبة إلى الشيخ "سعيد قدورة" العالم المشهور _

83 _ العيد مسعود ، مرجع سابق ، ص 63 .

وهو من أبناء مدينة الجزائر _ فقد تتلمذ في زاوية "محمد بن علي أبهلول المجاجي" في "مجاجة" وقد صرح هو بذلك قائلا :

" سافرت لطلب العلم فقصدت زاوية الشيخ العارف بالله سيدي محمد بن علي وأخيه ابن علي أبهلول المجاجي _ نفعنا الله به آمين _ ، وكان الشيخ محمد بن علي شديد الاعتناء بالتدريس والعلوم وفنونها ، كالتفسير ، والحديث ، والأصول والبيان والمنطق واللغة وعلم النجوم والطب وغيره . وقد جمع علم الشريعة وعلم الحقيقة ولا نظير له في عصره ، وكان يشد له الرحال لقراءة الصحاح عليه من بلاد مصر وتونس وغيرها".[84]

وكان من مزايا الزوايا حدوث توازن في التعليم بين المدينة والريف واتساع قاعدة التعليم .لكن من المهم جدا أن نذكر الفرق بين الرباط والزوايا وبين الأنظمة الطرقية ورباط الجهاد ، فتعدد مهام كل مؤسسة بين العبادة والعلم كثيرا ما أدى إلى بعض الغموض في تحديد المهام والأهداف .فإذا كان الرباط غير خاضع لطريقة بعينها مع تفتحه في كثير من الأحوال على التعاليم الصوفية والمجاهدات الروحية . فإن الزوايا تعد قبل كل شيء مؤسسات مبنية على نشر الدعوة الطرقية ، فهي صوفية قبل كل شيء ولكنها تجمع في تعليمها بين تحفيظ القرآن والفقه والعقيدة والتربية الروحية والتهيئة للجهاد.[85]

ويجب الإشارة للطابع الشعبي لثقافة الزوايا مما جعلها تسد الفراغ الذي عانت منه البلاد من نقص في الاهتمام بالتعليم .ويرى "عبد المجيد مزيان" :

" أن إشعاع بعض المؤسسات القروية مرده إلى ظاهرة الانفجار الطرقي الذي بدا للوجود في مؤخرة القرن الخامس عشر آخذا شكله الشمولي الشعبي ، وقد اقتصر نشاط بعض الزوايا على تعليم العقيدة وتجنيد الشعب للجهاد ومن الجدير أن نذكر أنّ الدين الإسلامي جاء لإلحاق الأميين بالمتعلمين والبدو بالحضر ، والشفهي بالكتابي ، ورسالته جاءت تحارب كتمان المعارف ".[86]

[84] _ العيد مسعود،مرجع سابق، ص61 .

[85] _ عبد المجيد مزيان ، مرجع سابق ، ص44.

[86] _ نفس المرجع ، ص 38 .

وقد تأسست في الجزائر خلال العهد السابق على العثمانيين مدارس من هذا الطراز حظيت بشهرة كبيرة، وقد أشار إلى بعضها الرحالة المغربي "الحسن الوزان" ، فذكر أن بتلمسان خمسة مدار س حسنة التصميم ، مزدانة بزخارف القسيفساء. وقد شاهد في بجاية عددا من المدارس ، كما شاهد في قسنطينة مدرستين . وقد عرّف "أبو راس الناصري" المدرسة بقوله :

"المدرسة المتعارف عليها عندنا الآن هي التي تبنى لدراسة العلم ، أي لتعليمه وتعلّمه."[90]

وفي قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري أسّس "صالح باي" (1779) مدرسة سيدي الأخضر الملاصقة للمسجد المسمى بهذا الاسم ، كما شيّد مدرسة سيدي الكتاني سنة 1776 م لتعليم مختلف الفنون ، وجعل لمدرسة سيدي الكتاني نظاما خاصا محكما، وما تزال هذه المدرسة قائمة إلى وقتنا الحاضر . كما شيّد مدارس أخرى في عنابة والقل وجيجل وكان يُلحق بالمدرسة جامعٌ وكتّابٌ ودارٌ للكتب[91].

ومن أهم المدارس التي يجب ذكرها المدرسة التاشفينية ومدرسة العباد المعروفة عند المؤرخين برباط العباد واليعقوبية ، ومدرسة مازونة وهي نموذج مصغر لمدارس تلمسان.

وقد اهتم الباي محمد بن عثمان في الغرب الجزائري بتشييد دُور العلم من مساجد ومدارس ، بنى مدرسة في مدينة معسكر ، ومدرسة في وهران وثالثة بمازونة ومن أشهرها المدرسة المحمدية بمدينة معسكر التي أشار إليها المؤرخ "أبو راس الناصري" في حديثه عن المدارس وامتدحه أحمد المقري القرومي لأجلها في قصيدة منها قوله:

"وترى المدرس قد علا كرسيه — يلقي على العلماء حب الجوهر
تحويه مدرسة غدت آثارها — تحييه بالعلم الشريف الأشعري
مبنى الأمير محمد في الغرب قد — لاحت رسومه كالصباح المسفر"[92]

[90] ـ أبو راس الناصري ، عجائب الأسفار ، ورقة 79 نقلا عن : العيد مسعود،مرجع سابق، ص65.
[91] ـ العيد مسعود،مرجع سابق، ص65 .
[92] ـ أحمد بن سحنون ،مرجع سابق، ص131.

وتتعدد أهداف المدرسة كما تتعدد مواردها فهي تارة تزود الدولة بما تحتاج إليه من قضاة ومفتشين وغيرهم من الموظفين كما أن رجال الشريعة والتوحيد كانوا أساتذة موظفين يدافعون بأقلامهم ودروسهم عن العقيدة الرسمية في المدارس وفي حلقات الدروس وتارة أخرى كانت هناك أحوال مغايرة تماما ، فالمدارس كانت تنتج أناسا يرفضون ممارسات بعض أهل السياسة وأسرهم المتلاعبة بالقيم والأخلاق.

أما النظام الداخلي للمدارس فكان يتم بقبول طلبة قاطنين بالمؤسسة وهم من الغرباء عن المدينة تجري عليهم منحة يتقاضونها موادا غذائية ، ويلازمون الدروس إما متخصصين في علم واحد أو مشاركين في عدة علوم .

ويكوّنون مع الطلبة المداومين من أهل المدينة طائفة الطلبة الرسميين إلا أن حلقات الدروس مفتوحة مع هذا لكل من يريد أن يكتسب معارف دون قصد الإجازة للتدريس أو التوظيف .[93]

ويمكن للأستاذ أن يجيز تلميذه أو يرخص له إذا رأى أنه يستحق منه لقب الأستاذية وكان ذا كفاءة عالية مع ذكر ما أخذ منه من العلوم لتثبيت إجازته . وكان بعض الطلبة يجاز في سنتين وبعضهم ينتظر عدة سنوات ، وللأستاذ أن يعمل بأخلاقيات مهنته في تقييم مستوى طلبته و قد سبق الحديث عن هذه الإجازات حين الكلام عن "عبد الرزاق بن حمادوش" .

وكانت المدارس تتنوع فهناك من تضم مئات الطلبة وعشرات الأساتذة مثلما كان الشأن للمدرسة التاشفينية، وأخرى يشرف عليها عالم واحد يستعين بكبار الطلبة، وقد لا تقل هذه المدارس إشعاعا عن غيرها إذا كان صاحبها من المشلوكين في عدة علوم .

كان الطلبة يحيطون أساتذتهم بهالة من الإجلال والإكبار تقديرا لعلمهم واعترافا بما لهم عليهم من دَيْن بما يبذلوه من أجلهم من جهود جليلة .

93 _ عبد المجيد مزيان،مرجع سابق، ص41.

وإن المتصفح لكتب التراجم ومذكرات العلماء وما كتبوه عن مشايخهم يلمس مدى الحب الذي كانت تنبض به قلوب الطلاب نحو أساتذتهم ومنه ما قاله الشيخ "محمد بن علي السنوسي" في معرض حديثه عن أساتذته الذين تتلمذ على يدهم :

"ومنهم شيخنا وشيخ مشائخنا الهمام الحافظ الإمام سيدي محمد أبو راس المعسكري البلد الناصري المحتد _ رحمه الله _ كنت أتردد إليه كثيرا وأستفيد منه استفادة عظيمة لتمام حفظه ، وإتقانه لكل فن ، حافظا لمذاهب الأئمة الأربعة ، جواب كل ما سئل عنه بين شفتيه ، وغالب من أخذنا عنه من أهل ناحيته أخذ عنه ".[94]

أما الطبقة الميسورة فكانت تمجد العلماء وترفع من منزلتهم وشأنهم وتقلد أنماط سلوكهم، وكل مواطن يجد من الشرف أن يستقبل واحدا من العلماء في بيته ، حتى معلم القرية ، ومؤدب القبيلة كان لهما شأن عظيم في حياة الناس ، لا يقل أبدا عن شأن العالم في محيط الزاوية أو المدينة ، إن لم يزد عليه .

ونقطة أخرى سبق الحديث عنها من قبل إلا أنه من الضروري العودة إلى الخوض فيها من جديد وهي الفرق بين المؤسسات التعليمية خلال تلك الحقبة من خلال الدور الذي تؤديه كلّ واحدة منها ، والمناهج التي تخضع إليها، والمستويات التي تصل إليها، وهذا بسبب تداخل المهام والمناهج وعدم وجود برامج محددة .

لقد حدّد العيد مسعود في دراسته عن التعليم في العهد العثماني جملة من هذه الفروق فقال :

" أول هذه الفروق أن الزاوية امتداد للرباط وبديل له ، انتشرت في الجبال والسهوب والواحات من أجل التفرغ للعبادة والعمل الخيري كإطعام المساكين وابن السبيل ثم أصبحت لتعليم كتاب الله وسنة رسوله ثم اهتمت بغير ذلك من العلوم أما المدرسة فهي مؤسسة علمية أنشئت أساسا في المدن ومنه انتقلت إلى باقي أنحاء البلاد كالريف لكن التركيز بقي على المدينة .

---

[94] _ أحمد بن سحنون ،مرجع سابق، ص66، هامش رقم53 .

_ الزاوية مؤسسة حرة فيما تقدمه لطلابها ، بينما تصطبغ المدرسة بشكل أو بآخر بالصبغة الحكومية ، فالزاوية تقوم على أساس ما يسمى بالتعليم الحر ، أما المدرسة فتلزم بالاتجاه السياسي للحكومة .

_ الزاوية تعتمد في مواردها على الأوقاف التي حبسها عليها أهل الخير ، وعلى الصدقات التي تجمع من الأتباع والمريدين ، سواء كانت الزوايا مرابطية أو طرقية ، أما المدرسة فتعتمد في مواردها على الأوقاف التي حبسها عليها الحكام وتديرها الحكومة بشكل مباشر أو غير مباشر .

_ الزاوية تقوم بمهام متعددة اجتماعية ، اقتصادية ، سياسية وعلمية إلى جانب التعليم أما المدرسة فموجهة للتعليم فقط". [95]

[95] _ العيد مسعود ، مرجع سابق ، ص 68 .

وضعية المدارس والزوايا والكتاتيب :

كانت مدينة الجزائر في بداية القرن التاسع عشر ميلادي تضم مائة (100) كُتّاب (مدرسة ابتدائية) وكان علماؤها يعيشون في يسر مادي ويتمتعون باحترام الناس أما منطقتها فقد كانت تنتشر فيها 299 مدرسة يتلقى التعليم فيها حوالي 5583 أما البليدة فيوجد 24 زاوية وفي بلاد القبائل ثلاث مراكز علمية شهيرة ، أما في الشرق الجزائري فقد كان في مدينة قسنطينة عندما دخلها الفرنسيون سنة 1837 خمسة وثلاثين مسجدا وسبعة مدارس تضم حوالي 700 تلميذ يدرّسهم أساتذة ذوو شهرة ، أما بضواحيها فكانت هناك عشرات المؤسسات العلمية الجادة كما انتشرت مجموعة من الزوايا يديرها مرابطون ذوو نفوذ أشهرها زاوية مولاي طرفة وزاوية ابن علي الشريف أما بالصحراء الجزائرية فكان ببسكرة 56 زاوية يؤمها مئات من التلاميذ زيادة على معاهد بسكرة وسيدي عقبة وطولقة والتي كانت على جانب من الأهمية .

أما بالغرب الجزائري فقد كانت مدينة تلمسان منارة علمية قبل مجيء العثمانيين وإذا ذهب عن المدينة بهاؤها السياسي كونها لم تعد العاصمة فإن مكانتها العلمية لم تتغير، وقد ذكر "الزيّاني" بعضا من أحوالها في رحلته .[96]

ومجمل القول أنه وبرغم وجود منظومة تعليمية لا بأس بها غير أن حالها كان من التردي بحيث كانت بعيدة عن الاهتمام بمشاكل العصر والبحث عن حلول لها وأبلغ تعبير كما يقول جمال قنان هو

> ماكتبه ابن سحنون الراشدي عن الثورة الفرنسية ، والذي يستخلص منه أ ن ما يجري في هاته البلاد هو من قبيل لعجائب ،لاشأن لنا به، وبعيد كل البعد أن يؤثر فينا [97]

---

[96] _ مولاي بلحميسي، مصدر سابق، ص160 .

[97] _ جمال قنان ، "أوضاع الجزائر عشية الغزو الفرنسي"، الذاكرة ، عدد6 ،نوفمبر،2000م، ص 25.

من خلال ما تقدم يبدو جليا أن عادات الجزائريين لم يكن فيها ما يخالف الطبع الإنساني بل إنها كانت في كثير من جزئياتها تتعدى سلوكيات أكثر الأمم تحضرا ، وهذا باعتراف الأعداء قبل الأبناء .

أما جملة الآفات التي كانت تطبع هذه العادات سواء تلك التي كانت دائمة أو تلك العارضة فإنها كانت آفات عامة لم تسلم منها دولة من الدول آنذاك. غير أن وجود الجزائر في مقدمة خط المواجهة في الصراع الحضاري الدائر بين العالمين الإسلامي الشرقي والمسيحي الغربي جعل عيون الملاحظين مركزة على دقائق الآفات في هذا البلد. كما أن كتابة تاريخ الجزائر العثماني بشكل عام وعهد الدايات منه بشكل خاص لم تعرف الرواج إلا بعد سقوط حكومة الدايات ووقوع الجزائر تحت حكم الاستعمار وبيد كتاب أوربيين كان هدفهم الأول تشويه صورة الجزائر في عهد سابقيهم ، وتبرير الوجود الاستعماري وممارساته الفضيعة تجاه الأهالي .

إن هذه المدرسة الاستعمارية دفعت مؤرخيها إلى تصوير الشعب الجزائري وحكومته العثمانية كقطيع من الوحوش أو عصابة من قطاع الطرق ساقتهم الظروف إلى الوقوف في وجه الحضارة الغربية ومن سوء قدر هذا المجتمع أن مؤرخيه أهملوا الكتابة حول هذه الجوانب وقصروا تواريخهم على ذكر بعض الأحداث السياسية ومآثر الحكام الذين عاصروهم .كما أن تجاوزات الدايات في أيامهم الأخيرة _ والتي دفعتهم إليها جملة من العوامل والظروف الدولية والمحلية _ أكدت مزاعم هذه المدرسة وجعلت مواجهة آرائها تتطلب بحثا طويلا وتنقيبا مضنيا على الأدلة من بين كتب المؤرخين المعاصرين .

فما هي هذه الظروف والعوامل التي دفعت بهؤلاء الدايات إلى تلكم التجاوزات؟.

الفصل الثالث

العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية

المبحث الأول : العوامل الطبيعية .

المبحث الثاني : العوامل السياسية .

المبحث الثالث : العوامل الاقتصادية .

المبحث الرابع : القضـــاء .

العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية:

هناك مجموعة من العوامل كان لها تأثير كبير على الحياة الاجتماعية في الجزائر في عهد الدايات ويمكن تصنيفها ضمن مجموعات، المجموعة الأولى طبيعية والثانية اقتصادية والثالثة سياسية.

ففي المجموعة الأولى كانت الأحوال الصحية عائقا كبيرا أمام تطور وازدهار الحياة الاجتماعية فإن مجموعة من الأوبئة أصابت الأيالة فقضت على عدد كبير من سكانها مسببة اختلالا كبيرا كما منعت التبادلات التجارية ومعها جميع النشاطات الموازية لسنوات عدة، وزيادة على الأوضاع الصحية عرفت البلاد جملة من الكوارث الطبيعية والمجاعات وهجمات الجراد خلفت آثارا وخيمة على الأيالة.

وفي المجوعة الثانية كانت الضرائب الفاحشة التي فرضتها الظروف المستجدة في الأيالة واحدة من عوامل التأثير البالغ على حياة المجتمع، فقد فرض الأتراك على كل ما يمكن أن يعتبر نشاطا ذو دخل ضريبة مباشرة أو غير مباشرة، وإذا كانت هذه الضرائب في العهود العثمانية السابقة غير ذات بال فإنها أصبحت بعد تقلص موارد الخزينة الأخرى تثقل كاهل الرعية .

أما في المجموعة الثالثة فإن الثورات الداخلية من جهة والتحرشات الأجنبية من جهة أخرى كانت عوامل قاصمة في ظهر الأيالة الجزائرية، فلقد عرفت الجزائر في عهد الدايات هزات عنيفة على المستوى الداخلي كان سببها إما انتفاضات العسكر أو ثورات الرعية، وعرفت على المستوى الخارجي حملات أوربية على المدن الساحلية لم تهدأ إلا بإسقاط الوجود العثماني سنة 1830 .

1_ العوامل الطبيعية:

من أهم العوامل الطبيعية التي كان لها تأثير بالغ على الحياة الاجتماعية في الجزائر الزلازل و الأوبئة وهجمات الجراد والمجاعات وغيرها .

أ_ الزلازل:

عرفت الجزائر في العهد العثماني عامة وفي عهد الدايات بالذات مجموعة من الهزات الأرضية تسببت في خراب و تدمير بعض المدن و هلاك الأرواح والممتلكات منها زلزال الجزائر سنة1665 والذي صاحبه خسوف الشمس وتأثرت به حتى السواحل الأوروبية من شدته و أحدث هلعا في النفوس وكذلك زلزال الجزائر و ضواحيها سنة 1676 الذي دام قرابة الشهر و أحدث خسائر كبيرة في العمران بل وتسبب في ثورة على الداي لاتمامه بسوء الطالع[1].

وقد كانت الزلازل تتبع بسلسلة من الفوضى وانتشار اللصوص، كما حدث في سنة 1716 حين هزَّ السواحل الجزائرية زلزال كبير تسبب في خراب كل من مدينة شرشال والجزائر وبجاية ودام عدة أيام عمت فيها الفوضى وهجر الناس مساكنهم التي تهدمت أو تشققت واضطر الداي لتجريد العسس لمعاقبة اللصوص ومراقبة أملاك العامة وكذلك كان الحال بمدن مليانة وعنابة والعاصمة عامي1723،1724 ثم شرشال عام 1735 [2].

وكثيرا ما رافق هذه الهزات ارتباك عام وتوقف لمجرى الحياة بسبب تهدم مجاري المياه وانقطاع الماء عن المدن مثل زلزال 1755 الذي صاحبه حسب بعض الروايات ظهور بعض الحرائق . ودامت الفوضى التي تبعته مدة شهرين مما دفع بالأهالي إلى الالتجاء إلى البساتين والحدائق[3].

---

[1] _ سعيدوني ناصر الدين: "الأحوال الصحية و الوضع الديموغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني" ، الثقافة ، عدد 92 (الجزائر: جمادى2 ،رجب 1406/ مارس ، أفريل 1986) ،ص105.

[2] _ نفس المرجع ،ص105.

[3] _ نفس المرجع ،ص106.

وقد عرفت نهاية القرن الثامن عشر مجموعة من الزلازل كان واحدا منها على الأقل مفيدا وهو زلزال وهران الذي كان من الشدة بحيث أدى إلى وفاة أكثر من 1000 شخص تحت الأنقاض و انقطاع المياه من العيون والينابيع مما كان له الأثر في قبول الإسبان تسليم وهران للباي محمد بن عثمان الكبير الذي كان ضرب عليها حصارا . فقد اضطرهم الزلزال إلى هجر سكناهم و بناء أخرى من الخشب وصفها "ابن سحنون الراشدي" في معرض حديثه عن دخول الباي إلى مدينة وهران بقوله :

" ... أما دور السكن فقد كانت تهدمت بالزلزلة بحيث لم يبق إلا أطلالها ، غير أنهم جعلوا خارجها بين الأبراج بيوتا من اللوح رائقة الشكل ..." .[4]

كما يصف لنا "الشريف الزهار الزلزال" الذي أصاب مدينة البليدة سنة 1241هـ/1825م، والذي مات فيه خلق كثير و يروي "الزهار" أن الداي أرسل الآغا إلى عين المكان

"...وعندما وصل البلد وجده خربة فأمر الرعية بالبحث عن الناس الذين تحت أنقاض البناء ، فمنهم من وجدوه حيا وأكثرهم ميتا فدفنوا الموتى وجعل الآغا أخبية للأحياء وأخرجوا الأثاث من تحت الهدم و أعطاهم ما يأكلون، ثم بنى لهم نوالات[5] لمستقرهم و كفل اليتامى و الأرامل ...ثم انهم تذاكروا في إعادة بناء البلد وكان الزلزال لا ينقطع عنها ليلا و نهارا عدة أيام، وفي نفس مدينة الجزائر لم تنقطع الزلازل مدة ثمانية عشر يوما لكنها كانت في النهار قليلة وأما في الليل فهي كثيرة بحيث أنها تكررت ليلة من الليالي أكثر من عشر مرات، هذا الذي شاهدته أنا " .[6]

وقد ساهمت الحكومة في العاصمة في إعادة اعمار المدينة التي قضى الزلزال على أغلب بناياتها و اشترت من الخواص بعض الأراضي واستخدمتها للصالح العام.

---

4 _ أحمد بن سحنون الراشدي ،مرجع سابق ، ص459.

5 _ مفردها نوالة وهي كلمة عامية لا زالت مستعملة إلى اليوم في البادية ومعناها كوخ حجري سقفه من الأعمدة الخشبية

6 _ الشريف الزهار، مصدر سابق ، ص155.

ب _ الجراد والمجاعات:

من الآفات الاجتماعية ذات الأثر البالغ في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر في العهد العثماني زحف الجراد، فقد اعتاد السكان اختفاء الأقوات وهلاك الأرواح وحدوث المجاعات في أعقاب زحف الجراد وغالبا ما يتبع زحف الجراد مجاعة عامة وانتشار الأوبئة.

ويورد "سعيدوني" أهم السنوات التي تعرضت فيها الجزائر لأسراب الجراد ويظهر من خلال ما أورده أنّ القرن الثامن عشر عرف حملات متعددة إذ لم تخل عشرية منها، بل وتضاعفت في العشريتين الأخيرتين[7].

وهذا الكلام نفسه يُقرُّه "إسكار"[8] الذي يصف حملتين بارزتين لهجمات الجراد أولاها كانت في سنة 1722 والتي يعتبرها ذات أثر بالغ ، فقد حجبت أسراب الجراد الشمس مدة 48 ساعة كما قضت على الخضرة، ولم تسلم منها لا أوراق الشجر ولا الخضراوات ولا النباتات الصغيرة وكل ذلك في لمح البصر، أما حملة سنة 1794 فإن من خصوصياتها كما يقول أنه من عهدها فقدت نوعية الخمور المنتجة في الجزائر جودتها السابقة، ولم يكن للسكان وسيلة لمقاومة هذه الأسراب .

أما الداي فقد كان يستعمل اليهود لحراسة بساتينه من الجراد حسبما ذكره "شالير" في مذكراته إذ قال أنه:

"...في صيف سنة 1810 زارت هذه البلاد جحافل الجراد التي دمرت كل ما مرت به في طريقها من كل ما هو أخضر ، وبهذه المناسبة صدرت الأوامر إلى عدة مئات من اليهود للخروج لوقاية حدائق الداي و بساتينه الشخصية حيث اضطروا للعمل والحراسة بالليل و النهار ، ما دام الجراد يعيث فسادا في البلاد "[9].

وقد أورد "الشريف الزهار" في معرض حديثه عن أخبار الداي عمر باشا أن سنة 1230هـ/ 1814م وهي نفس السنة التي اعتلى فيها هذا الداي العرش .عرفت زحف

7_ سعيدوني ن. د. ، "الأحوال الصحية ..." ، مرجع سابق ، ص106.

8_ Gabriel Esquer , Reconaissance des villes . forts et batteries d'Alger . (Paris : librairie Honoré Champion , 1927) . P 68 .

9_ وليام شالير ،مصدر سابق ، ص90.

الجراد الذي أتت أسرابه في طريقها على الأخضر واليابس فوقع الغلاء، واضطر الداي إلى إعطاء القمح إلى الخبازين و جعل له تسعيرة توافق سعره في وقت الرخاء، وبالرغم من أنه طلب منهم أن يقدروا ما يكفي حاجة الناس إلا أن الزحام على هذا الخبر الأميري أو الحكومي وصل ذروته ، ولم يتوقف هذا الزحام حتى انقضى مفعول الجراد وأثمر الزرع الجديد ومن فضل الله على البلاد أن العام الموالي كان من أخصب الأعوام وأثمرها فعادت الأسعار إلى سابق عهدها وارتاح الناس[10].

أما المجاعات فغالبا ما كانت تعقب زحف الجراد أو الزلازل و منها التي كانت تدوم سنوات و تخلف ضحايا بالآلاف وترتفع الأسعار خاصة أسعار القمح.

ويذكر "الزهار" أن الجوع أصاب البلاد لمدة ست سنوات أعطى الله فيها القحط وارتفع سعر الصاع الجزائري إلى أربعة بجة[11]، وأن الناس كانوا يموتون في الأسواق[12].و قد كان سبب قلة القمح هو إما قلة الأمطار أو الفيضانات .

وقد عرفت بداية القرن التاسع عشر سلسلة من المجاعات في سنوات 1800، 1804، 1806، 1807، 1816و 1819 وكثيرا ما دفع اختفاء الأقوات من السوق الدايلت إلى استيرادها من الخارج كما وقع مع الداي مصطفى باشا الذي استورد كميات من القمح من موانئ البحر المتوسط لسد العجز الداخلي و مواجهة النقص في الأسواق[13]وهو نفس ما التجأ إليه الداي حسين سنة 1235هـ/1819م لمواجهة المجاعة فقد اشترى 50 ألف صاع من الحبوب من شواطئ البحر الأسود لمواجهة النقص في الموارد لمدينة الجزائر فقط.[14]

---

10 ـ الشريف الزهار ،مصدر سابق ،ص117.

11 ـ الصاع الجزائري حوالي 34 كغ و البجة تساوي حوالي 10 غ فضة ،أنظر هامش 74 و 75، الشريف الزهار مصدر سابق ص56.

12 ـ نفس المصدر ، ص31.

13 ـ حمدان خوجة ،مصدر سابق ،ص ص 131ـ 132.

14 ـ وليام شالير، مصدر سابق ، ص .

جـــ ـ الأوبئة:

إنّ المناخ الجزائري سليم صحيّا في الأصل غير أنّ البلاد كانت عرضة لمجموعة من الأمراض وكان وباء الطاعون أكثرها وأخطرها ، والغريب أنّ هذا الوبـــاء كـــان لا ينقطع عن الجزائر فهو يضرب البلاد كلّ 20 سنة في المتوسط وأحياناً يـــدوم الوبـــاء سنوات متتابعة ويحصد أرواحاً كثيرة، ويقوم في جميع أنحاء الوطن.

ويميل بعض المؤرخين إلى أنّ مصدر هذه الأوبئة هو بلاد المشـــرق وأنّ حركـــة السكان كانت أهم عامل في نقل هذا الداء إلى البلاد، وبالتالي يمكن أن نحفظ السكان من هذا الخطر باتخاذ إجراءات وقائية ضده كما يرى "إسكار"[15].

وقد عرفت البلاد سنوات عجاف حصد فيها الوباء ، أرواحا كثيرة نذكر منها ما تعلق بمجال البحث سـنوات 1673 ، 1676 ،1677 ،1678 ،1689 ،1693 ،1695 ،1697 ،1698 ،1699 ،1700 ،1732 ،1738 ، 1740 ، 1744 ، 1741 ، 1785 ، 1787 ، 1787 ، 1780 ، 1793 ، 1794 ، 1797 ، 1798 ، 1799 ، من 1804 إلى 1808 و مـــن 1810 إلى 1822 .

غير أنّ من بين هذه السنوات هناك ما كان ذا تأثير بالغ إذ قضى على خلق كثـير مثل:

ـ وباء سنة 1740 والذي قضى على 1000 نسمة في الأسبوع الأول ووصـــل عـــدد ضحاياه يوميا بين 300 و400 نفس .

ـ وباء سنة 1787 والذي أهلك بدوره ما يقارب 500 نفس يوميا وخاصة مــا بــين الأسرى والذين يصفهم "كاثكارت" ويعلق على سبب انتشار الوباء بينهم بقوله :

"... ولكن الوباء كان مستمرا في حصد أرواح الباقين . فقد مات 43 منـــهم في هذا الشهر و105 في شهر أبريل ومع ذلك فإنّ الأعمال تجري كالمعتاد، وقـــد كان ازدياد العمل من العوامل التي تعرض الأسرى للعدوى وهذه نقطة ســـأوليها عناية خاصة لدى الحديث عن المرض المخيف ... كانت وضعيتنا الجديدة محتملـــة

15 _ Esquer , op cit , P 67 .

هذا إذا استثنينا رؤية الناس حولنا يتساقطون كأوراق الخريف ويموتون من الوباء"[16].

ويصفه "الشريف الزهار" كما يلي :

" وفي سنة 1201 هـ جاء الوباء للجزائر حتى وصل عدد الأموات أحيانا خمسماية جنازة كل يوم ويسمى بالوباء الكبير ، قيل أنه أتى من بحر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية وطال الوباء بالجزائر إلى سنة 1211هـ "[17].

فتناقص عدد السكان وتسبب ذلك في بقاء الحقول بدون حصاد وتعطل بعض دور الصناعة ما كان له الأثر على عمليات القرصنة كما تناقص عدد العاملين في صناعة الحرير والمحازيم الحريرية فأثّر ذلك على كميات هذه السلعة المصدرة لسنوات عدة و بالتالي تعطل مصدر هام من مصادر دخل الخزينة [18].

_ وباء أعوام 1817_ 1819 والذي كان عاما في البلاد وقضى على 14000 نسمة في العاصمة وحدها ومنهم الداي علي خوجة الذي مات بالقصبة متأثرا بالوباء [19].

ويمكن اعتبار نقص الرعاية الصحية إحدى الأسباب المهمة في انتشار هذه الأوبئة وضخامة الخسائر المترتبة عليها خاصة وأن البايليك لم يكن يعتني بإقامة مراكز إستشفائية للرعية في الوقت الذي

"... كان كبار المسؤولين في الدولة يهتمون بشؤون صحتهم الخاصة، ويصطنعون لهم الأطباء كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا. حقا أنهم لم يشجعوا دراسة الطب في المدارس و لم ينشئوا أكاديميات طبية للبحث ، لكنهم كانوا مهتمين فقط بالأسباب العاجلة كذلك نقرأ في الوثائق أن بعض الباشوات والبايات قد جلبوا أطباء أوربيين بالشراء ونحوه ومعظم هؤلاء الأطباء كانوا يأتون أسرى عند النزاع البحري ..."[20].

---

[16] _ ج.ل. كاثكارت ،مصدر سابق ، ص 112 .

[17] _ الشريف الزهار ، مصدر سابق، ص51.

[18] _ Venture de paradis , op cit p31.

[19] _ الشريف الزهار ، مصدر سابق، ص139.

[20] _ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر ... ،مرجع سابق ، ج2، ص 431 .

وإنما أوكل أمر تداوي الأهالي إلى اجتهاداتهم الخاصة التي كثيراً ما حيّرت الأجانب رغم بدائيتها. وربّما مرّد ذلك كما سبق الذكر إلى أنّ البلاد لم تكن معرضة لأمراض خطيرة كما يرى "شاو " [21] إذا استثنينا وباء الطاعون الذي اختلفت الآراء حول موقف الحكومة منه ففي الوقت الذي يهاجم فيه "حمدان خوجة" عدم اعتماد الحجر الصحي في حالة انتشار الوباء [22] نجد "عبد الرزاق بن حمادوش" يذكر أنّ نظام الحجر الصحي كان معمولا به إذ يقول :

"وفي ثالث رجب الموافق آخر يوم من يوليو قدم علينا مركب من إسكندرية بالحجاج، وفيه الوباء فمنعهم الباشا الدخول ، حمية من أنّ يقوم ممرض على مصح إلى ثامن عشرة ، موافق خامس عشر أوغشت أذن لهم في الدخول بعد تحقيق سلامتهم من المرض المذكور"[23].

ويؤكد ما ذهب إليه ابن حمادوش ما ذكره الزهار من اعتماد هذا الأسلوب مع السفن القادمة إلى الجزائر على سبيل العادة وليس بشكل عارض :

" وكانت العادة انهم إذا وصلوا للسفينة القرصان فإن قبطانها يتكلم معهم من ناحية المركب إذا كانت الكرنتينة.أما إذا لم تكن الكرنتينة فإنهم يصعدون إليه ويتسلم مكاتيب القنصل ثم يرجعون ..."[24].

وبدون الحكم لصالح واحد من هذين الرأيين يمكن ملاحظة أن الأهالي كان لهم تصرفهم الخاص تجاه ظاهرة الوباء بشكل يؤكد أن وعيهم الصحي كان عاليا على خلاف ما يزعم بعض المؤرخين إذ يذكر "العياشي" موقف أهل الأغواط من ركب الحجيج الذي كان فيه بعدما أشيع أن فيه الوباء كان على قدر من الحذر يوحي بوعي صحي فيقول :

"... وكان في الركب أعراب سعاة من دمر يتكففون الناس فقالوا لأهل البلد أن في الركب وباء فلم يتركوا أحدا يدخل إليهم ... [و] لم يخرج أحد منهم إلى

21_ Dr Shaw , op cit , p 80 .

22_ عائشة غطاس،" الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني"، الثقافة ،يوليو ،المسطس 1983 ص 129 .

23_ ابن حمادوش ،مصدر سابق ،ص 121 .

24_ الزهار ، مصدر سابق ، ص152.

العوامل السياسية :

إن للتطورات السياسية التي عرفتها الجزائر في عهد الدايات أثراً بالغاً في تغير ملامح الحياة الاجتماعية بها ولقد كانت هذه التطورات السياسية على مستويين الأول داخلي والثاني خارجي.

أما المستوى الداخلي فلقد كان أثره بارزا من خلال انعدام الأمن لكثرة الفتن والثورات مما جعل سكان الأرياف خاصة يفرون من مناطق إلى أخرى مغيّرين بالتالي الاستقرار الديموغرافي للأيالة، وتحولهم من فلاحين قارين إلى رعاة متنقلين .

ومرد هذه الفتن في المدن إلى ثورات اليولداش الغاضبين لأسباب مختلفة، بعضها موضوعي مثل تأخر رواتبهم أو مظالم بعض الحكام في حقهم، وبعضها الآخر لا يستند إلى أساس سببه ضعف الحاكم أو نزوة العسكر، أما في الأرياف فإن مردها إلى طبيعة القبائل المتصارعة فيما بينها بشكل مستمر زادها تحريض البايليك وقودا ليضمن عدم تحالفها عليه كما سنرى .

أما على المستوى الخارجي فإن تعرض الجزائر للتحرشات الأوربية على مدنها الساحلية وكذا تدخلات كل من أيالة تونس ومملكة الأشراف بفاس في بعض الأحداث الداخلية للبلاد كان له أثر كبير على حياة الأهالي، إذ حول اهتمام الدولة إلى جمع الإتاوات لمواجهة هذه التحرشات وبالتالي حدّ من اهتمامها بتطوير مصادر دخلها أو استثمار الأموال العمومية في مشاريع تنموية ، فقد تحولت السلطة الحاكمة بفعل هذه الأوضاع إلى مؤسسة مالية تجمع الأموال من الرعية لتواجه بها مطالب الأوجاق كما سنرى ذلك أيضا.

1 _المستوى الداخلي:

لقد عرفت الفترة الأخيرة من حكم الدايات هزات عنيفة على مستوى هرم السلطة نظرا لأن عددا كبيرا من الدايات ورجال الدولة عرفوا نهايات مفجعة مردها إلى التنافس على السلطة، فبعد وفاة محمد بن عثمان سنة 1791م حكم الجزائر تسع دايات مات منهم خمسة مقتولين بعد ثورة الجند عليهم، وغالباً ما يرافق عملية اغتيالهم واستخلافهم مذبحة تطال كل رجال دولتهم[28]، ويضطر من يلي منصب الداي في هذه الظروف إلى استرضاء الجند الذين أوصله شغبهم إلى هذا المنصب فيصرف أموالا طائلة في زيادة أجرتهم مما يثقل كاهل الخزينة ومعها كاهل الرعية.

ويعلق "شالير" على هذه الضرائب التي كانت تجبى في البداية على أساس ما ينص عليه القرآن وأنها لم تكن تشكل عبئا ثقيلا على الرعية ساعتها، لكنها في عصره أي مع أواخر عهد الدايات أصبحت على النقيض من ذلك، فولدت تخلخلا في استقرار السكان إذيقول:

"... وبواسطة أعوانهم من العساكر والشرطة يستحوذون على كل ما يقع تحت أنظارهم من أموال الشعب.وهذا الظلم الذي لا يطاق جعل الناس يهجرون البلد ويتركون السهول الخصبة ليلجأوا إلى الجبال ويسكنوا قمما لا سبيل إلى وصول الأتراك وأعوانهم إليها، أو إلى أطراف الصحراء..." [29].

ولقد أدى تصرف الدايات تجاه الأوجاق بهذه الطريقة إلى دفعهم إلى معاودة الاحتجاج والثورة كلما سنحت الفرصة بذلك حتى يضمنوا مداخيل جديدة، كما جعلتهم يستجيبون لكل محاولة لتغيير الحاكم والانضمام لكل خارج منهم على طاعته، كما دفع بكل مغامر منهم أن يحاول الوصول إلى الحكم بمجرد أن يرشي مجموعة من الجند ويعدهم برفع مرتباتهم إن هم ساعدوه في الوصول إلى الحكم كما حدث لأحمد خوجة الذي كان كاتبا في دار الإمارة إبان حكم مصطفى باشا وبعد عزله باع بستانا له:

---

[28] _ الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 89.

[29] _ شالير،مصدر سابق، ص59 .

"...فاشتراه منه قائد العرب ابن سحنون وبعدما باع البستان اشتغل في إثارة العسكر خفية، وله أعوان في ذلك وانحاز بعض العسكر إليه ووعدهم بأن يزيد لهم في الراتب ويعطي القمح للمتزوجين منهم ...فلما كان يوم الجمعة الخامس من جمادى الثانية من سنة 22 [30]، ثار العسكر على الأمير مصطفى باشا وقارا خزناجي..."[31].

وأصبح لهذه الثورات التي يقودها العسكر على الحكام أثر كبير في هز استقرار سكان العاصمة خصوصا وبقية الأيالة عموما خاصة وأن بعض الدايات ضعاف الشخصية كانوا يسمحون لهؤلاء الجند باستباحة المدينة عندما يعجزون عن توفير المال الكافي لاسترضائهم، ويذكر الألماني "شونبيرغ" الذي شارك في حملة فرنسا على الجزائر سنة 1830م بصفته رئيسا للأطباء أن الداي "أحمد خوجة" عندما عجز عن إيقاف ثورة الجند عليه

"...أرسل إليهم أحد عبيده المسيحيين وعرض عليهم كنوزه كلها والسماح لهم بنهب المدينة إن هم أبقوا على حياته ولكنهم لم يقبلوا ذلك وهاجموا القصر..."[32].

أما "الزهار" فيروي لنا محاولة أخرى قام بها الأوجاق ضد علي باشا سنة 1232هـ_1816م ولكنها باءت بالفشل غير أن أثرها كان كبيرا على سكان العاصمة فيقول:

"...قدمت محلة الشرق مع الخليفة كما هي العادة فعندما كان الجيش بأثناء الطريق اتفق على خلع الباشا وتولية غيره مكانه...وتقدموا للجزائر وبلغ الباشا فسكت عنها إلى أن وصلوا لعين الربط فعندئذ ضربوه بالكور من رأس تفورة والله أعلم أنه كانت لهم يد مع عسكر المحلة الذين بالبلاد، لكن هؤلاء دخلهم الرعب فلم يفعلوا شيئا...ونادى مناديه في البلاد من أتاه برأس تركي أو زيتوني من رجال

---

30 _ هي سنة 1222 هـ الموافق ل 1807 م .

31 _ الزهار، مصدر سابق ، ص 89.

32 _ *أبو العيد دودو،مرجع سابق ،ص*57.

المحلة فله كذا وكذا فخرج إليهم من يريد الدراهم ولما رأى أهل المحلة ذلك فسد رأيهم وفروا هاربين "[33].

ولقد عرفت بعض النواحي الجزائرية فتنا كثيرة ترجع إلى تناحر القبائل فيما بينها ويعلق على ذلك الشيخ "عبد الرحمن الأخضري" الجزائري قائلا :

"... وعاشر القرون هو قرننا هذا الذي ظهر فيه الفتن واشتد فيه اليأس وقوي فيه النحس واشتد فيه طغيان الكافرين وانتشر فيه ظلم الظالمين وكثرت فيه شرار الخلائق و لم يبق إلا آثار الطرائق والناس فيه ساهون مهطعون لحطام الدنيا معرضون عن الدرجات العليا سابقون فيه إلى هواهم ليوقعوا في أهوى المهاوي، وأسوأ المساوئ . وليس لهم تفكر في هادم اللذات ولا تأهب فيما بعد الممات كأنهم في الدنيا مخلدون ، وهم للفناء مشاهدون ... هذا الزمان الصعب الذي انقرض فيه أكابر العلماء و لم يبق فيه إلا الحثالة وغلبت العجمة على قلوب الأنام حتى كاد العلم ينقرض بانقراض أهله... "[34].

وسبب ذلك أن الكثير من القبائل سادها الجهل والبعد عن صحيح الدين والالتزام من الإسلام باسمه مع ترك الكثير من تعاليمه ومنها عدم التعرض للمسلمين فكثر تصارع القبائل فيما بينها ، ويصف "الورتلاني" هذه المسألة قائلا :

"... لعل الله يفرج ما بنا من الفتن مع بعض المخذولين الخارجين عن طاعة الله ورسوله في الأحكام الشرعية ونبذ العوائد الردية والبدع الشنيعة كقطع الميراث[35] وأكل أموال الناس بالباطل وأموال اليتامى ولين الجانب كالأرامل[36] فلما وصل إلينا[37] فرج الله علينا ذلك بعد أن وقع النصر من الله العزيز ... فوقع الصلح بين الفريقين وأظهروا التوبة والذل والمسكنة والندم بعد أن كانوا ممتنعين منها ظاهرا وباطنا ... "[38].

---

[33] _ الزهار، مصدر سابق ، ص 137.

[34] _ عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق ، ص ص 479 _ 480 .

[35] _ كذا في الأصل ، والظاهر أنه يقصد قطعه عن المرأة لأنه يقرر ذلك في موقع آخر من الرحلة .

[36] _ كذا في الأصل ، والصواب للأرامل .

[37] _ كذا في الأصل ، والصواب فلما وصلنا ، لأن الكلام جاء في معرض حديثه عن ذهابه للإصلاح بين قبيلتين متخاصمتين .

[38] _ الورتلاني ، مصدر سابق ، ص 04 .

ويعلق أيضا على الفتن المستمرة بين القبائل خاصة الممتنعة عن سلطة البايليك ، إذ لا سلطة له عليها بل على العكس من ذلك فإن للبايليك مصلحة في تناحرها حتى تضعف ولا تلتفت إلى مناجزته على سلطة البلاد ولا ينفع في الإصلاح بين هذه القبائل غير المرابطين لما يُكن لهم الأهالي من الاحترام فيقول :

"... إذ القتال بين المسلمين في وطننا كثير والفتنة بينهم قل أن ترتفع والهرج بينهم قوي أزال الله ذلك بمنه وكرمه ، وحكم السلطان غير نافذ فيهم إذ لا يقدر عليهم وإن كانوا قريبا من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال فلم يفد فيهم إلا همة الصالحين وأهل الخير ... فذهبنا لبعض القرى قد خربت من أجل ذلك وعلّها ترجع للعمارة ... "[39].

و لم تقتصر هذه الفتن والحروب على الأهالي فيما بينهم بل تحوّلت إلى ثورات على الأتراك في شكل هزات وانتفاضات في وجه عمال البايليك كما أن حدة هذه الانتفاضات الشعبية ازدادت وأصبحت تشكل خطورة على سلطة الأتراك وأخذت مع تطورها طابع الانتشار والعموم على كامل التراب بعدما كانت في بدايتها تقوم في مناطق معزولة.

وما يميز هذه الثورات جميعها هو كونها تقوم دائما بقيادة إحدى الطرق الصوفية أو أحد المرابطين إلا فيما ندر، كما أن آمادها أخذت في الطول نظرا لوقوع هزات في هرم السلطة فجعل البايليك عاجزا عن مواجهة هذه الثورات بالحزم الذي كانت تلقاه أيام قوته؛ فقد دامت ثورة درقاوة من سنة 1805 إلى سنة 1813 وعمت الغرب الجزائري إلى درجة أن الباي محمد المقلّش الذي عينه الداي "أحمد خوجة" _خلفا للباي المترلي الذي عجز عن مواجهة هذه الثورة _ لم يستطع بلوغ مقر عمله بوهران إلا بحراً لأن طريق البر كانت مقطوعة بسبب الثورة و لم يستطع هذا الباي بدوره القضاء على هذه الثورة ولا الذي يليه و لم تتوقف إلا بعد مجيء الباي "بوكابوس" [40].

[39] _ الورتلاني ، مصدر سابق ، ص 08 .

[40] _ مولاي بلحميسي ،" الثورة على الأتراك في الجزائر ، الثقافة ، ديسمبر 1978، ص37.

وكان لهذه الثورة تأثير كبير على اقتصاديات الدولة وعلى الحياة الاجتماعية للسكان كما يوضح "شونبرغ" :

"كانت عواقب ظروف الحرب وخيمة بالنسبة لمقاطعة وهران ،إذ تسببت الحرب في إهمال زراعة الحقول وفي ضعف ميزانية الدولة لقلة المداخيل .ولتعويض هذه الخسارة التجأ الداي إلى مصادرة الأموال وإصدار أحكام الإعدام "[41].

وتعتبر هذه الثورات التي تقودها الطرق الصوفية في الغالب محاولات لرفع العنف والظلم المرتكب في حق الأهالي الذين هم في نهاية الأمر أتباع هذه الطرق وذلك واضح من خلال شكوى "ابن الشريف الدرقاوي" لمبعوث سلطان فاس المولى "سليمان" فقد ورد فيها أنّ سبب هذه الثورة هو :

"... ما نال الفقراء والمتسببين وسائر الرعية من عنف الترك وجورهم وإنهائهم في ذلك إلى القتل والطرد من الوطن "[42].

وعلى الرغم من أنّ "الزهار" يعلق على انضمام الحشم سكّان غريس إلى "محمد بن التيجيني" في ثورته التي قام بها سنة 1242 هـ _1824 م ويصفهم بأنّهم أهل فتنة وأنّهم مهما قام ثائرُ إلا وكانوا أنصاره"[43].

إلا أنّ ذلك يعني — حتى وإن صحّ فيهم رأي الزهار— أنّ أسباباً أخرى أكثر أهمية هي الدافع الحقيقي لالتفاف قبائل أخرى حول هذه الثورة .بل إنّ "المزاري" يروي بأنّ :

"الحشم حثوا على التيجيني حثيث الاحتباك في القدوم معهم لقتال الأتراك [لأنّ البايليك قتل قوادهم وغرمهم غرامة كبيرة عقوبة لهم فاستجاب لهم وقام] ... في جيش عظيم يريد المجاجنة من أهل الصحراء واليعقوبية وستمائة رجل من التجاجنة ... "[44].

---

41 _ أبو العيد دودو ،مرجع سابق ،ص 48 .

42 _ الناصري ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد ، الاستقصى لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصري ، ج 8 ،(الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1956) ص 104 .

43 _ الزهار ،مصدر سابق ص 159

44 _ ابن عودة المزاري ،طلوع سعد العود في إخبار وهران وحزنها الأسود ، تحقيق يحي بو عزيز ط (بيروت ،دار الغرب الإسلامي ، 1990 ص 355 .

وثار بشرق البلاد "أحمد بن الأحراش الدرقاوي" فدوّخ البلاد ودانت له العـــرب حتى حاصر قسنطينة وكاد يسيطر عليها[45] لكنه تراجع القهقرى كما يروي "الزهـــار" بعد مجيئ الباي الجديد "عبد الله" الذي استعان بأصهاره العرب فقضى على الثورة وفرّ رأسها "ابن الأحرش" إلى الغرب حيث قتله "ابن الشريف الدرقاوي" [46].

[45] _ جمال قنان ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500_1830 ، (الجزائر : المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1987)ص ص 252_253.

[46] _ الزهار مصدر سابق ص ص 86 _87 .

2 _المستوى الخارجي:

من المعلوم أنّ الوجود التركي بالجزائر واجه معارضة مغربية[47] قادها السعديون ثم العلويون من بعدهم وكانت الحرب بينهم سجالا إلى أن اتفق الطرفان على الصلح، غير أنّ هذا الصلح لم يكن تاماً وإنما فرضته ظروف سياسية، ولذلك فإنّ الطرفين كانا يخفيان مالا يبديان، ورغم أنّ علاقة ملوك فاس مع بايات الغرب كانت حسنة إلا أنّها مع نهاية عهد الدايات ــ عندما كثرت الفتن ــ تعكّرت بعدما تدخّل ملوك فاس في الفتن بدعم الحركات الثورية التي قادتها الطريقة الدرقاوية ذات الأصول والميول المغربية.[48]

أما تونس فإنّها كانت تحت حكم الجزائر في عهد البايلاربايات كونهم هم الذين حرّروها من حكم الإسبان غير أنّ العثمانيين وبإزالتهم لهذا النظام واستبداله بنظام الباشوات فصلوا حكمها عن الجزائر وأصبحت أيالة مستقلة تابعة رأسا إلى الباب العالي إلى أنّ أسس بها المراديون ثم الحسينيون من بعدهم حكما وراثيا[49].

وإن كانت تونس قد خرجت عن حكم الجزائر إلا أنّ تدخلات الجزائريين في شؤونها لم تتوقف، فكثيراً ما استعان بهم أحد الأطراف المتنازعة على الحكم، ولقاء المساعدة كانت تونس تدفع للجزائر أتاوة سنوية، غير أن بايات تونس الأقوياء كانوا يأنفون من هذه الإتاوات ويعتبرونها معيرة في جبينهم، وفي كل مناسبة يجدون في أنفسهم القدرة على إبطالها ينتفضون على الوضع، وكثيراً ما أوفدوا محلّة لحصار قسنطينة؛ وكان "حمودة باشا" أحد هؤلاء البايات الأقوياء الذين حاربوا الجزائر مراراً إذ يذكر "السنوسي" أنّه لما استكمل استعداداته العسكرية أرسل محلة إلى الجزائر

---

47 ـ كان ملوك فاس يرون في الوجود العثماني بالجزائر خطرا دائما على سلطانهم ولذلك فإنهم كانوا لا يغفلون أي فرصة تكون فيها الأيالة منشغلة بغيرهم أو تمر بفترة ضعف إلا واستغلوها انظر: Leon Galibert . op cit. p234

48 ـ المزاري ،مصدر سابق ،ص 309 .

49 ـ ابن عبد الله محمد بن عثمان السنوسي ،مسارات الظريف بحسن التعريف ،تحقيق وتعليق محمود الشاذلي النيفر ، ح1، (تونس،دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع 1983)ص ص 6_7 .

"... فترل من على قسنطينة ورماها بالكور و البونبة وطال بها الحصار نحـــو الأربعة أشهر إلى أن أشرف على فتحها فخرجت منها محلة عظيمة للدفاع عنها آل أمرها إلى هزم المحلة التونســـية. ثم جـــهز الأمـــير أمحـــالا أخـــرى ...فـــانتصر التونسيون...ومن ذلك اليوم نزعت البلاد أطمار مهانة الجزيريين ولبست ثياب العز وأصبحت رافلة في جلابيب أمنها"[50].

وفي حالة قوة الدولة الجزائرية أو ضعف بايات تونس عن مواجهتها علانية فـــإنهم كانوا يدعمون الثوار، إذ يذكر "الزهار" أن "حمودة باشا" الذي كان حانقا من دفـــع الإتاوة ولكنه عاجز عن مواجهتهم استقدم "ابن الأحرش" وأكرم مثواه بتونس :

" ثم إن حمودة باشا استدعى في أحد الأيام ابن الأحرش ووسوس له قائلا أن رجلا مثلك شجاع أو كلام بهذا المعنى يجب أن يذهب إلى ملك الترك (بالجزائر) ويترعه من أيديهم ونحن نمدك بما يخصك والعرب يتبعونك لكثرة ما ظلمهم الأتراك وكان مقصد حمودة أن يشغلهم عنه لا غير..."[51].

و سواء أصحت رواية الزهار أم لا فإن المؤكد أن بايات تونس كانوا رافضـــين للرضوخ لحكم دايات الجزائر، ودامت الحروب بين الأيالتين سنين عديدة لم تنتـــه إلا بتدخل الباب العالي لعقد الصلح بينهما .

ومن غرائب الأقدار أن بداية عهد الدايات اقترن بإحدى تحرّشات الدول الأوربية المتكررة على السواحل الجزائرية، وانتهى بتحرش دولة أخرى ففي سنة 1671هـــاجمت عمارة بحرية ميناء بجاية وأغرقت سبع سفن جزائرية ولما وصل هذا الخبر إلى الجزائـــر كان سببا غير مباشر للثورة على الآغا فبدأ بموته نظام جديد هو نظام الدايات.

ولقد عرفت سواحل الجزائر حملات عدة كانت غالبا موجهة نحو العاصمة وكـــان لها بالغ الأثر على حياة السكان ونفسياتهم خاصة في السنوات الأخيرة عندما ضعفـــت البحرية الجزائرية وأصبحت عاجزة عن التأثير في صد الغارات البحرية الـــتي كـــانت تهاجم المدن الساحلية وتحدث خسائر جسيمة في عمرانها وهلعا كبيرا لدى ســـاكنيها

---

[50] ـ أبو عبد الله السنوسي ، مصدر سابق، ص35.

[51] ـ الزهار ، مصدر سابق ، ص85.

كما تمنع التجارة من موانئها و بالتالي تعطل بيع السكان لمنتجاتهم وفي ذلك ضرر كبير، وخاصة عندما تضطر الحكومة إلى فرض الضرائب الإضافية لتعويض ما خسرته من دخل كان يأتيها من عائدات القرصنة.

ويصف "ابن زاكور" حملة "دوكيسن" على الجزائر سنة 1683م فيقول :

" ... التخ أمرها وغص بسفائن النصارى بحرها فزلزلوا قصورهم النواضر ، وبصواعق أمثال القناطير ورجموا مصانعهم العادية ، بشهب هنداوانية عادية وما أدراك ماهية ، نار حامية لها صعقة الرعد القاصف و سرعة الرعد الخاطف، وهجوم السيل وشمول ظلام الليل إلى نار ترمي بشرر كالقصر، ورائحة تصرع على مسافة القصر، اللهم قنا شرها ، وجنبنا يا مولانا مكرها.."[52].

ويذكر "جون .ب. وولف" أن أكبر المتضررين من حملة "دوكيسن" هم الحضر الذين هدمت دورهم وحوانيتهم بينما كانت خسائر الداي والأوجاق والرياس محدودة لذلك لم يروا ما يجبرهم على قبول الشروط الفرنسية لتوقيع السلم واضطر "دوكيسن" إلى العودة إلى فرنسا خائبا بعدما هدم مئات المنازل والدكاكين وأزهق أرواحا كثيرة.[53]

وبعد حملة "دوكسين" قاد "دستري" حملة على الجزائر، وعقب وصوله إلى سواحلها أرسل رسالة تهديد إلى دايها الحاج حسين جاء فيها بأنه إذا قام بنفس الفظائع التي قام بها في سنة 1683 [54]،فإنه سينتقم من الأسرى الأتراك الذين على سفنهم فرد الداي بأنه سيقوم بذلك حتى ولو كان أبوه أسيرا عند الفرنسيين.[55]

وبعد ذلك فإن العلاقة بين الجزائر و فرنسا عرفت هدوءا دام إلى غاية الحملة الفرنسية على مصر حين اضطرت الجزائر إلى إعلان الحرب على فرنسا احتراما لقرار السلطان العثماني الذي طلب من جميع البلاد الموالية له إعلان الحرب على فرنسا التي

---

52 _ مولاي بلحميسي،الجزائر من خلال رحلات المغاربة ، مرجع سابق، ص145.

53 _ جون .ب. وولف . مرجع سابق ، ص 346.

54 _ يقصد قيامه بوضع الأسرى الفرنسيين على فوهات المدافع وقذفهم مع طلقاتهم للاستزادة انظر عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق ،ص ص 192 _194.

55 _ Grammont (H.D de) ,op cit, p 133.

اعتدت على ولاية عثمانية، غير أن ذلك لم يجنب السواحل الجزائرية تحرشات الدول الأوربية الأخرى خاصة هولندة وبريطانيا صاحبتي التجارة البحرية الكبيرة وكذا إسبانيا ذات العداء التقليدي للأيالة؛ أما بقية الدول الأوربية الصغيرة فإنها كانت لا تجرؤ على مواجهة الجزائر و إنما تدفع الأتاوة حفاظا على سفنها التجارية في المتوسط.

ولقد ساعد تصارع الدول الأوربية فيما بينها قراصنة الجزائر على السيطرة على الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وحملت سفنهم إلى الجزائر غنائم طائلة كان لها الفائدة الكبرى على اقتصاد الجزائر والدور الكبير في استقرار سكانها ورخائهم .

كما دفعت إلى البلاد أعداداً لا تحصى من الأسرى المسيحيين الذين استخدموا في أعمال السخرة أو كجذافين في سفن القراصنة ما خفّف على سكان الأيالة كما كانت عمليات افتدائهم التي يشرف عليها قساوسة مسيحيون أو تجار يهود تدّر على الأهالي وعلى البايليك أموالاً لا بأس بها جعلت البايليك في غنىً عن الاهتمام بداخل البلاد وفرض الإتاوات عليه .

لقد دام هذا الوضع حتى بداية القرن التاسع عشر لكنه وبعد مؤتمر فينا كلّفت دول أوربا اللورد "إكسموث" البريطاني بأن يضع حداً لاستعباد المسيحيين وقرصنة ولاية الجزائر، فقام بمساعدة "فون كابلين" أمير البحر الهولندي سنة 1816 بالهجوم على السواحل الجزائرية برغم معارضة فرنسا المشاركة في المشروع البريطاني خوفا من ازدياد هيمنة بريطانيا على المتوسط .

ولقد عانت المدينة من قوة وكثرة القنابل المتساقطة عليها حتى كادت تتحول إلى خراب واضطر الداي إلى قبول شروط الصلح البريطانية، وقد كتب "عمر باشا" إلى السلطان العثماني يصف أهوال هذه المعركة رسالة جاء فيها :

" ... أحرقت خلالها كل بواخرنا وسفن تجارتنا و لم نر دقيقة راحة واحدة إذ أخذت تتهاطل علينا في كل لحظة سيلا وافرا من القنابل الصغيرة والكبيرة الحجم بحيث أن تحصيناتنا ومينائنا قد تحطمت خلال ظرف ساعة واحدة ..." [56]

---

[56] _ عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، الجزائر ، تونس وليبيا 1816 _ 1871 ط2 (الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1985) ، ص ص 61 _62 .

وعلى الرغم من جسامة الخسائر فإن حركة الأسطول الجزائري في البحر الأبيض المتوسط لم تغب طويلا فسرعان ما اشترى الجزائريون بعض السفن وأعانتهم كل من طرابلس ومملكة فاس وكذا الباب العالي بسفن أخرى فاسترجعوا قدرتهم البحرية بل أصبح أسطول الجزائر أكثر قدرة من ذي قبل على حسب تقدير القنصل الأمريكي "شالير"[57].

إن مثل هذه الحملات على المدن الساحلية الجزائرية كانت كثيرة جدا وإن أثرها لم يقتصر على إيقاع الخسائر في الأرواح والعمران فحسب بل إن أثرها على الواقع الحياتي لسكان الأيالة كان كبيرا بل وعلى نفسياتهم كذلك، فكثيرا ما كانت تتبع هذه الحملات بغلاء في المعيشة ونقص في الأقوات ليس في هذه المدن الساحلية فحسب بل وعلى كامل تراب الأيالة خاصة وأن مورد الدولة الوحيد في أثناء هذه الحملات وبعدها مباشرة هو أرياف الجزائر وما يقدمه سكانها من مطالب مخزنية، والتي كانت تزيد بشكل كبير عند كل حملة وبالتالي يزيد معها عناء هؤلاء السكان لمواجهتها .

وإذا ما استطاعت هذه الحملات ان تأسس لحكم مسيحي في إحدى المدن الساحلية كما كان الحال في مدينة وهران فإن أهلها يخضعون للتغريم بشكل مستمر، وقد أورد "أحمد توفيق" المدني قيمة الغرامة المفروضة على أهل وهران من السلطات الإسبانية إضافة إلى الرهائن المحجوزين لدى هذه السلطات كضمان لولاء هذه القبائل وعدم انتفاضتها[58].

---

[57] _ شالير ، مصدر سابق . ص 62 .

[58] _ أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492 _ 1792) ، ط2 (الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1976) ، ص 447 .

العوامل الاقتصادية :

إن الاقتصاد والمال بشكل أوضح هو عصب الحياة وبالتالي فإن للعوامل الاقتصادية أثراً على مجريات الحياة كلها والحياة الاجتماعية بشكل أدق. وبالتالي فإن هناك جملة من العوامل الاقتصادية ساهمت في التأثير على حياة الجزائريين خاصة التطورات الاقتصادية التي ظهرت مع نهاية عهد الدايات كارتفاع الضرائب ونقص موارد الخزينة وظهور الشركات الاحتكارية الأوربية واليهودية.

1 ــ الضرائب :

عرفت الجزائر أنواعا مختلفة من الضرائب مست جميع أنواع النشاطات الفلاحية والمهنية والتجارية ، بحيث يضمن البايليك أكبر قدر من الأموال من الرعية، وهو الأمر الذي جعل "ناصر الدين سعيدوني" يعلق على النظام الضريبي للأيالة بقوله :

> "يمتاز نظام ضرائب الأيالة بتعدد مصادره وتأثيره على النشاطات الاقتصادية المنتجة ، فلم يفلت من هذا النظام الجبائي أي فرع من الإنتاج الفلاحي والصناعي والتجاري ولا أي مادة قابلة للدفع .
>
> وقد أدى هذا التوسع في جلب الضرائب إلى جعل الدولة أداة استهلاك تعيش على موارد البلاد دون أن تسعى إلى تنميتها أو تطويرها فكل ما تنتجه البلاد يستهلك في دفع رواتب الموظفين والجند أو يودع في خزائن الدولة دون التفكير في تطوير وسائل الإنتاج التي عرفت آنذاك نموا ملحوظا في الدول الأوربية "[59].

ولكلام "سعيدوني" أكثر من دلالة فإنه يقرر في البداية أن الدولة لم تترك مجالا يمكن أن يدر عليها أموالا إلا واستخلصت منه الضرائب ، ثم إن هذه الضرائب لم تكن توظف إلا في تغطية مصاريف طبقة من طبقات المجتمع وهي طبقة الجند ، واقتصاد هذا هو حاله لابد أن يكون له أثر وخيم على الحياة الاجتماعية وذلك لسببين :

الأول :ظهور بعض المظالم التي فرضها الموظّفون الذين يجمعون هذه الضرائب لأن سلطات الأيالة كانت بحاجة مستمرة إلى مورد مالي قار ومضمون مما جعلها

59 ـ ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ،مرجع سابق ، ص 117 .

توكل إلى موظفين خاصين جمع الضرائب مقابل مبالغ مالية محددة يقدمونها مسبقا للخزينة.

وكان لهذا النظام مضار كبيرة على الرعية من جهة وعلى خزينة الدولة من جهة أخرى، فقد تسبب هذا الأسلوب في تحديد مداخيل الخزينة وحرمانها من جزء كبير من الضرائب كان يذهب إلى جيوب هؤلاء الموظفين من دون أن يكون للسلطات علم به، وهو سبب في إضعاف الدولة كما سنرى في العنصر القادم ، ومن جهة أخرى أدّى هذا الأسلوب إلى إنهاك موارد الرعية التي لم تكن دائما قادرة على مواكبة هذه الزيادة، فدفع بالكثير من الفلاحين إلى ترك أراضيهم والنزوح إلى أماكن بعيدة عن سلطة البايليك أو إلى التحول إلى حياة الرعي والتنقل بدل حياة الاستقرار التي كانوا يعيشونها.

ولقد ظهر مع هذا التحول أوضاع اجتماعية جديدة كان من أبرزها شيوع فكرة الأحلاف العشائرية والتي عُرفت بفكرة الصف، واعتبرت وسيلة فعالة لحماية القبيلة من أي اعتداء قد تتعرض له من القبائل المجاورة خاصة وأن السلطات الحاكمة لم تكن لها مصلحة في حماية هذه القبائل وحفظ النظام بل على العكس من ذلك اتخذت الصراع العشائري والتنازع القبلي ذريعة للتدخل في الشؤون الخاصة لهذه القبائل ومطية لبسط نفوذها على المناطق الخاضعة لهذه القبائل[60].

الثاني : استعمال الحملات العسكرية لاستخلاص الضرائب، فقد كانت السلطات الحاكمة تلجأ إلى هذا الإجراء مرة على الأقل كل سنة لاستخلاص الضرائب والعوائد أو لتأديب القبائل المتملصة من هذه المطالب، وغالباً ما تنتهي هذه الحملات بنتائج جد وخيمة على حياة هذه القبائل التي تتوجه إليها على المستويين الاجتماعي والاقتصادي، ونظرا لأن عماد هذه الحملات كان يقوم على فرسان المخزن فإن عداوة كبيرة نشأت بينهم وبين مختلف قبائل الرعية.

60 ـ ناصر الدين سعيدوني ،"الإنسان الأوراسي وبيئته "، الأصالة ، أوت سبتمبر 1978 م ، ص ص 142 ـ 143 .

2 ـــ تناقص موارد الخزينة :

يذكر "شالير" في عرض مبسط لواردات الدولة في سنة 1822 أن الميزان التجاري للدولة كان يشكو عجزا مقداره 937 ألف دولار

"وهو مبلغ ضخم تدفعه للخارج دولة ليس لها موارد نشيطة تذكر . وتبعا لذلك، فإذا كانت التجارة الداخلية في الجزائر لا تنتج ما يكفي للتعويض عن هذا العجز في التجارة مع الخارج ، فإن من الواضح أن الأمر سينتهي باستتراف موارد الدولة وبإفلاسها . ولكن قيمة التجارة الداخلية مشكوك فيه ... "[61].

ويؤكد في موضع آخر أن هذا العجز ونظرا لانعدام الموارد الخارجية لم يكن ليغطى إلا من الخزينة التي لن تلبث أن تنفذ إذا لم تقم الدولة بموازنة الميزان التجاري[62].

ويعلّق "آجيرون" على وضع الأيالة مع نهاية عهد الدايات بأن سبب انهيار الحكم التركي في الجزائر يرجع إلى أمرين أحدهما الفتن الكبرى التي قادتها الطريقة الدرقاوية والثاني هو قلة الصادرات والنظام الإقطاعي الذي تمتع به كبار الموظفين[63].

ومع تناقص نشاط القرصنة الجزائرية تناقصت موارد الخزينة كما أن تناقص عدد الأسرى أثر سلبا على موارد البلاد فقد كانت عملية افتدائهم تدر ربحا لا بأس به على السلطات العمومية وعلى الخواص .

---

61 ـ وليام شالير ، مصدر سابق ، ص 103 .

62 ـ نفس المصدر ، ص 104 .

63 ـ شارل روبير آجيرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ترجمة عيسى عصفور ، ط2 (الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982) ص 13 .

2 ـــ تناقص موارد الخزينة :

يذكر "شالير" في عرض مبسط لواردات الدولة في سنة 1822 أن الميزان التجاري للدولة كان يشكو عجزا مقداره 937 ألف دولار

"وهو مبلغ ضخم تدفعه للخارج دولة ليس لها موارد نشيطة تذكر . وتبعا لذلك، فإذا كانت التجارة الداخلية في الجزائر لا تنتج ما يكفي للتعويض عن هذا العجز في التجارة مع الخارج ، فإن من الواضح أن الأمر سينتهي باستنزاف موارد الدولة وبإفلاسها . ولكن قيمة التجارة الداخلية مشكوك فيه ... "[61].

ويؤكد في موضع آخر أن هذا العجز ونظرا لانعدام الموارد الخارجية لم يكن ليغطى إلا من الخزينة التي لن تلبث أن تنفذ إذا لم تقم الدولة بموازنة الميزان التجاري[62].

ويعلّق "آجيرون" على وضع الأيالة مع نهاية عهد الدايات بأن سبب انهيار الحكم التركي في الجزائر يرجع إلى أمرين أحدهما الفتن الكبرى التي قادتها الطريقة الدرقاوية والثاني هو قلة الصادرات والنظام الإقطاعي الذي تمتع به كبار الموظفين [63].

ومع تناقص نشاط القرصنة الجزائرية تناقصت موارد الخزينة كما أن تناقص عدد الأسرى أثر سلبا على موارد البلاد فقد كانت عملية افتدائهم تدر ربحا لا بأس به على السلطات العمومية وعلى الخواص .

---

61 ـ وليام شالير ، مصدر سابق ، ص 103 .

62 ـ نفس المصدر ، ص 104 .

63 ـ شارل روبير آجيرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ترجمة عيسى عصفور ، ط2 (الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982) ص 13 .

3 ـــ الشركات الاحتكارية :

كانت الدولة في عهود قوّتها تختص بعض القطاعات بنظام احتكاري إذ تشرف على الإنتاج الزراعي والحيواني، ولما تناقصت مداخيل الدولة أصبح هذا النظام يفرض نفسه بقوة إذ عوّض الخزينة عن بعض الموارد التي زالت .

غير أن هذا النظام سرعان ما ظهرت انعكاساته السلبية، إذ أدّى كما يرى "شالير" إلى خراب التجارة وقضى على الزراعة قضاءا مبرما[64]، والسبب في ذلك ان عائدات هذا النظام الاحتكاري لم تكن تذهب إلى خزينة الدولة كلية بل لم تكن الدولة تقوم إلا بدور الإداري الذي يسهر على سلامة الإجراءات وتقييد المعاملات في السجلات بينما تفوز بالقدر الوفير من الأرباح البيوتات التجارية اليهودية والشركات الأوربية التي كانت تقوم بالوساطة في التجارة مع الخارج .

وربما يعود ذلك كما يرى "سعيدوني" إلى اطلاع اليهود على أحوال الاقتصاد العالمية وتفتحهم على العالم المسيحي وتمكنهم من أداء الأدوار التي يعجز عنها الجزائريون لعدة اعتبارات أهمها العداء المستحكم الذي يلقونه في البلاد الأوربية إضافة إلى تثبيط السلطات الحاكمة في الجزائر وعدم تشجيعها لهم لممارسة أي نشاط تجاري مع الخارج[65] .

ولقد ساعد وجود هذه الشركات الاحتكارية اليهودية والأوربية على امتصاص ثروات البلاد من الأهالي بثمن بخس وبيعها في الأسواق الأوربية بأضعاف أضعاف ثمن شرائها وكثيرا ما بيعت منتوجات البلاد بأثمان زهيدة في سنوات الإنتاج الوفير ليضطر البايليك بعد سنين قليلة أن يشتريها بأضعاف ثمنها تحت ضغط الطلب المحلي خوفا من الثورة التي قد تودي بحياة الداي كما حدث لمصطفى باشا سنة 1805[66] .

---

64 ـ شالير ، مصدر سابق ، ص 101 .

65 ـ ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ... ، مرجع سابق ، ص ص 230 ـ 231 .

66 _ P. Boyer , op cit , P 194 .

القضاء :

لقد اهتم الأتراك منذ بداية عهدهم بالقضاء كونه إحدى دعائم الملك الأساسية ولذلك كان نظام القضاء في عهدهم بسيطا وسهلا على المتقاضين بشكل يضمن سير العدالة من غير أن يعاني أفراد الرعية عناء التنقل إلى مراكز البايليك ودفع مستحقات تثقل كاهلهم، كما أن الإجراءات القضائية كانت غير معقدة إذ يمكن للقاضي أن يفصل من أول جلسة بعد سماع المظالم من الأطراف المتنازعة والشهود – إن وجدوا – وينفذ الحكم في الحال .

والقاضي يفصل في المنازعات المدنية بمفرده ويساعده في عمله كتاب يسجلون كل القضايا والأحكام التي أصدرها القاضي كما يساعده مجموعة من الشواش دورهم إحضار الخصوم وأخذ المتهمين إلى مكان تنفيذ الأحكام إن صدر في حقهم عقوبة ما[67] كما يحضر إلى مجلس القضاء وبصفة دائمة مجموعة من العدول لا يقلون عن اثنين حتى يكونوا شهودا على جملة العقود والمنازعات التي يقضي فيها وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى : "وأشهدوا ذوي عدل منكم".[68]

ويؤكد هذا الأمر عقد التنزيل الذي أوقعه السيد "عبد القادر بن المختار" قاضي الباي حسن على منطقة سوق الثلاثة[69] بالغرب الجزائري فقد وقعه مجموعة من الرجال يصفهم بالفقه والعلم في هذه الوثيقة وقد ذيلوها بتوقيعاتهم ونصّها كالآتي :

> " الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، أشهدنا على نفسه الكريمة المكرم السيد بن يسعد وأنه أنزل ولد ولده محمد موضع أبيه السيد عبد القادر من كونه ينوبه ما ينوب أبيه من الإرث في مال السيد بن يسعد فجزاه الله خيرا وله مثوبة وأجرا بمحضر الفقيه السيد عبد القادر بن المداني والفقيه السيد المكي والفقيه السيد محمد بن الشارف ومحمد بن جلول والعلامة السيد عبد

---

[67] _ Louis de Baudicour, La guerre et le gouvernement de l'Algérie, (Paris : Sagnier et Bray librairie, 1853) p 278.

[68] _ سورة الطلاق ، آية 2 .

[69] _ سوق الثلاثة بوقيراط حاليا وهي إحدى دوائر ولاية مستغانم بالغرب الجزائري .

القادر بن البحر (البحري) والسيد سعادة بن البحر وأناس عدة وبتاريخ أواخر شوال عام 1240 "[70].

وقد كتب أسفل الوثيقة وبخطوط مختلفة عبارات مفادها تأكيد نصّ الوثيقة وإمضاء كل الذين ذكرتهم الوثيقة سابقا .

والملاحظ أن هذا الإجراء نجده في جميع وثائق مكتبة السيد "القاضي" بل إن مجموعة من الأسماء تتكرر بعينها كشهود على هذه العقود ما يثبت أن هؤلاء الناس كانوا يحضرون هذه الجلسات بشكل رسمي وليس بشكل عارض .

و يذكر "شالير"[71] أن الحكم في الجنايات من اختصاص الداي أو وزرائه وأن الحكم في قضايا مثل القتل و السرقة وقطع الطريق و الإحراق بالعمد و الخيانة و الزنا هو الإعدام غير أن أشكال الإعدام تختلف باختلاف الانتماء الطبقي لمرتكب الجريمة، فالأتراك المستحقين لعقوبة الموت يساقون إلى بيت آغا الهلالين حيث يخنقون بعيدا عن عيون الرعية أما بقية الرعية فمن استحق منهم عقوبة الموت فيشنق أو يقطع رأسه في ساحة المدينة وأمام المارة، إلا إن كان من المحاربين الذين يقطعون الطريق فإن هؤلاء يرمون من جدار عال قرب "باب عزون" لتتلقفهم خطاطيف حديدية فتتقطع أوصالهم ويتركون للموت البطيء عقابا لهم على ترويعهم للسابلة.

أما إن كان الجاني من اليهود فإن عقوبتهم في أغلب الحالات هي الحرق، وبخلاف الجميع فإن النساء اللائي يتعاطين الفاحشة أو يخن أزواجهنّ فإنهن يوضعن بداخل كيس ويرمين في البحر بعد أن يثقل بالحجارة.[72]

وفي الجنح التي لا يستحق صاحبها عقوبة الإعدام فإن العقوبة الأكثر شيوعا هي بأن يؤخذ المتهم ويضرب على بطن قدميه بعصا عددا من الضربات بحسب ما حدد له، كما أن الحبس هو عقوبة معروفة بكثرة في ذلك العهد ، غير أن العقوبة التي أصبحت اكثر شيوعا في الفترة الأخيرة من عهد الدايات هي الأشغال الشاقة إذ

---

[70] _ مخطوط غير مرقم بمكتبة السيد القاضي محمد حفيد القاضي لدى الباي حسن السيد عبد القادر بن المختار .

[71] _ شالير ، مصدر سابق ،ص46.

[72]- P. Boyer. op.cit. pp123_124.

أصبحت توفر للبايليك يدا عاملة مجانية بدلا من العبيد[73] الذين قلّ عددهم بسبب ضعف القرصنة والاتفاقات التي أقرها البايليك بعد قصف اللورد إكسموث سنة 1816م.

أما السراق فإن عقوبتهم هي قطع اليد تبعا لقوله تعالى :

" السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءا بما كسبا نكالا من الله " [74].

وكان الشواش يحملون السارق بعد أن تقطع يده على حمار ووجهه إلى الخلف ويده معلقة على صدره ويطوفون به شوارع المدينة لتشهد العامة عقابه فيتعظ من ساورته نفسه بالسرقة ولا يفلت من هذه العقوبة إلا الأسرى العبيد الذين لا ينالهم لقاء السرقة غير بعض الضربات على أرجلهم .[75]

ولعل ذلك مرده إلى احترام رأي الشريعة الإسلامية إذ لا ينال العبد إلا نصف عقوبة الحر وليس كما يزعم المؤرخ الأمريكي "جون.ب.وولف" أن السبب هو شفاعة أسيادهم الذين يدفعوهم إلى السرقة ليقتسموا معهم غلاتها وهو اتهام لا دليل عليه .[76]

ومن بساطة الإجراءات أن طرفي النزاع في أي قضية يحضران أمام القاضي فإن غاب أحدهما يبعث القاضي الشواش لإحضاره في الحال وكذلك الشأن بالنسبة للشهود إن وجدوا، ويعرض المتقاضون مظالمهم بأنفسهم من دون مساعدة المحامين الذين لا وجود لهم في نظام القضاء الإسلامي آنذاك، وحتى النساء اللواتي ليس لهن حرية الخروج من بيوتهن فإن أزواجهن لم يكونوا قادرين على منعهن من التقدم إلى القاضي ليقدمن شكاياتهن إليه متى وجدت، والفارق الوحيد بالنسبة إليهن هو أنهن لا يدخلن إلى قاعة الرجال وإنما يعرضن ما لديهن من أقوال من نافذة قاعة الانتظار التي خصصت لهذا الغرض .[77]

---

73 _ شالير ،مصدر سابق ، ص47.

74 _سورة المائدة ، آية 38 .

75- Laugier De Tassy, op. Cit., P P 147 _ 148.

76 _ جون.ب.وولف ، مرجع سابق، ص 173 .

77 _ Louis de Baudicour, op cit. , pp. 279_280.

وكما أن حضور الخصوم كان يقع في الحال فإن الأحكام هي الأخرى كانت ينطق بها في الحال وتنفذ في الحال إلا فيما ندر من القضايا التي يرى القاضي أنها تستدعي أن يطالع حولها بعض المصادر في العلوم الإسلامية.

وما دام القاضي حراً في اتخاذ أحكامه في جميع المنازعات فإنه كان يُختار في هذا المنصب أناسٌ درجوا في سلك العلوم الدينية مدارج لا بأس بها، إذ كانت تعرض عليهم قضايا في جميع المنازعات المدنية من زواج وطلاق وإرث وقصاص وبيوع وما يتعلق بها من وكالة ورهن وكل ما يتعلق بمعاملات الناس فيما بينهم، ولذلك كان على القاضي أن يكون مطلعا على مجموعة من العلوم العقلية و النقلية التي تفيده في الحكم في مثل هذه القضايا، وزيادة على الكفاءة العلمية كانت هناك مجموعة من الشروط الخلقية التي لا غنى للقاضي عنها، ولذلك فإن القضاة الذين كانوا يعينون من قبل البايات باستشارة مجموعة من أهل العلم لا يستلمون مهامهم إلا بعدما يثبتون حصولهم على المواصفات اللازمة .

إن هذه الشروط لم تكن لتحترم على كامل تراب الأيالة ذلك أن البوادي لم يتوفر بها مثل هؤلاء الرجال لأن أغلب الفقهاء و العلماء يهجرون إلى الحواضر لصعوبة العيش في البوادي.

و إذا كان عدم احترام هذه الشروط دفع "شالير" إلى اتهام القضاة بقوله :

"و المفروض أن هؤلاء القضاة لا يترفعون دائماً عن تأثير الرشوة و النفوذ "[78]

فإنّ "شالير" نفسه يعود ليعقب على كلامه _ إنّ صحّ طبعاً _ قائلاً :

"ولكن النفوذ لا يمارس على القاضي إلاّ في الحالات التي لها أهمية خاصة و في هذه الحالة يحق للطرف الذي يعتبر نفسه مظلوماً أنّ يستأنف الحكم ويرفع قضيته أمام المفتي الذي يعتبر حكمه نهائياً "[79].

أمّا "بو ديكور" فبعدما يعدد شروط القضاء والتي هي أنّ يكون من سلك العلماء ومن أحد المذاهب الأربعة في الفقه الإسلامي وأنّ يكون حرّاً سليم العقل تقياً ونزيهاً

---

[78] _ شالير ، مصدر سابق ، ص 48 .

[79] _ نفس المصدر ، ص 48 .

فطناً وذا أخلاق عالية، زيادة على إحاطته بعلوم الدين و تفسير القرآن و يعلّق على صعوبة توفر هذه الشروط دائماً ثمّ يعقب قائلاً :

"إنّ الميزات الكثيرة التي فاق بها القضاء العثماني إدارتنا القضائية إذا لم تدفعنا إلى حسد قضاهم فعلى الأقل تجعلنا في غيرة دائمة من تنظيمهم القضائي ".[80]

إنّ "شالير" ذاته يعلق في موضع آخر على الإجراءات القضائية بقوله :

" وأمّا تكاليف القضاء فهي متواضعة جدّاً في جملتها ويبدو أنّ الحكومة مصممة على نيتها في أن يكون العدل من حق الجميع في كل الحالات . إنّ هذا هو الاعتقاد السائد هنا ، وهذا الاعتبار مضافاً إليه الاختصار في المرافعة وسرعة تنفيذ الأحكام لها تأثير كبير على استقرار الأمن وما ينجم عنه من الطمأنينة في الجزائر ".[81]

و إذا كان القاضي حراً في أحكامه فإنّ للمتقاضين الحق في الطعن فيها لدى مجلس الفتوى الذي ينعقد في عواصم البايليكات الثلاث أو في دار السلطان؛ هذه المجالس كانت تضم فقهاء من المذاهب الأربعة ومجموعة من القضاة وكذا مجموعة من العدول . غير أنّ هذه المجالس لم تكن تنطق بأحكام قضائية وإنّما تنظر في موافقة أحكام القضاة للشريعة الإسلامية فإن وافقتها أيدت الحكم ، وإن خالفتها بيّنت رأي الشريعة في القضية ثمّ تعيد المسألة إلى القاضي لينظر في حكمه . لكن القضاة ونظراً لسلطة هذه المجالس الروحية فإنّهم يقفون غالبا على رأي المجلس ويحكمون وفقا لتوجيهاته .[82]

وإذا رأى أحد الأطراف المتنازعة بعد كلّ ذلك أنّ حقه قد هُضِم فإنه يحق له أن يرفع شكواه إلى السلطات الحاكمة أي إلى الباي إن كان تابعا له أو إلى الداي مباشرة إن كان مقيما في دار السلطان، فيجمع الحاكم المجلس من جديد للنظر في المظلمة فإن ظهر صواب ادعاء الشاكي أعيد له الحق وإلاّ فإنّه يتعرض لعقوبة الضرب على رجله

---

[80] _ Louis de Baudicourt, op cit. , P 281.

[81] _ شالير ،مصدر سابق ص 49 .

[82] _ Louis de Baudicourt, op cit. , p 282.

لأنّه شكّك في عدالة القضاء ولذلك فإنّ هذا الإجراء الأخير نادرا ما يلجأ إليه المتقاضين .[83]

و لم يكن للقضاة دائرة قضائية لا يحكمون خارجها وإنّما يمكن لأي قاض أن يحكم في خصومة مهما كان موطن وقوعها بشرط حضور الخصمين والشهود إن وجدوا. فللمتقاضين حق اختيار القاضي الذي يحكم بينهم ولو كان خارج الأيالة فإنّ العدالة كما يذكر "بوديكور" [84] لم يكن ينظر فيها باسم الأمير وإنّما باسم اللّه ولذلك فكلّ قاض مسلم يمكنه فض التراع بين خصمين مسلمين .

ويؤكد رأي "بوديكور" الوثيقة المدرجة في الملحق رقم(4) وهي وكالة أوقعها قاضي وهران السيد "عبد الله بن محمّد الجيلالي" لشخص قاطن في ضواحي البرج بولاية معسكر حالياً وقد وجدت الوكالة لدى أحفاد قاضي المنطقة التي يقطن بها الموكّل ونص الوكالة كالآتي :

" الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله وآله وصحبه .وكّل بن سليمان ولد عدة بن رمضان السيد اعمر بن الفياح على أن ينوب ويقوم مقامه مع أولاد عمّه وغيرهم في البلاد المخلّفة عن أبيه في أولاد سيدي اعمر بن دوبة وأين ما كانت وكالة صحيحة أقامه فيها مقام نفسه وبدلا عن شخصه وعلى ما يفرض لها بن محاكمة ومخاصمة راجيا منه قبولها بتاريخ أوايل ذي القعدة الحرام سنة1237 لدى العلاّمة القاضي السيد عبد الله بن محمد الجيلالي أعزه الله الواضع خاتمه الرفيع دام مجده وعلاه بمنّه ويمنه . آمين
الحمد للّه وحده الوكالة المذكورة واقعة لدى كاتبة عبد الله بن محمد بن عيد الله المؤمن بربّه ".[85]

وقد طبعت هذه الوكالة بخاتم القاضي المذكور وظهر على الخاتم عبارة عبد الله بن عبد الله قاضي وهران 1237 ، أي أن الوكالة كتبت عند قاضي وهران رغم أن الأرض

---

[83] _ Louis de Baudicourt. op cit.p p 282_ 283.

[84] _ ibid. P 283.

[85] _ مخطوط غير مرقم بمكتبة السيد القاضي محمد ، انظر ملحق رقم (4)

التي تم التوكيل حولها واقعة بضواحي معسكر وتابعة لقاض آخر هو قــاضي ســوق الثلاثاء السيد "عبد القادر بن المختار" الذي وجدت هذه المخطوطة عند أحفاده .

ويعقب "بوديكور" أن القاضي كان وزيرا للشؤون الدينية أكثر منه عاملا لــدى الحكومة فإن أحكامه لم تكن تقتصر على فض النــزاعات المدنية بل تتعداها إلى كــل ما له علاقة بالتعاليم الدينية والأحكام الشرعية والآداب الإسلامية، فكان يُؤدب من لا يحترم الصيّام في رمضان أو من يخل بالحياء العام أو يجاهر بالفاحشــة، كمــا يفــضّ النــزاعات الواقعة بين القبائل المتجاورة، لكن هذه الخصومات إذا كانت كبيرة يشهد جلسات الصلح القايد أو ممثل الباي لما لهذه الخصومات من علاقة بالأمور السياســية ولذلك فإنها لا تترك للقاضي ومرافقيه من العدول وإنما تشكل محكمة مختلطة يشــارك فيها ممثل الحكومة التركية وهو ما يؤكد فعلا أن هؤلاء القضاة لم يكونوا ممثلين فعليين للسلطة بقدر ما كانوا مستشارين مكلّفين بالسهر على مصالح العامة وعلى الشــؤون الدينية[86] .

وإذا لم يكن القضاة عمالا رسميين ممثّلين للسلطة فإن هذه السلطة كانت تحترمــهم أيما احترام وتعتبرهم ممثليها في المناطق التي يشرفون عليها ، ويؤكد ذلك الرسالة الــتي بعث بها الباي "حسن بن موسى" آخر بايات وهران إلى قاضي ســوق الثلاثــاء في رحلته لتقديم الدنّوش والتي جاء فيها :

"الحمد لله ، المكرم قاضي الثلاثة سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعــد إننا دخلنا محروسة الجزائر صبيحة يوم الاثنين الخامس عشرة يوما من شهرنا هــذا على الحالة المرضية والطريقة المرعية وفرح بنا سيدنا نصره الله فها نحــن بشــرناك والسلام بأمر المعظم الأرفع السيد حسن باي "[87] .

ويظهر من هذه الرسالة كيف أن الباي أخبر قاضيه عن أحواله بالعاصمة ، ويفهم من الرسالة أن الباي حافظ على منصبه فها هو يشير بذلك إلى قاضيه الذي ســينقل بدوره هذا الخبر إلى الرعية .

---

86 _ L. de Baudicourt, op cit. P 283.

87 _ مخطوط غير مرقم لدى مكتبة السيد محمد القاضي ، انظر ملحق رقم (12)

وكانت السلطات الحاكمة تمنح هؤلاء القضاة وثائق تثبت تعييناتهم في المقاطعات المحددة لهم وتوصي فيها باحترامهم فيكتسبون بذلك سلطة تخضع لها العامة زيادة على سلطتهم الروحية فقد جاء في وثيقة تعيين القاضي سابق الذكر ما نصه :

" الحمد لله هذا طابعنا السعيد بيد ماسكه سي عبد القادر بن المختار على أننا أنعمنا عليه ووليناه قاضيا بسوق الثلاثة ولمن شاركوه قبله وأوصينا له بالحرمة الكاملة والمبرة الشاملة إنعاما تاما شاملا عاما وبتاريخ أواسط رجب عام 1232 بأمر المعظم الأرفع السيد حسن باي وفقه [الله]"[88].

ولقد ختمت وثيقة التعيين بخاتم الباي الذي هو على شكل دائري وطبعت عليه العبارة التالية (الواثق بالرحمن حسن عبد باي بن موسى) تحيط بها مجموعة من الرسومات الدقيقة وفي أسفله سنة 1232 ، كما أن الحبر الذي كتبت به هذه الوثيقة برّاق تعكس أحرفه الضوء إذا تعرضت له ربما تمييزا للحبر الأميري عن غيره من أنواع الحبر.

ويعرض "أبو القاسم سعد الله" في دراسته لأحد دفاتر محكمة المدية نماذج لعقود مختلفة منها وثيقة تتعلق بقبض أحد الميزابيين قدر من المال على وجه القراض ذكر فيها كما يقول نسب الميزابي وقدر المبلغ المتعاقد عليه واسم السيدة المانحة وأشهد فيها على نفسه أنه قبض هذه النقود على وجه القراض وأن ما يحصل من الربح بينهما مناصفة [89].

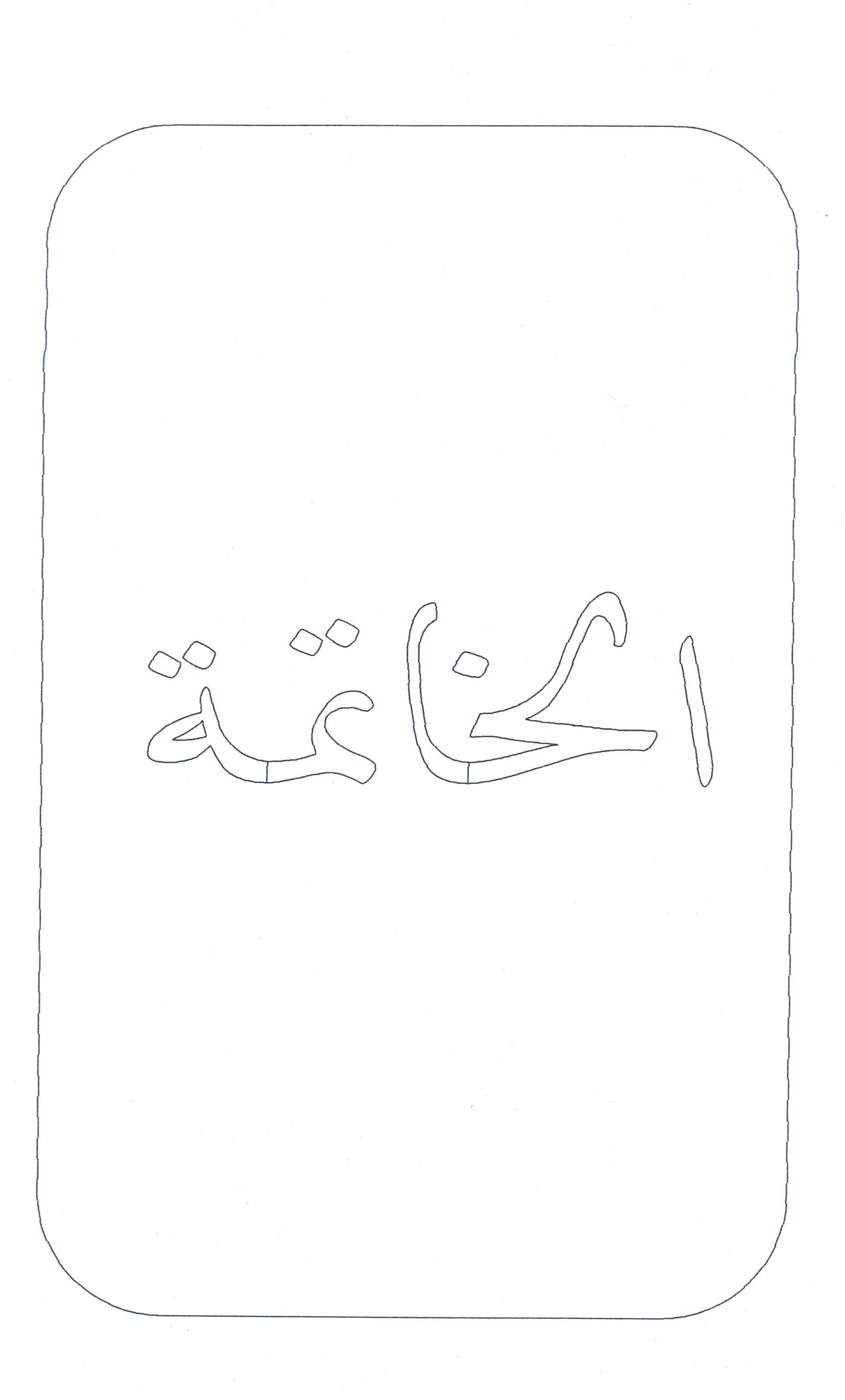
ويتضح من هذه الوثيقة ومن غيرها من الوثائق التي يُعلّق عليها في هذه الدراسة الدّقة المتناهية في ذكر جزئيات المسائل المتعاقد عليها ، وهذه الميزة لم تقتصر على عقود محكمة المدية وحدها بل تؤكدها مجموعة الوثائق الموجودة في مكتبة السيد القاضي محمد إذ تحمل هي الأخرى كل التفاصيل حول موضوع العقد سواء أكان عقد بيع أو شراء أم كان وكالة أم كان فض نزاع ناشئ حول إرث أو أي نوع من المعاملات الأخرى .

[88] _ مخطوط غير مرقم لدى مكتبة السيد محمد القاضي ، انظر ملحق رقم (01)

[89] _ أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء ، مرجع سابق ، ج2 ، ص 288 .

وفي صيغ عقود البيع والشراء نجد الإشارة إلى ثمن المبيع ونوع النقود وصيغة الدفع كما نجد التأكيد على صفة الديمومة في البيع وأنه خال من الموانع وربما مردّ ذلك إلى حصول منازعات كثيرة في مثل هذه المعاملات كما يشير الدكتور أبو القاسم سعد الله في الدراسة السابقة[90].

[90] _ أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء ، مرجع سابق ، ج2 ، ص 289 .



الخاتمة

لم تكن الجزائر في عهد الدايات غابة للوحوش كما وصفها الرحالة الأوربيين ولا كان حال الأسرى المسيحيين بها أسوأ حالا مما كان عليه نظراؤهم من الجزائريين في دول أوربا بل العكس هو الصحيح وإنما مرد تلك الصورة المهولة يعود إلى ما تحدث به هؤلاء الأسرى لاستعطاف مواطنيهم بعد عودتهم كما روى الضابط الروسي كوكوفتسوف في كتابه الذي كتبه بعد فترة من الأسر قضاها في الجزائر . كما أن الوسطاء الذين كانوا يتولون عملية تحرير الأسرى و إعادتهم إلى بلادهم كانوا يغالون في وصف أحوالهم بالأسر حتى يجمعون أكبر قدر من الأموال ذلك أن هذه العملية كانت تدّر عليهم أموالا طائلة من حكوماتهم ومن أهالي الأسرى [1].

وإذا كان هذا التهويل مرفوضا يرده الواقع الملموس في عدد من المؤلفات المعاصرة فليس معنى هذا أن الجزائر كانت جنّة لسكانها بجميع طوائفهم ولزوارها بجميع أصولهم فمعلوم أن الأوجاق استأثروا بالحكم دون سواهم وفضّلوا الأعلاج الذين ارتدوا على الديانة المسيحية وتتركز (إذا صحت العبارة) في حكمهم على أبناء البلد المسلمين بل على أبناء أصلابهم من النساء الجزائريات وفضّلوا عليهم أبناءهم من الأسيرات المسيحيات وربما كان ذلك سياسياً فكرة ناجحة ضمّت للأوجاق تماسكهم وتركيز قوّتهم ولكنه اجتماعيا جعلهم يعيشون صراعاً مستمراً مع النفس دفعهم إلى توجس الخوف من طبقات المجتمع الأخرى خاصة بعدما سلّطوا مظالمهم على الرعية و لم يسلم منهم غير طائفة محدودة من الطبقات المحظوظة.

أما الطبقات الاجتماعية التي وقفت مع العثمانيين كالمرابطين والكراغلة وقبائل المخزن وغيرهم فقد كان لها مصالحها الحيوية التي يضمنها لها بقاء الوجود العثماني رغم نقائصه . و لم تكن هذه الطبقات وحدها هي من يقبل بهذا الوجود بل حتى العامة قبلوا هذا الوجود لأنه كان يستمد شرعيته من الخلافة في

[1] _ Emrit ," Description de l'Algerie en 1787 par l'officier Russe Kokovtsov" , Revue d'Histoire maghrebine tunis n 4, 1975,p 213 .

استمبول لأن هذا التأييد الروحي كان له في ذلك العصر أثر كبير في قبول السلطات وإزالتها بالإضافة إلى أن مجهود هؤلاء الأوجاق في صد الحملات المسيحية البلاد لاسيما في بداية عهدهم . ومع جهاد البحر الذي تصدره العثمانيون جاءت الغنائم فنعم بها الأوجاق ومعهم جميع السكان ، فالجزائريون لم ينسوا للعثمانيين رغم مظالمهم الكثيرة أنهم هم الذين خلّصوهم من الاحتلال المسيحي المؤكد للبلاد كما أنهم وفروا للبلاد استقرارا ووحدوها تحت عاصمة تجمع شرق البلاد بغربها بعدما مزّقتها صراعات الزعامات السابقة للعثمانيين وبعدما كان الجزائريون خاصة منهم سكان المناطق الساحلية يدفعون الأتاوات للإسبان خوفا من بطشهم أصبحوا يجنون أموالا طائلة من المبادلات التجارية التي نعمت بها موانؤهم ومن بيع الأسرى الذين تحملهم سفن البحرية الجزائرية في كل حين .

غير أن كل هذا لم يدم ، فمع نهاية عهد الدايات ذهبت هذه الحسنات جميعها فالتحرشات الأوربية بالسواحل الجزائرية أصبحت لا تنقطع وقدرة الأسطول الجزائري على صد هذه التحرشات أخذت في التناقص كما أن غنائم البحر تقلصّت إلى حد كبير جعل الأوجاق يزيدون على ظلمهم السابق إتلواتهم وضرائبهم التي لا تنقطع لمواجهة عجز الخزينة الذي فرضه نقص تلك الغنائم . وبالتفات الأوجاق إلى الداخل تناقصت امتيازات الطبقات التي كانت تدعّم الوجود العثماني وعلى رأسها المرابطين فقادت الطرق الصوفية ثورات مستمرة على هذا الوجود . ولولا تدخل الفرنسيين في سنة 1830 م فإن هذه الثورات كانت ستفضي لا محالة إلى ثورة وطنية متحدة قد تؤدي إلى ظهور حكم وطني بالبلاد.

الملاحق

ملحق رقم : 01

مرسوم تعيين قاضي

في عهد الدايات[1]

[1] _مخطوط غير مرقم بمكتبة السيد محمد القاضي

ملحق رقم : 02

رسالة من باي وهران

إلى قاضيه بسوق الثلاثة[2]

2_ مخطوط غير مرقم بمكتبة السيد محمد القاضي

ملحق رقم: 03

عقد بيع[3]

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد

اشترى على بركة الله وحسن عونه السيد

عبد القادر بن المختار القاضي الازواد المحراز

بكر موسى التمري من الكحلا السيد عبد

القادر بن عثمان الكبير بثمن قدره ومقداره

ستة مثاقيل معدودة على الوفاء والتمام

قبضا حسيا وزنا مرضيا بصحة التاريخ بيعا

بتا بتلا بلا ثنيا ولا خيار تم عقده وانبرم

هما قند على سنة بيع المسلمين والمرجع بالدرك

وحدودها من جهة القبلة الطريق الذاهبة للحج

والطلع مع بعض القطع التي يقطع عند الجنان

الكبير من جهة التحتنين والطلع الى الحفاير ومع

معه الى المقصورة ومن جهة الشرق الطريق فتح

الوبح الذي بينه وبين اولاد محمد ومسير الى الشواطئ ومع تحلو

ومسير الى العيران التي في البيع القطع الاخرى ولا

والطلع شاهد على ذلك البيع اشهادا واعترافا

السيد عبد القادر بن محمد العسكر وعبد القادر بن

القاسم ومحمد ابن الخديم ومحمد بن ادريان [illegible]

العيسا وكتب بتاريخ اوائل شعبان عام 1225 م

احمد بن محمد بن بابه طبنة لطف الله به امين

الحمد لله وحده

حضر لشاهد [illegible]

وفهمنا [illegible]

وكتبنا عنه [illegible]

---

[3] _مخطوط غير مرقم بمكتبة السيد محمد القاضي

ملحق رقم : 04

وكالة[4]

عبد الله [illegible]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا ومولانا محمد

وكل بن سليم [illegible] بن رمضان السيد العربي بن [illegible] على أن
ينوب ويقوم مقامه مع أولاد عمه وغيرهم في البلاد [illegible]
عن [illegible] في أولاد [illegible] العربي بن [illegible] وأين ما كانت وكالة صحيحة
تامة [illegible] وعلى ما يعرض [illegible]
[illegible]
[illegible] للسيد العلامة القاضي السيد عبد الله بن [illegible]
[illegible]
الحمد لله [illegible] الوكالة المذكورة [illegible]
[illegible] عبد الله بن [illegible] الله [illegible]

---

4 ـ مخطوط غير مرقم بمكتبة السيد محمد القاضي

ملحق رقم : 05

الصفحة الأولى

من كتاب حول علم المدافع [5]


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

كتاب العز والمنافع للمجاهدين في سبيل

الله بالمدافع تاليف الرئيس ابراهيم

بن احمد غانم ابن محمد

بن زكريا الا

ندلسي

كتبه بالاعجمية وترجمه له بالعربية

ترجمان سلاطين مراكش احمد

بن قاسم بن احمد ابن الفقيه

قاسم ابن الشيخ الحجري

الاندلسي

غفر الله له ولوا

لديه ومؤلفه

وكاتبه وجميع

المسلمين

امين

يارب

العا

لمين

5 _مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1511 .

ملحق رقم: 06
الصفحة الأخيرة
من كتاب حول علم المدافع [6]


123

من ذي القعدة عام خمسين والف على يد العبد
المذنب الراجي عفو الله وغفرانه محمد
خوجه بن احمد المترجم للكتاب بن قاسم
بن احمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ
الحجري الاندلسي كتبه
في مدينة تونس
حرسها الله

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وصحبه
وسلم تسليما

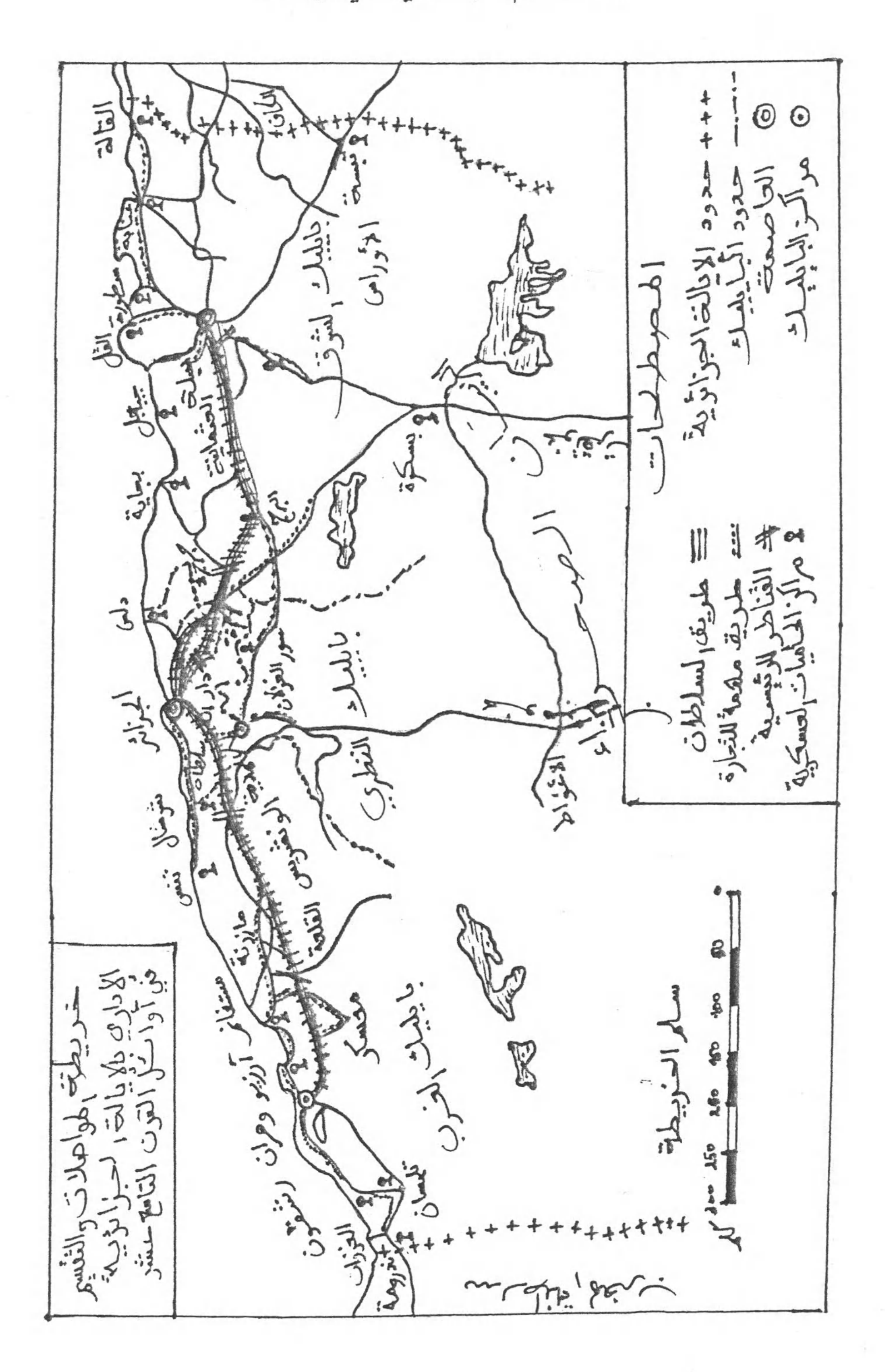
---

[6] _مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1511 .

ملحق رقم : 07

خريطة المواصلات

والتقسيم الإداري في ق19 [7]

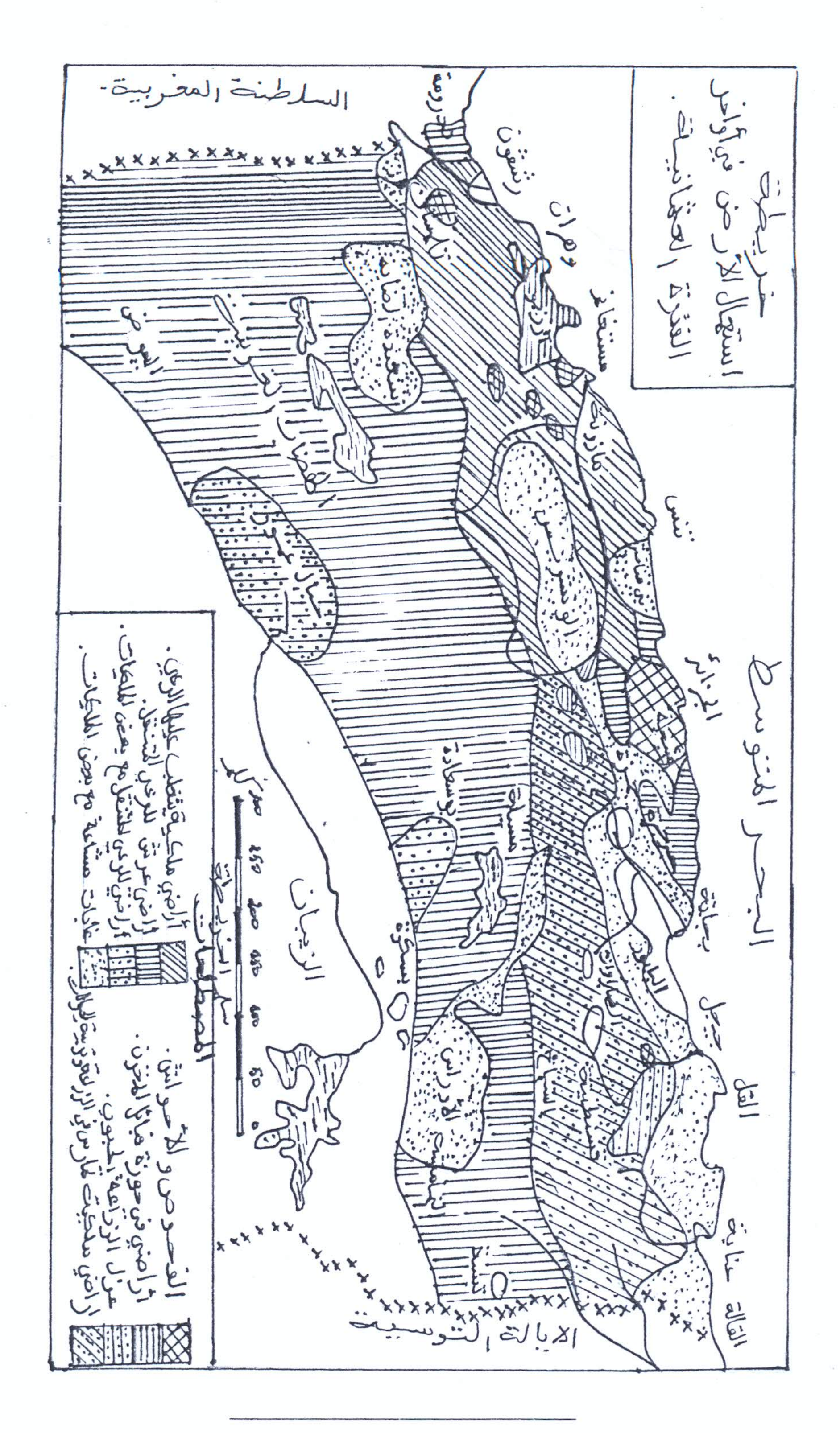


---

7 _ناصر الدين سعيدوني ، مرجع سابق ، ص 162.

ملحق رقم : 08

خريطة استعمال الأرض[8]



---

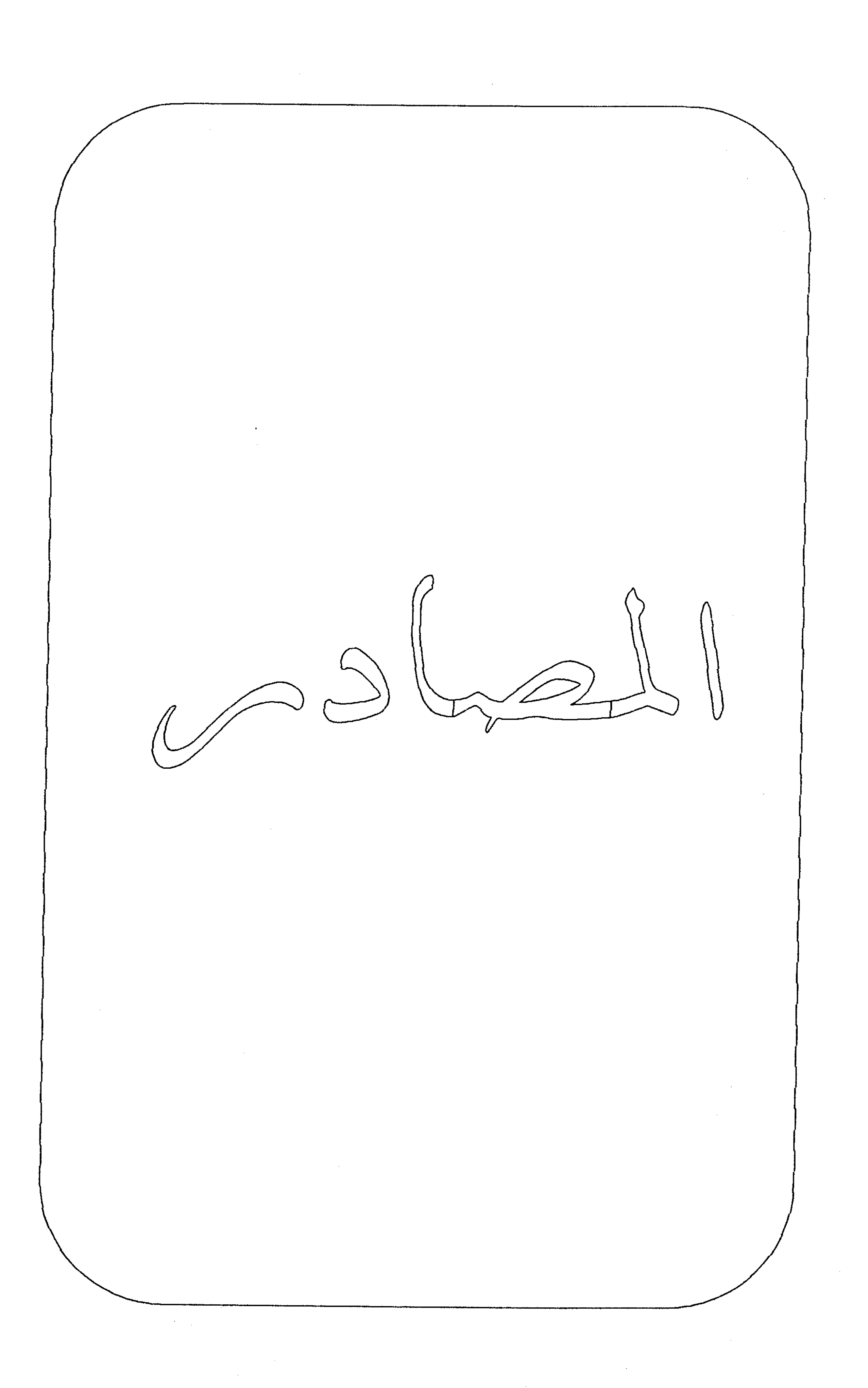
8 _ناصر الدين سعيدوني ، مرجع سابق ، ص 156 .

ملحق رقم : 09

النقود الذهبية و الفضية الجزائرية[1]

أنواع النقود الذهبية	قيمتة النقود الذهبية
السلطاني	8, 5 بدقة شييك أو 11 فرنك
نصف سلطاني	6, 75 ب ش أو 4,44 ف
ربع سلطاني	3, 6 ب ش أو 8 ,3 ف
السلطاني الجديد	8, 89 ف
أنواع النقود الفضية	**قيمة النقود الفضية**
ريال بوجو	3 ب ش أو 6 ,1ف
ربع بوجو	0, 75 ف
ثمن بوجو	0,37ب ش
زوج بوجو أو دورو	6 ب ش
الموزونة	0,12 ب ش أو 0,75 ف
زوج موزونة	0, 25 ب ش أو 15 ,3 ف

1 _ ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، مرجع سابق ، ص ص 207_208 .


المصادر

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. ابراهيم بن أحمد بن زكرياء الأندلسي، كتاب العز و المنـــافع للمجـــاهدين في سبيل الله بالمدافع ، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1511 .
2. آجيرون،شارل روبير ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ترجمة عيسى عصفـــور ، ط2 (الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982) .
3. الأشعري ، أبو الحسن ،مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين ، تحقيق محمـــد محي الدين عبد الحميد ، (بيروت : المكتبة العصرية ، 1990) .
4. بوعزيز ،يحيى ، الموجز في تاريخ الجزائر ، الجزائر ،ج 2 ، (ديوان المطبوعـــات الجامعية ، 1999) .
5. التميمي ،عبد الجليل ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، الجزائر ، تونس وليبيـــا 1816 _ 1871 ط2 (الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1985).
6. الجزائري ،عبد القادر المشرفي ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحـــت ولايـــة الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر ، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكـــريم ، (الجزائر : بدون ت) .
7. الجزائري ،محمد بن ميمون ، التحفة المرضية في الدولة البكداشــــية في بـــلاد الجزائر المحمية ، تقديم و تحقيق د/ محمد بن عبد الكريم ، ط2 ، (الجزائر: الشـــركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1981) .
8. الجيلالي ،عبد الرحمان،تاريخ الجزائر العام ، (الجزائـــر :ديـــوان المطبوعـــات الجامعية ، 1985) .
9. حاجيات ،عبد الحميد ، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره ط2 (الجزائـــر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982)

10. حمادوش ،عبد الرزاق بن ، رحلة ابن حمادوش الجزائري ، تقـــديم وتحقيـــق وتعليق د/ أبو القاسم سعد الله ،(الجزائر:الشركة الجزائرية للنشر و التوزيـــع ، 1983).

11. خوجة ، حمدان بن عثمان' المرآة تقديم و تعريف د/ محمد العربي الزبـيري، ط 2 (الجزائر : المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1982) .

12. دودو، أبو العيد ، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان .

13. القيرواني ،ابن أبي زيد ، متن الرسالة ، (الجزائر : مكتبة رحّاب ،1987).

14. الراشدي ،ابن سحنون ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي ،(قسنطينة : مطبعة البعث ، 1973) .

15. الزهار،أحمد الشريف ، مذكرات أحمد الشريف الزهار، تحقيق أحمد توفيـــق المدني ،ط2،(الجزائر :الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1980).

16. الزياني ،محمد بن يوسف ، دليـــل الحـــيران وأنيـــس الســـهران في أخبـــار مدينةوهران، رالجزا((الجزائر :الشركة اللنشر والتوزيع ،1978).

17. سبنسر ،وليم ، الجزائر في عهد ريّاس البحر ، تعريب وتقديم د/ عبد القـــادر زبادية ، (الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،1980).

18. سعد الله ،أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي ، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشـــر والتوزيع ، 1981) .

19. سعيدوني ،ناصر الدين ، النظام المالي للجزائر في أواخر العـــهد العثمـــاني (1792 _ 1830) ، ط 2 ،(الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985).

20. سعيدوني ،ناصر الدين ، دراسات وأبحاث في تـــاريخ الجزائـــر ، (الجزائـــر: المؤسسة الوطنية للكتاب ،1984).

21. سعيدوني والبوعبدلي ، الجزائر في التاريخ ، (الجزائر : المؤسســـة الوطنيـــة للكتاب ،1984) .

22. سعيدوني ،ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب ،1984) .

23. السليماني ،أحمد ، تاريخ مدينة الجزائر ،(الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعية ، بدون ت) .

24. السنوسي،بن عبد الله محمد بن عثمان ،مسارات الظريف بحسن التعريف،تحقيق وتعليق محمود الشاذلي النيفر ، ج1، (تونس،دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع 1983) .

25. شالير، وليام، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816 _ 1824 تعريب وتعليق إسماعيل العربي(الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1982).

26. شريط ، عبد الله ومبارك الميلي ،مختصر تاريخ الجزائر السياسي و الثقافي و الاجتماعي ،(الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985) .

27. عنان، محمد عبد الله ، "صفحات من عدوان الاستعمار على المغرب الكبير وصفحات من جهود الشعوب المغربية لرده " محاضرات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي ج1 (الجزائر : منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، دار البعث،1973) .

28. العنتري،محمد بن الصالح بن ،فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة و استيلائهم على اوطانها أو تاريخ قسنطينة ،مراجعة و تقديم و تنسيق د/يحي بو عزيز ،(الجزائر :ديوانالمطبوعات الجامعية،1991).

29. فيلالي ،مختار بن الطاهر ، رحلة الورتلاني ، عرض و دراسة (باتنة: دار الشهاب ، بدون ت) .

30. قنان ،جمال ،نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500 - 1830 (الجزائر:المؤسسة الجزائرية للطباعة ،1987).

31. كاثكارت ،ج.ل. ،مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا ،تحقيق إسماعيل العربي (الجزائر :ديوان المطبوعات الجامعية 1982) .

3 2. المدني ،أحمد توفيق ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492 ــ 1792)، ط2 (الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1976) .

3 3. المدني،أحمد توفيق ، محمد عثمان باشا داي الجزائر1766م_1791م، (الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986).

3 4. المزاري ،بن عودة ، طلوع سعد السعود في تاريخ وهران ومخزنها الأسود ، تحقيق د/ يحيى بو عزيز ،ج1 ، ط2 ، (بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1990).

3 5. مسلم، بن عبد القادر ، أنيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بو نار ، (الجزائر: الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ،1974) .

3 6. الناصري ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد ، الاستقصى لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصري ، ج 8 ،(الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1956) .

3 7. هطال ،أحمد بن ، رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري ، تحقيق و تقديم محمد بن عبد الكريم ، (بلا : عالم الكتب ، بدون ت)

3 8. وولف ،ج،ب،الجزائر و أوربا ، ترجمة د / أبو القاسم سعد الله ، (الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1986) .

39. مجموعة مخطوطات غير مرقمة بمكتبة السيد القاضي محمد حفيد السيد عبد القادر بن المختار ، القاضي لدى الباي حسن آخر بايات وهران .

المقالات

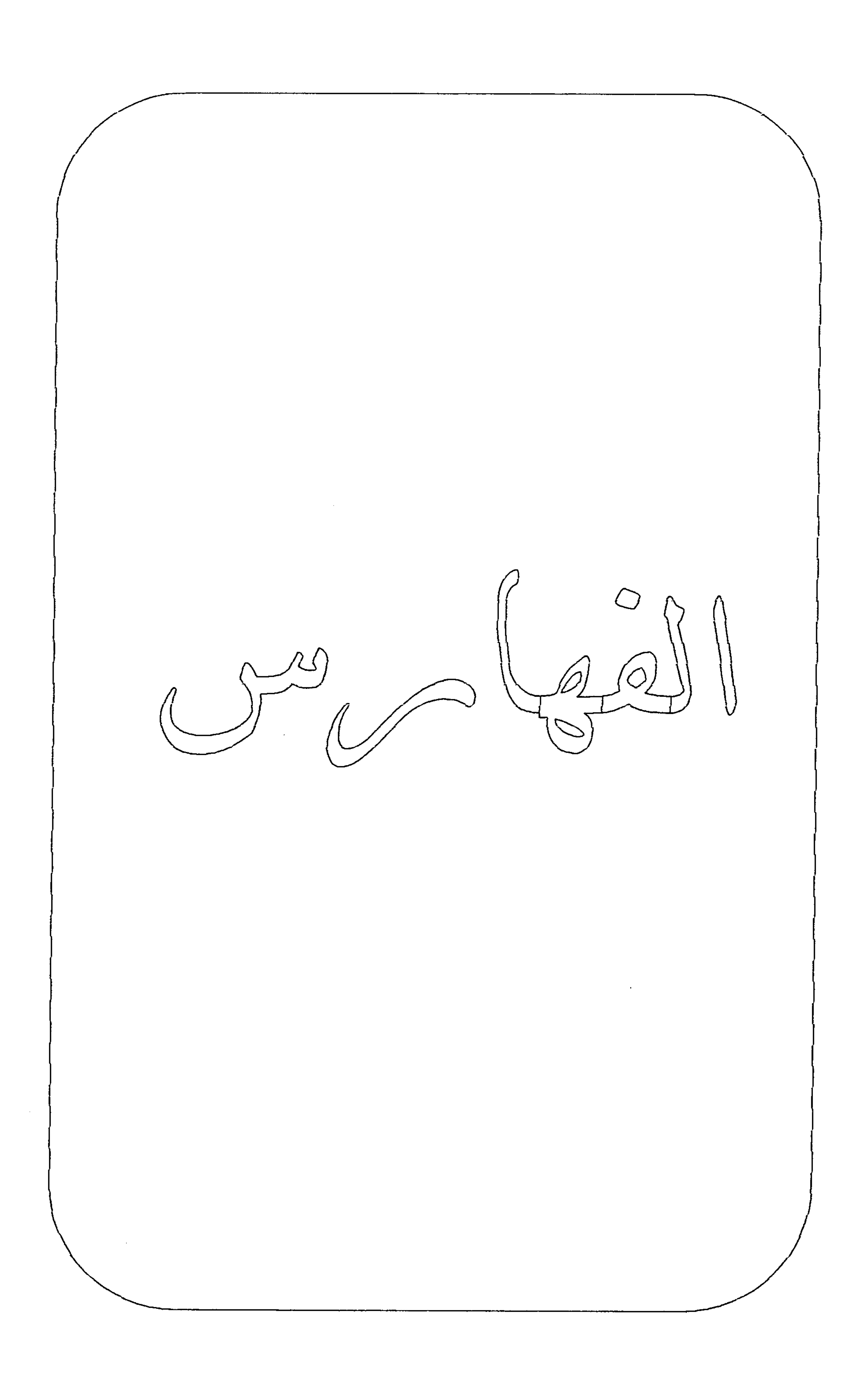
1. بلحميسي ،مولاي ،" الثورة على الأتراك في الجزائر ، الثقافة ، ديسمبر 1978.
2. بوعبدلي ،المهدي،" عبد الكريم بن الفقون القسنطيني (988_ 1073) والتعريف بتأليفه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية " ، الأصالة عدد 51 ذو القعدة 1397 هـ/نوفمبر1977م .
3. سعيدوني،ناصر الدين ،"الإنسان الأوراسي وبيئته "، الأصالة ، أوت سبتمبر 1978 م .
4. سعيدوني ،ناصر الدين ، " دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالجزائر " ، الأصالة ، ربيع 2 1396 هـ / أبريل 1976م .
5. سعيدوني، ناصر الدين: "الأحوال الصحية و الوضع الديموغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني" ، الثقافة ، عدد 92 (الجزائر: جمادى2 ،رجب 1406/ مارس ، أفريل 1986) .
6. العربي ،إسماعيل ، "صنهاجة وكتامة وغيرها من البربر سكان شمال إفريقيا " الأصالة ، شعبان رمضان 1393 ه / سبتمبر أكتوبر 1973 م .
7. غطاس،عائشة،" الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني"، الثقافة يوليو -أغسطس 1983 .
8. غطاس،عائشة، "الصداق في مجتمع مدينة الجزائر (1672م-1854م) من خلال سجلات المحاكم الشرعية"،إنسانيات ، عدد4 ، وهران جانفي 1998 م
9. قشي ، فاطمة الزهراء ، "الهبة و مؤخر الصداق : ممارسات قسنطينة في القرن 18 " سيرتا عدد خاص أكتوبر 2000 .
10. قنان ،جمال ،" أوضاع الجزائر عشية الغزو الفرنسي 1800 _1830" الذاكرة عدد 6 ،نوفمبر 2000 .
11. مزيان ،عبد المجيد ، "الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل عهد الاستعمار "، الثقافة ، عدد90 نوفمبر / ديسمبر 1985.
12. مسعود،العيد ، " حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني " سيرتا ، ماي 1980 .
13. مهديد، إبراهيم " الأريسطوقراطية التقليدية الوهرانية خلال القرن 19م والرأسمالية الإستعمارية :إشكالية الاندماج الاجتماعي" إنسانيات ،عدد4 وهران جانفي 1998م.

المصادر باللغة الأجنبية

1. Baudicourt, Louis de, La guerre et le gouvernement de l'Algérie, (Paris : Sagnier et Bray librairie, 1853) p 278.
2. Boudia, A.M. ,La formation sociale algerienne precoloniale, (Alger: o.p.u, 1981).
3. Boyer, Pierre, la vie quotidienne a Alger a la veille de l'intervention française, (Monaco :Ed hachette, imp nationale, , 1964).
4. Belhamissi , Histoir de la marine Algerienne , : : :
5. Dr Shaw , Voyage dans la regence d'Alger , trd de l'anglais par I Mac Carthy , (Tunis , Ed Bouslama , 1980).
6. Esquer ,Gabriel, Reconaissance des villes , forts et batteries d'Alger , (Paris : irie Honoré Champion , 1927) .
7. Esterhazy.Walsin , De la domination turque dans l'ancienne regence d'Alger , (Paris : librairie de Charles Gosselin , 1840) .
8. Gaid, Mouloud ,L'Algerie sous la domination turque, (Tunis: Maison tunisienne de l'edition, 1975) .
9. Galiber,M. Léon t ,L'Algérie ancienne et moderne (Paris : Furne et Cie éditeur , 1846).
10. Grammont, H, D de, Histoire d Alger sous la domination turque 1515_1830 (paris :Ed, Leroux, 1887).
11. Grammont , H.d de, Histoire d'Alger sou la domination turque (1515-1830) (Paris : imp Baudin et Cie , 1887).
12. Haedo.Fray Diego de, Histoire des rois d'Alger , (Alger : lib A.Jourdan , 1881) .
13. J.Leon.l'Africain,Description del'Afriquetrd par A.Epaulard ,(Paris : lebrairie d'Amerique et d'Orient , 1981).
14. Lacoste ,Y., A. Nouschi,et A. Prenant ,L'Algérie passe et présent (Paris : éditions Sociales, 1960).
15. Paradis, V. De ,Alger au xviii siecle (Tunis: editions Bouslama , 1980).
16. Rozet et Carette, Algérie 2 em ed (Tunis : édition Bouslama,1980).
17. Rouseau.Alphonse, Chronique de la regence d'Alger ,(Alger : imp du gouvernement, 1841) .
18. Tassy ,Laugier de, Histoire du royaume d'Alger ,(Paris :ed Loysel, 1992)

المقالات باللغة الأجنبية

1. Boyer" ,Le probleme kouloughli sous la regence d'Alger" , l'Occident Musulman, n special , 1970 .
2. Ber brugger ,« Les Aribs» , Revue africainne T 08 (Alger :ed Bastide , 1864).
3. Degrammont.Hde, « quel est le lieu de la ;ort de Aroudj barberousse » ,Revue Africainne , (Alger : lib A.Jourdan , 1878) .
4. Emrit , « description de lAlgerie en 1787 par l"offcier russe Kokovtsov » ,Revue d'histoire maghrebine ,Tunis,n 4 1975 .
5. Galissot, René ,« Le mode de propriété des terres algériennes en1830 », Bultin d 'information historique ,Fevrier,1965 .
6. Levy,Prencale,"bahdjete en nadhir" Revue Africaine , (Alger : OPU,1924)



الفهارس

فهرس الموضوعات